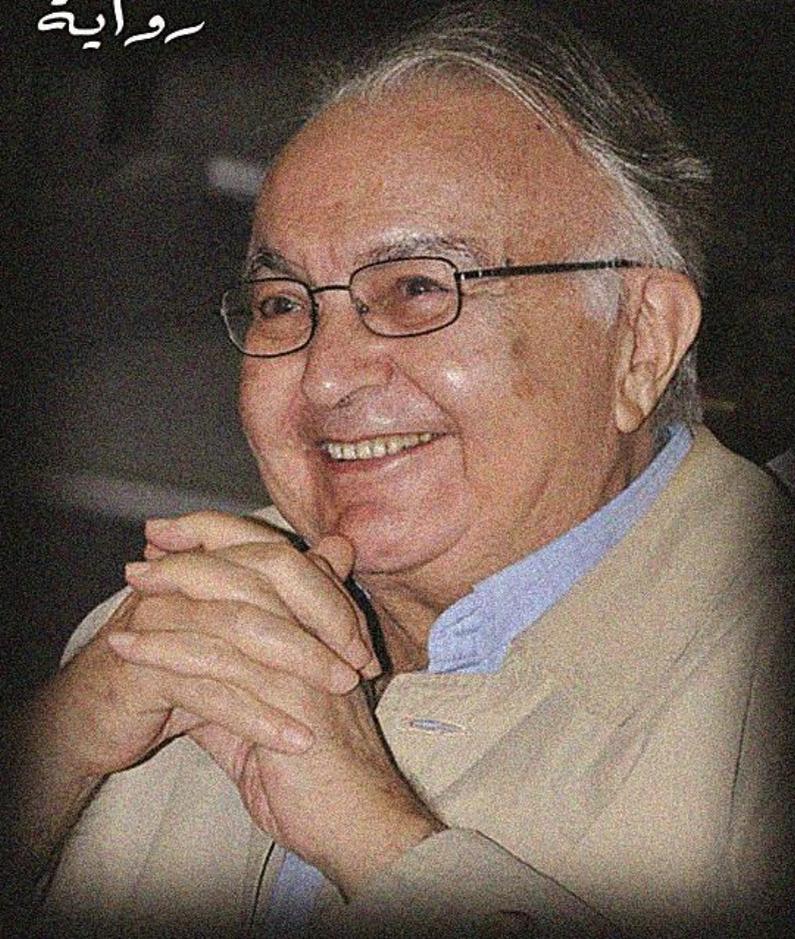


وزارة الثقافة  
الهيئة العامة السورية للكتاب  
علي مولا

# السيرة الحلبية

رواية



وليد إخلاصي

قصص وروايات 43

## السيرة الحلبية

تصميم الغلاف

فراس نعوف

وثيد إخالاصي

# السيرة الحلبية

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

---

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٠

## قصص وروایات

« ۴۳ »

## عن كاتب السيرة

(١)

امتد بساط الحزن يسابق خطوات أيامه التي تعثرت، وكانت تطوي ذفافات مهترئة في كهف الوحشة. ها هو خريف الوحدة قدّم كساحفة تورمت أقدامها من الزحف لسنوات، وها هي ذفافات الشتاء تذدر بالمخاوف التي يأتي بها الربيع عادة ليحمل اختناقات (الربو) هدية موسمية يقدمها إلى (سلام المحارب).

لم يعثر الرجل يوماً على تفسير للعلاقة بين اسمه ولقب العائلة فبقيت مبهماً، فتاريخها لم يسجل واقعة أو حدثاً أشار إلى حرب أو نلّ على محارب باستثناء ما قيل عن جدّه العجوز من أخبار بلغت سلام في طفولته.

قضى الجدّ عبد السلام نحبّه في حفرة، فبينما كان عادداً من مقهى الحارة وقع في كهريز مفتوح فلم يدركه أحد. وفي تلك الليلة فوجئ رفاق المقهى بحكايات جديدة انطلق أحدهم في قصتها

عليهم لتدور حول مغامراته يوم كان جندياً في الجيش العثماني. بطولات في (جنق قلعة) أو في ديار (البلقان). وإذا ما غادرهم انطلق كل منهم في التعليق على أكاذيبه المسلية. ويبدو أن حانث جدّه دفع بسلام المحارب، الذي بات كاتباً معروفاً، إلى التساؤل إن كانت الأعمال التي كتبها امتداداً لمخيلة الجدّ الناشطة.

كان بخاخ الربو بذراته يحصي الأيام المقتربة من الصيف ليتوقف الخناق الربيعي الذي يشنه في لحظات لولا الدواء الذي يلازمه على مدار الساعات فيضع حداً لضيق أنفاسه. ولكن الفصول الأخيرة من فقده لزوج (سعاد) لم يكن لها علاج بالرغم من ذكريات الحب التي حافظ عليها.

أربعة عقود من الحب والتعاطف والشوق الذي جمع بين جسدين وروحين ما لبث أن انتقل وصالهما إلى المشاركة بين ما يكتبه الزوج وما تقرأه سعاد. كانت أول قارئة لمخطوطات الكاتب الذي أعلنه المفضل لديها، وكثيراً ما كانت تطالب منه تعديلاً أو تغييراً فيستجيب لها لإيمانه بقدرتها على إبداء الملاحظات الذكية. وهو في قبوله لتلك الآراء ظلّ يخفي تساؤلاً عن تلك المرأة التي ترعرعت في بيت ريفي على سفح جبل ولم تكمل تعليمها الجامعي، فهل كانت الصخور التي ينمو بينها الزعتر البري لتحط على أزهاره أسراب النحل هي التي منحتها وعياً بروح الكتابة الفنية وأهلتها لإطلاق الأحكام على أحداث

رواية أو تمثيلية للتلفزيون أو المسرح. وعن الوجه الآخر للتساؤل عن سرّ سعاد التي يتأفّعي جسدها في الفراش بينما يتحوّل في الحياة اليومية إلى ما يشبه تمثالاً من رخام ينطق بحكمة الاتقان والوقار ويفرض على الآخرين جماله فتتعلق به الأرواح. وخيل لسلام أن امرأته أخذت من شجيرات الورود خصال الاستجابة للرياح لتعود في فترات هدوء الطبيعة إلى شموخ أغصانها، وكانت سعاد تملك حدة أشواك الورد دون أن تتسبب في جرح أحد.

وحيداً يدور في أرجاء بيته، يمسح بعينه الجدران والزوايا والمقاعد، الأسرة والخزائن، الدوافذ والأبواب. هو يدور فتخرج له من الفراغ حياة تطل بألوانها وروائحها تتمثل وهماً ما إن يراها ويتشققها حتى تدق لحظة الضياع. ومن جديد تتكرر الحيلة التي خدعته، حياة تأتي من الماضي ليشهد معظم أنحاء المنزل سلام يخطف قبلة من خدّ سعاد زوجته في حملها الأول و الأولاد يتعاقبون على بيت الحب كأكامم الأزهار يفتح الواحد بعد الآخر. الأسرة ما زالت تملأ فضاءات المكان الذي وقع في أحضان حديقة ظلت سعاد تضخ فيها الحيوية إلى أن اختارها ملاك الموت ليختطفها تاركاً وراءه آثارها الباقية عاجزاً عن حمل الذكريات معه. كثيرة تلك السنين كأحجار صقلها الحب فانتشرت في أرض العمر الجميل كتماثيل نهزأ بالزمن.

وفي أيام الوحشة احتلت شباك عنكبوت ما تخيله الرجل الوحيد في الزوايا والممرات، لكنها لم تعق حركة سلام في تجواله القائه. ظنت قدماه تزحف في مسار دوائر لا بداية لها ولا هدف. هي بطيئة كشفت عن تخاذهل عجوز كان من قبل حيويًا بالرغم من السبعين عاماً التي منحتها القوة كتابته وزوجه. وها هو في الفترة القاحلة يحس بأن جراد الوحدة قد أتى على كل أعشاب أرضه وأشجارها فلم يبق من حياته سوى تراب يابس لا تنمو فيه فكرة أو لغة.

وقف أمام صورة سعاد التي طغى على إطارها لون الجدار الذي كان مساوياً فتحوّل إلى أزرق ليلي، وكان من قبل يتأملها بصمت إلا أنه أخيراً خاطبها بعتاب اخترق نسيجه ألم الوحدة:

‘أعترف بأن قلبي قد جف يا حبيبته، وتيّمّ بياض الورق:’

وصرخ في العتمة التي لم تنجح شمس النهار في تبديدها:

‘أخطأ ملاك الموت في الاختيار:’

وبالرغم من مرور فصول على رحيلها فقد عاود صراخ

الغضب:

‘ألم يبلغه نبأ الحب الذي جمع جسدينا في روح واحدة!‘

وجعل يتحسس بكفه زجاج الصورة ليدور على وجه سعاد.

الخدان يشعان بحرارة سرت في أوصاله، والشعر الناعم الأسود

يتخلل أصابعه فيوقف حنينه. وكأن إغماضة عيون الزوجين ترافق وصول النشوة إلى ذروتها. سعاد تتضح برذاذ الشوق فيمتلئ جسد سلام بماضي العمر الذي ما عاد مؤهلاً للنسيان، وهتف الزوج إن كانت الحبيبة ستبقى على العهد، آنذاك تجلت له نظراتها في الصورة لتقول إن كنت تشك في ذلك.

وتكرر وقوفه أمام الجدار الآخر يتأمل أولاده. شجرة الحب التي حملت أغصانها الثمار، كانت في صدور الأبناء الثلاثة. تأملها فكأنهم يتطنعون إلى أمهم، وما إن يكشف أنهم ينظرون إليه حتى يدرك أن العائلة قد اجتمعت في دائرة تبادل المحبة. صفية، بلال، حمزة، كان سلام يسمعهم يهتفون من أعماق غريبتهم باسم أمهم الذي ظلّ من أيام الطفولة إلى الشباب يُنطق بماما ثم سعاد، وإذا بلغوا سن الفتوة بات اسمها: ماما سعاد.

صفية باتت أما ترعى أسرتها في الدار البيضاء المغربية ، وأصبح بلال مهندساً استقر في كندا، وتحول حمزة إلى بحار على سفينة تجارية فلا يسمع صوته إلا من الموانئ التي يقف فيها، وكانت رحلته امتدت إلى سنوات دون أن يحطّ رحاله في بيت أهله. توزع الأبناء في أرجاء العالم، وبقي الأب عاري الأغصان كشجرة تذهب في أرضها إلى يباس لا مفر منه.

كان العزاء في يومه الثاني حين حضرت صفية وبلال من بلديهما. البكاء على الأم دام أياماً قليلة من بعدها عاد كل منهما

إلى بلده، فتأكد لسلام أن أبناءه ما عادت لهم صنة بمنزل  
الطفولة، وبخاصة أن حمزة في اتصاله الهاتفي بعد أسبوع من  
علمه بوفاة أمه انفجر باكياً إلا أنه لم يحضر.

جلس في مدخل البيت مطلاً على الحديقة، وكان ليل صيف  
حلي تهب عليه نسائم رقيقة أشفق بها الفضاء السمند أمامه على  
الرجل الوحيد. هائناً كان يقرأ في الظلام في صفحات الماضي  
فلم يستطع أن يكتم حرقه القلب فنادى بصوت جريح:

رحيل الأحبة جرح لا ينفع له دواء.

وتخيل نفسه واقفاً على مرفأ يخصه، نسائم البحر لا تحمل  
إليه علائم سفنه العائدة. ما من شرع واحد يطل من الأفق،  
فكانت لعبة الغياب بين استسلام وبين ما يأمل. هي اللعبة التي لم  
يحسب الحب لها حساب. صاح سلام فلم يخرج من داخله  
صوت:

لم قسوة الغياب تلاحقني؟.

وتقدم دون تفكير متجهاً إلى غرفة المكتب التي ظنّها تنسى  
وجوده.

دخل المحراب الذي كاد أن يقبل على نفسه وقد حافظ على  
رائحة الكتب والمهر الطويل. تأمل الرفوف التي وقفت فيها  
الكتب على استعداد للهاتف بعودة صاحبها. هتفت بالتحية للعائد.

وعلى سطح مكتبه الخشبي ارتفعت أوراق تدعوه إلى تزيينها بالكلمات. وقف سلام في مركز دائرة محرابه الذي تعبد فيه سنوات طويلة، وما لبث الحنين أن سحبه إلى الجلوس على المقعد الجدي ليواجه الأوراق البيض يدفعها الاشتياق.

الذكريات تتعاقب متوالية على شاشة رؤيته، بينما عيناه تتفحصان الزوايا والمساحات التي تحيط بها في الغرفة، فيظن أن الذكريات ما هي إلا عناكب بنت شباكها في الزوايا، إلا أن الحقيقة كانت في محاولته للهرب من مواجهة المساحات المفتوحة التي تسمح بإسقاط الذكريات عليها بوضوح. بات سلام مركزاً على سطح مكتبه يقطب الأوراق البيض التي تركها منذ شهر وهي مازالت تحفظ بعذريتها. تذكر معاشرته لكل هذه الأوراق لينجب منها الكتب التي أخذت اسم رواية أو حكاية أو تمثيلية عرضها المسرح أو شاشة التلفزيون. هل بات العجز بدلاً من الحيوية؟.

ومال ظهر المقعد إلى الخلف محدقاً في السقف فكان سداً. عاد من جديد معتدلاً في جلسته متحسناً ذراع المقعد الذي لم يفارقه منذ أيام الكتابة الأولى فهو الحزن الذي ضمه بحنان كما فعلت سعاد.

استعرض رف الكتب في المكتبة قربه، واتجه إليه يقطب النظر في عناوين مؤلفاته فكأنه يراها لأول مرة. وابتدأت مفاتيح

العناوين تتفرج تدريجياً عن أبواب الكتب المغلقة . كتابه الأول (ألف ليلة وليلة) كان أول عمل عرف به فاجتذب اهتمام القراء والذقاد إلى حداثة وقائعها، فقد صور شهرزاد معاصرة وهي تضع حداً لنشاط شهريار وطغيانه السياسي والجنسي، وأطلق سندباد ليجوب العالم بحراً وبراً وجواً باحثاً عن المعرفة في كل الأمكنة التي تنتشر فيه شعوب تحفظ بنقافتها، وإذا عاد من رحلاته اكتشف جوعه فيعود مسافراً من جديد. وشجعه نجاح كتابه الأول على اصدار رواية (حي بن يقظان) الذي استند فيه إلى العمل الذي كتبه (ابن طفيل الأندلسي)، فكانت بروح العصر وإن حافظت على نهج ابن طفيل في مسألة الخلق والخالق، فصورها سلام المحارب متمثلاً الزمن الحاضر بأحداثها المشوقة ولغتها الأخاذة، فكان أن حقق انتصاراً في عالم الألب وضعه مبكراً في صفوف أهم الكتاب.

تابع الكتابة بهمة أكبر، ولكن الاهتمام بنموذجين من أدب التراث تحول إلى مرحلة معاصرة من التاريخ الحديث لسورية الذي أمضى فترة من حياته يوليها اهتمامه. تحولت سيرة (إبراهيم هنانو) ونضاله ضد المحتل الفرنسي إلى سجل من الفانتازيا الوطنية، وجعلت من رجال الثورة نماذج بطولية تغنى بها جيل من القراء الشباب وأدهش شيوخاً ممن عاصروا كفاح هنانو لإيغالها في المبالغة إلا أنهم لم يستبعدوا حصولها مشاركين

أبطالها شرف الأحداث. وبمثل تلك السيرة كتب روايته عن (صالح العلي) ليتبعها بعمل آخر عن (سلطان باشا الأطرش). وانتقل المحارب إلى المرحلة من التاريخ الأقدم، فكانت روايات كتبها عن مدينة حلب وأخريات عن المدن التي سقطت أمام زحف المغول، وما ثبتت بعد قرون أن شربت ماء مالحة من حروب الصليبيين فلاقت الويل في بلاد الشام. وشهدت صفحات عمله وقوع المدينة مع غيرها في قبضة العثمانيين لتجمد حركة التاريخ عند أهل حلب ويخيم عليهم التواكل الكسول بينما يستيقظ قلة من رجال يحاولون نفع الجمر في نفوس الناس. وفي عمل آخر صور تسلل الجيش الفرنسي الذي وقف قائده على قبر صلاح الدين ليهتف شامتاً بأننا قد عدنا، وقد حملت روايته الوثائقية عنوان (خروج الفرنسيين من أرض التأسيس) التي لم تنته فصولها منذ أيام مرض زوجته واحتضارها لشهور عديدة، وهكذا توقف سلام المحارب عن الكتابة وما عاد يمسك بالقلم.

ومنذ انتهاء أيام العزاء تمكنت الوحشة من احتلال فضاء البيت بالرغم من تردد رفاق قدامى ورجال إعلام وأدباء للتخفيف عن حزن سلام المحارب، فما كان المحزون ليُسمح لهم بإقامة لأكثر من دقائق، ينفض من بعدها المعزون الذين وجدوا عزوفاً عن الخوض في أي حديث. سجن المحارب نفسه فلا يغادر البيت إلا لطعام يحضره أو دواء يشتريه، أو لزيارة قبر الراحلة،

فلم يعد يتوقف عند مكتبه لشراء صحيفة أو كتاب كعادته السابقة، وما عاد يرتاد المقهى الذي تعود فيه لقاء الأصدقاء أسبوعياً. ومنذ ذلك اليوم بات أشبه بالدرويش يطوف في الدهاليز الكئيبة ينشد في مواقع التذكر ومواقفها ما يشبه أشعار الحنين إلى حبيب طواه التراب، أو إلى أبناء أسدلت عليهم ستائر الغربة.

كان قد قضى شهوراً يتخذ كنية في الصلاة فراشاً، وليفة دخل غرفة النوم التي شاركته فيها سعاد، هجمت حرارة الصيف من النافذة لترش جسد سلام بالعرق. يتقلب في نومه فلا يعرف جسده استقراراً على حال، إلا أنه انتفض في فراشه محدقاً في الظلام، كان يخاف الانزلاق في هوة سحيقة انفتحت تحت قدميه فتماسك وهو يتعلق بحبال الظلمة، إلا أنه ما لبث أن صحا بشكل كامل، وكان الفجر لم يأت بعد. طرق سمعه صوت سعاد ليكون أقرب إليه من دقائق قلبه. كانت تهتف:

‘ماذا يحدث لك أيها الحبيب؟’.

ويخترق عتابها جسده ليعتصر داخله:

توقف قلبك عن الكتابة التي أحببتها، فهل نزال عقوبة الفراق؟’.

لبث سلام جامداً في فراشه متيبس الحنجرة بينما جسده مازال ينضح بالعرق، وكان سمعه مازال بانتظار سعاد تتابع تساؤلاتها.

ظل يتوقع أن تفعل وتتأديه، إلا أن خيوط الفجر المتشرية نضلال الضوء غزلت العتمة بالنور أسدلت الحجاب على عتاب سعاد الرقيق. وبينما يستوي جالساً في السرير كان يستعيد ما سمعه منذ قليل، وإذا به يتحلى في فضاء الغرفة قدم يستطع لملمته. صباح باكر يبدو وكأنه يذذر بما يستجد من احتمالات قادمة.

## { ٢ }

بدا الحارس المقيم في المقبرة كوسيط معتمد بين زمنين محيرين، أحدهما فوق التراب والآخر تحته. سنوات لا تعرف لها بداية هي التي رسمت خطوطها على وجه الرجل العجوز بينما احتفظ بشباب اطمأن لمهنته، بعكس ما آلت إليه القبور المتأثرة على وجه التلال وقد حولتها التضاريس المتباينة في ارتفاعاتها إلى ما يمكن تسميته بتجاعيد الزمن.

في ذلك الصباح المبكر لم يشأ الحارس أن يسأل القادم عن حضوره المخالف لنظام الزيارة الأسبوعي، وكان قد درج عليه في الأشهر السابقة. لم يعلق سلام المحارب على دهشة الحارس الظاهرة على وجهه، واكتفى بإلقاء التحية. حمل غصن زيتون مقدماً من قبر سعاد.

كان ما يليق القبر به هو ما سماه الحارس وكثير من الزوار بالضريح. دروب من الحصى الملون طوقت القبر، بينما أربع أشجار من السرو عرست على الأطراف كحراس مستقرين دوماً لتقديم الاحترام للراحلة. وكالعادة هرول الحارس بإبريق الماء ليرش به حجارة القبر المرمرية فيشرق لمعانها مضيئاً كالوهج بين حجارة القبور الكلسية وقد لبست الكأبة.

(جبل العظام) مدفن قديم امتد إلى قرون بعيدة، وقد زحفت قبوره على تلال وسفوح. ومنذ سنوات عديدة كان المشيعون يظنون أن جبل العظام ما عاد بقادر على استقبال وافد جديد، إلا أن الممرات نفسها تحولت إلى أماكن للدفن، مما دفع الناس إلى تخطي القبور فاستنكر مشايخ ومتدينون أمراً كهذا فحرموه. واستخدمت قبور قديمة عائلية لاستقبال أفراد من الأهل. وكانت المقبرة كما يحلو للناس تسميتها بجبل العظام الذي وقر في أذهانهم أن التلال المتجاورة قد نشأت من تراكم عظام أهل حنب المقاومين لعدوان الغزاة الذي تكرر على مر التاريخ.

مسح سلام المقبرة المتناثرة بعينيه، وكان قد فرغ من وقوفه على الضريح باحترام الجندي المنضببط، إلا أنه تساءل بضيق عبّرت عنه عيناه:

سُنّت علي المنافذ لأدفن ذات يوم بالأقرب منك

وفيما يجلس على قاعدة قبر مجاور، جعل يحاسب نفسه على خطأ اختيار المثنوى الأخير لسعاد. هو لم يحسب للزحام وضعه الذي حرمه من مجاورة الحبيبة. وفجأة انفجرت أسارير وجهه للمرة الأولى منذ شهور، هو يسائل نفسه إن كانت الجيرة بالعظام ما يفكر به، أم أن التصاق روحيهما هو الذي سيستمر باقياً على حب لم يؤثر فيه شيء. وكانت دماء قد تسربت في أوصاله تنعشها، فأقبل على الضريح من جديد ينظر إليه وكأنه حديقة أو واحة وسط جبل العظام ترعاها سعاد كما فعلت في حديقة بيت الزوجية. جعل يتمتم بالدعاء للحبيبة التي ظلت تحيا بداخله، وأن الرائدة تحت التراب هي ظله المرافق له. هتف سلام فاستجابت على إيقاع صوته أشجار السرو بالتمائل:

لن يبعدك الرحيل عني.

كان الحارس يقف على مسافة بعيدة يراقب تصرفات الزائر الذي تعود سنوكة من تصرفات توحى بأنه استثنائي، إلا أن هتافه، بالرغم من جهله بالكلمات، دفعه إلى التساؤل عن الوقار الذي كان في زيارته معروفاً به، فلم يجد له سبباً في الخروج عنه، إلا أنه لم يشأ أن يبدي شكاً في عقل من أودع زوجته التراب، ظل يردد لنفسه كلمات الأسف على تصرف الرجل الذي يكرمه بالمال في كل زيارة له ما لم يشهد كراماً مثله من زوار القبور. وكان يقول له أمراً بسقاية أشجار السرو لأنها تؤنس

وحدة المرحومة، بينما الحارس يردد في سره: لا حول ولا قوة إلا بالله، بينما في ذلك الصباح كان يغادر دون أي طلب بالسقاية. خرج سلام من بوابة جبل العظام ليواجه الشارع المزدهم بالسيارات المتلاحقة. كان مرفوع الرأس مستقيم القامة وقد تجاوز للمرة الأولى موقف الاستسلام لضعف الحزن، ومستعيداً تماسكه. وقف على الرصيف ينتظر فرصة السماح له بالانتقال إلى الطرف الآخر، إلا أن سيل السيارات لم ينقطع لفترة مشكلاً جداراً آخر كما يفعل سور المقبرة من خلفه. وهكذا أحس بالحصار الذي يطوقه دون أن يخرج من حالة الارتياح التي ظهرت فجأة في حياته. ظل على انتظاره لفرصة ينسل فيها عبر سيل السيارات، وقد نجح في آخر المطاف ليعبر الشارع إلى الرصيف الآخر وهو يردد لنفسه:

'ما زالت عزيتي هي أفضل ما يحدث لي في هذه المدينة  
المجنونة'

من جديد يعود إلى بيته فلا تعيق حركة الشوارع هياج الصور التي تعاقبت على مخيلته، كأنه استعاد أيام الكتابة. دخل غرفة المكتب في الدار فاستقبلته الكتب كفريق من الجنود المنتظمين في الرفوف، ودعته الأوراق البيضاء لتسويدها بالكلمات. كان سلام المحارب قد أصبح جاهزاً لاستعادة أيامه السابقة.

وكان سلام في عودته صباح ذلك اليوم قد فتح باب منزله فإذا بكهف البيت المعدّم قد تحول كالسحر إلى فضاء من ضياء، وكأن جيشاً من فراشات مضيئة يحوم في المكان. انفتحت روح سلام على عالم آخر اختفت منه وحشة الأشهر السابقة. وكانت أولى خطوات سلام في البيت تمشي على ما يشبه المرج الذي تجاوبت أعشابه لوطء الأقدام اللين. انقلاب في المكان تغير فيه من غروب إلى إشراق كما كان حاله أيام الحب والتجمع الأسروي. هو يوم جعل الطريق إلى غرفة المكتب معبراً سيؤدي إلى ما يمكن الاعتقاد أنه حنيقة المعرفة الممتعة.

مرت على سلام المحارب فترة من احتضان الكرسي الدوار له. هو يدور حول نفسه في مروره بلحظات اختمار لأفكار متفرقة لم تتوصل إلى تجمعها لتكون بداية لعمل جديد يبدأ به نصاً يهبه للأوراق التي ملئت الانتظار. فجأة تكلم الهاتف يوحى رنينه بصوت قادم من واحد من الأبناء، رفع السماعه بفرح ينتظر سماع أحدهم، لكن الأمل خاب. كان الصوت غريباً قدّم نفسه بتعريف يقول إنه مدير مكتب لصاحب محطة تلفزيونية، لينتقل إلى صوت آخر هو صاحب المحطة. كان الترحيب بالكاتب سلام المحارب الذي أعلن عن إعجابه بأعماله، وداعياً لزيارة المحطة الفضائية التلفزيونية في (دبي) بأسرع وقت ممكن من أجل التفاوض حول مسلسل يكتبه المحارب.

نافذة فتحت في هذا اليوم. نافذة كانت قد أقفلت لتدخل النسائم  
على روحه ولتظل من رمانها على حياة أخرى. أحس الرجل  
بأنه مقبل حقاً على مرحلة جديدة من شيخوخته التي بكرت بفقد  
من يحب، موتاً أو غياباً. لم يتحرك من كرسيه ومصغياً  
لأصوات تتضارب في أعماقه:

‘لم أنت من دون عشرات الكُتاب في أرجاء الوطن العربي؟’  
وتسرب صوت الحبيبة إلى داخله يطغى على ما حوله:  
تعلم أنك الأفضل يا زوجي الحبيب’  
وظلت تهمس لأكثر من مرة:

‘اختيارك من المحطة سيعيدك إلى سيرتك السابقة’  
وسمع صوته ترده الجدران:

‘هل يمكن لي أن أعود من غيرك؟’  
‘ستعود... ستعود. أعلم أنك عائد’.

وملأت كلماتها روحه تصرخ في الأرجاء الواسعة:

‘الكتابة تلغي يأسك. اكتب يا حبيبي من أجل حبنا الذي ما  
زال باقياً’.

تحرر سلام من الأصوات بوقوفه على قدميه، وإذا ما مشى  
في الغرفة تأكد له صمت الفراغ من حوله. وإذا ما قاده

الخطوات إلى صالة المعيشة وقف أمام صورة سعاد. طويلاً  
تأمل الحبيبه وبلهفة المشتاق جعلت عيناه تجولان في مساحة  
الوجه الذي فرشت عليه البشاشة، وفي خصل الشعر الذي كان  
تاجاً ينيق بأميرة. هتف بفرح صامت:  
أظنني قد عدت.

وباندفاع الشباب الذي استعاده هتف بأنه عاد. وجعل يقيس  
الصالة بخطوات وانقة، فإذا ما ألقى أنظاره على صور الأبناء  
لاحقته عيونهم بإعجاب. تلك اللحظات من الحيوية طوت أيام  
الوحشة. الفارس الذي ترجل منذ شهور عاد من جديد إلى  
امتطاء جواد يتوجه به نحو المستقبل.

### (٣)

قفز الزمن كبهنوان يتخطى حواجز الأيام المقيدة بنظام،  
وحمل سلام المحارب إلى شركة الطيران ليتسلم بطاقة السفر إلى  
دبي. قلب النظر في هذه الوثيقة التي أكدت جدية الموقف الذي  
سيواجهه. ولم يكن سلام قد ألفت السفر خارج حدود المدينة إلا  
لعدد من المرات كانت ثقافية في مدن سورية. وستكون رحلته  
إلى دبي الأولى خارج الوطن فيستعيد حياته المذتجة التي لم يبق  
لها من عنوان سوى الكتابة.

الطائرة تنهض به من مرقدتها على أرض مطار دمشق. وإذا ما التحت بالفضاء أحسن سلام بمعنى القيامة من كهف الحزن المظلم والدخول في عالم الضياء، ولتصبح هذه اللحظات مدخلاً إلى واقعية الولادة الجديدة للكاتب الذي أسقط قلمه من يده وها هو يستعيد.

كان ليل دبي، الذي حومت الطائرة في سمانه، يشع بجواهر الأضواء، ويعلم المسافر أنه مقدم حقاً على حديقة النور التي سيقطف منها ثمار التغيير الموعودة، وسيستعيد حياته التي خلق لها. على أرض المطار حطت الطائرة لتسير. فكان سلام يستعيد المحطة السابقة في المدرسة الثانوية وكأنها صور متناثرة. في البداية كان من رفاق المدرسة من لقبه بالخبون، عاد آخرون إلى تسميته بالحكواتي. وكان رفاق يصفونه أحياناً بالخيالي. كان سلام المحارب إذا اجتمع بشئ من الطلاب يبدأ برواية حادثة تبدأ بواقعية لتتقلب في تسلسلها إلى ما يشبه الخيال أو الوهم الممنوع. وفي استعراض واقعة ما يشد مستمعيه إليه فإذا ما قارب نهايتها تحول الإصغاء إلى دهشة تحمل الإعجاب بها أو الإنكار لمصادقيتها. وبانت له جانبية في القصة وهو يتلاعب بحكاية يأخذها من (ألف ليلة وليلة) الأصلية ليحجزها ويخبرها على طريقته، مستفيداً من جهل معظم المستمعين حكايات ألف ليلة وليلة، وإذا ما فوجئ بأحدهم يقول له نلرجع إلى نصوص الكاتب

الأصلي أحس بالاهانة. وإذا ما أورد خبراً من إذاعة لندن أو صوت العرب فإنه يأتي على ذكره وكأنه حكاية مشوقة، وهكذا بات رجال سياسة عرب أو أجنب أبطالاً في حكاياته ، عاتبه عليها البعض وأيده الآخر. واقتنع كثير من الرفاق بوجود شخصيات من أحياء حلب القديمة وهو يستعرضها، فالواحد منهم شكل حكاية مضحكة أو غرائبية يمكن تصديقها بقدر ما كان تكتيباً لها.

وفي مسيرة الطائفة كانت بقع النور المتناثرة على الأرض وقد توالى بريقها، استيقظت مرحلة من شبابه، عانت مؤلماً. حريق شب في مستودع للأغذية الذي امتلكه الوالد دفع بالفقر لدخول حياة الأسرة، مما اضطر سلام إلى الانتساب إلى كلية الحقوق بدمشق التي لا تفرض عليه انتظام الحضور، فعمل كمعلم في الريف لمساعدة أهله، فكانت حياته في القرية فرصة للاستزادة من القراءة في الليالي التي لا يسمع فيها سوى نباح الكلاب. وبالرغم من أن قدر المحارب أن يكون طالباً في كلية الحقوق، إلا أنه مع الانتقال من علم إلى آخر ازداد تعلقاً بتلك المعارف الجديدة. تاريخ القوانين والتشريع دفعه إلى قراءة أوضاع الناس من حوله على ضوء ما قدمته الأنظمة من عهد (حمورابي) مروراً بالشرائع السماوية ومن بعدها القانون الفرنسي وما تبعه من إجراءات قانونية تمثل دولاً وقوميات

ومناهج دينية وسياسية سمحت لخزانة سلام المحارب أن تمتلئ  
بالتقوانين المختلفة، إلا أنها لم تدفعه إلى ممارسة المهنة، وإن  
كانت قد فرشت الطريق أمامه للاهتمام بالمجتمع الذي يعيش فيه،  
وكان واقعه وتاريخه قد شكلا عصباً هاماً يشد من عزمته  
الأدبية.

الطائرة تزحف، وأخيراً توقفت. وما تزال الصدور تركض في  
رأسه، محطات الماضي تتزاحم في تلك الصور. تطل بدايات  
الكتابة التي حققت له نجاحاً، وها هو يفرض اسمه منذ صدور  
أول بحث له عن الموروث الحكائي في مجلة معروفة. لم يتوقف  
لتكون أول رواية له أعاد فيها كتابة ألف ليلة وليلة بأسلوب  
معاصر دفع النقد إلى مديحه، وحقق انتشاراً في أرجاء متعددة  
من الوطن العربي. وكانت صحيفة يومية قد ظهرت فيها تلك  
الرواية مسلسلة تابعها القراء بمتعة.

وهكذا قرر احتراف الكتابة لتكون مهنته التي بات يعرف بها.  
مقابلات إعلامية في الصحافة والإذاعة والتلفزيون، ودعوات إلى  
لقاء في المدارس وقاعات للمحاضرات. تحولت لياثيه المعاصرة  
إلى مسلسل في الإذاعة لحق بها التلفزيون. وجد سلام المحارب  
ذفسه كاتباً يشاد به بعد أن كان مركزاً لتوليد الحكايات في دائرة  
رفاق المدرسة الضيقة.

ما زال جالساً في الطائرة بانتظار آخر راكب ليكون بعده، ولم يتوقف شريط الذكريات. الصبية سعاد تشير إليه بحيوية الأنوثة أن قف عندك، فأنا من تبحث عنها من دون نساء الدنيا. حول الحب الصاعق تلك الصبية إلى زوجة، وأصبحت سعاد عاملاً في دفع الكاتب إلى الاستمرار في العطاء، وكان اهتمامها بإنتاجه يماشي تفجر ينابيع أدوتها وحبها للأسرة زوجاً وأبناء. امرأة تذب وتذب، أم تعطي ولا تأخذ، سيدة الحنان والحكمة فكانت عصية على المقارنة بنساء عرف عنهن أو قابلهن أو أنه فشل باستحضار خيال له علاقة بامرأة.

الإضاءة في ممر الطائرة كانت تكشف عن عشرات الرجال والنساء والأولاد وهم يمرون قربه للمغادرة، فلا يتحرك المحارب من مكانه على المقعد محاولاً أن يبقي على تدفق شريط الذكريات. خرج من باب الطائرة فلم يحمل معه أي مخزون لصور الماضي، وكأن الوصول إلى نبي لن يسمح له بشيء سوى ما دعي من أجله.

وابدأت رحلة داخل السرايب المضاءة في المطار ، ونقلته سلاسه المتحركة فكانت عيناه تلاحقان الإعلانات المدهشة على جدران الطريق الذي خيل إليه أنه لن ينتهي. فنادق وبنوك وصور سيارات لم يشاهدها من قبل كانت تشع بالنور، إلا أنه توقف عند إعلان اسمه على ورقه رفعها واحد من الرجال، فكانت نهاية فترة قلقه.

{ ٤ }

خيل للمحارب أن المطار هو المدينة، بل إن نبي لم تكن  
حاضرة وحدها في جوف ذلك الفضاء المترامي الأبعاد، بل أن  
العالم من كل بلد وقارة قد تجمع فيه. وكأنه القاموس البشري  
الذي نقرأ فيه الصفحات التي ملأت أسطرها المفردات المختلفة.  
ملاح عربية وأوربية، يابانية وأفريقية وغيرها من أرجاء  
العالم، وتكون ما يشبه الكوكبيل، وهكذا تحولت الممرات  
والمنعطفات إلى بقع متحركة استقطبت بشراً يذهبون ويجيئون،  
يعبرون دون أي تواصل، فكأن المطار الذي لم يكن له علاقة  
بمخيلة سلام المحارب التي عملت على تصوير ذلك الفضاء  
المتقدم بهندسته وجماله عاجزاً عن تذويب الناس كما يفعل  
الكوكبيل.

وارسمت ابتسامة على وجه المحارب ملاحقاً خطوات  
المرافق حين تذكر الزحام في شوارع مدينته حلب. كان يهرب من  
ذلك الزحام إلا أنه قرر أن يواجه مشهد المطار كمن يتابع فيلماً  
امتزجت فيه الحركة بالآفة فما عادت حلب تشبه عالم هذا المطار.

وبالرغم من سنواته السبعين فإن سلام المحارب كان يحسّ  
بحيوية الشباب كمن امتصّ حداثة المطار وهي تساهم في دفعه

إلى التفكير في المستقبل خارجاً من إطار الماضي. باتت محطة  
فضاء مطار دبي مرحلة تفصل ما فات عن ما هو آت.

وما حدث لسلام المحارب من دعوة المحطة الفضائية له،  
والانتقال جواً من أرض إلى أخرى، داخلاً في زمن ينوس بين  
الإدهاش والغربة، دفع بالرجل إلى الإحساس بتغيير لم يخطط  
له. وإذا ما انتهت إجراءات الدخول إلى دبي خرج من عالم  
المطار الغرابي لتفتح وجهه حرارة الجو في ليل المدينة،  
وليشعر بأنه ما عاد فرداً في كومبارس يؤدي دوره الثانوي في  
شريط سينمائي للخيال العلمي، كتب وأخرج وصور في مطار  
دبي. وفي الطريق إلى الفندق أثار الليل في نفسه تساؤلاً عن تلك  
القدرة في زرع جنة آلية مكيفة وسط رمال الأرض الممتدة بين  
شاطئ البحر وأفق الصحراء. سيارة الليموزين التي استقلها  
كضيف مميز، ومن بعدها صالة الفندق الواسعة جاءت لتخفف  
من تساؤله ذلك وليعلم بأن رحلته قد وصلت إلى نهاية المطاف،  
وليستعد إلى لقاء الغد.

كان الليل قد انتصف لحظة دخوله الغرفة. الجناح الذي بات  
نزيراً فيه أكد من جديد أن دعوة المحطة الفضائية تذكره بأهميته  
ككاتب، وتثير بداخله ما يشبه الخوف من ألا يستطيع تقديم  
مسئله تلفزيوني وفق متطلبات المحطة، إلا أنه قال لنفسه بمرح  
ساخر: 'لا أخشى إلا أن أقبل ما تريده المحطة مني.'

وبمثل تلك الثقة بالأنفس تمدد المحارب على السرير الملكي فاتحاً ذراعيه وساقيه، وكانت عيناه تلتصقان بالسقف فيداعب أجفانه تماوج الألوان مع أدوار الأباجورات وإضاءة الزوايا المخفية. وفي دقائق كان سلام المتعب يسبح في بحيرة النوم.

وقد فوجئ في اللحظات الأولى من صحوه الصباحي أنه لم يبكر، واكتشف أن ليلته الطويلة قد مرت عليه دون منام أو كابوس، وهو الذي اعتاد في الشهور السابقة على الأحلام المقلقة أو المرعبة. كتب في دفتر ذكرياته ما يشبه اليوميات وأن ليلة دبي الأولى قد مرت عليه كالسديم الأخرس مما يشير إلى أنني مقدم حقاً على مرحلة أخرى من حياتي، وإن كنت أتمنى أن تطل عليّ سعاد من ظلام السديم لأتمكن بنور الحبيبة من وضع أقدامي على الطريق الصحيح، وفي الأحوال كلها بت علي يقين من أن خطواتي ستمضي قدماً باتجاه مرحلة جديدة تحفظ لي القدرة على الاستمرار في الكتابة.

اكتفى بفنجان الشاي على الإفطار. جعل يرشف منه وهو يطل من نافذة الجناح في الطابق العشرين على الشارع العريض والذي لم تكن له نهاية. الأبراج ترتفع على جانبيه والزجاج يلعب مشكلاً جدرانها السامقة. وجعل الزجاج يحيل أشعة الشمس إلى بريق زئبقي، بينما أشجار النخيل التي توسطت الأوتوستراد تؤكد فوق الأبنية العالية على ما تمنحه الطبيعة من اخضرار يجاهد في الاحتفاظ بلمعانه مع حرارة الشمس الغاضبة.

وانطلق الهاتف بالرنين الذي نقل إلى سمعه صوت رجل قال إنه بالانتظار في اللوبي لاصطحابه إلى مكاتب المحطة التلفزيونية. لبي النداء. وفي البهو لمح إعلاناً باسمه يحملته شاب يرسم الترحيب على وجهه لحظة المقابلة وهو يدل على نفسه. مضى الاثنان في سيارة بيضاء رباعية الدفع وقد انطلقت من قبو الفندق، وكان المرافق الذي جلس بالقرب من السائق لا يتكلم. المحارب كان في نعيم السيارة يراقب جحيم الشارع، حين استمر في السير سأل المرافق إن كانت زيارة دبي هي الأولى، أجاب المحارب بالموافقة فالبشر لا يتجولون في الشوارع، فيعلق المرافق بقوله ان الله خلق التكيف في البيوت والفنادق والسيارات فلا حاجة للناس أن يمشوا على أرجلهم، وقال المحارب إن الناس في دبي محظوظون، بينما كنتم في نفسه ابتسامة ساخرة.

وبعد زمن لم يحسب له توقفاً توقف هدير السيارة فاستيقظ سلام من إيقاع الطريق. وفي ساحة واسعة تصدّرها بناء منخفض انتشر على قوس، وبدا له أنه حضن فتح للقادمين ذراعيه ليرحب بهم. وإذا ما وجد نفسه في صالة الاستقبال تقدمت منه صبية تلمع عيناها المظنّتان من دائرتي الكحل الذي لا بد أنه منح عباءتها سواداً لامعاً. واشدرك ترحيبها وهي تتطرق باسمه مع إشراقة وجهها الخمري، داعية إياه برقة أميرة إلى

قاعة اجتماعات حسبها للوهلة الأولى مخصصة لأعمال وزارية. كان أثاثها من طاولة بيضاوية كبرى تستقطب من حولها مقاعد جديّة تليق باجتماع تتخذ فيه أخطر القرارات الحاسمة. وعلم آنذاك أنه مقدم على مواجهة أمر له شأنه.

{٥}

وحيداً في القاعة التي اكتست جدرانها بخشب لا بد أنه الجوز الذي أكد على المهابة والانغلاق على ما يمكن أن يتسرب من حديث. وحسب المحارب ما يمر عليه من دقائق ممطوطة انتظاراً يشبه ما يسبق إعلان نتائج الامتحان. وشغل نفسه بالنظر إلى لوحة زيتية كبيرة تظهر عدداً من السفن التقليدية ترقد على سطح خور دبي لتبدو وكأنها بتاريخيتها تحاور حدائث الأبراج المظلة على الخور، ويجد المحارب نفسه شريكاً في هذا الحوار. يعجب تارة بتلك السفن، ويدهش تارة لعلاقة في عقد الصلة بين أرض دبي وسمائها. يحسّ فجأة بأنه مع قديم المدينة، وما يلبث أن يشعر بالتحدي الذي استدعته فنون العمارة من أرجاء العصر المترامية الأطراف.

توقف حوار الصامت مع دخول رجل قدّر أنه صاحب المحطة أو مديرها، كان الاثنان معاً. قدم الرجل بكوفيته المذهبة

كأمير حقيقي، ويسبقه عطر فرنسي مع عيدين كالصقر نظراته تتفحص الضيف وكأنه يتأكد من واقع مطابقته للصور المنتشرة لسلام المحارب في الصحف والتلفزيون. وكان دخوله كأمر ليصبح مع لقاء الأحضان أخوياً. وانمالت كلمات الترحيب بالضيف كخطاب لا يملئه صاحبه. وإذا ما انتهت حفلة الترحيب احتل المدير موقعه على رأس الطاولة تحيط به مجموعة من أجهزة الهاتف بألوان مختلفة وقد بدا الواحد منها وكأنه يختص بمكالمة مع جهة معينة، وأما المحارب فقد بقي وحيداً مع المقاعد الفارغة إلا من جندها.

وكان المضيف قد حسم مرحلة المجاملة بإعلانه أن مجلس إدارة المحطة الفضائية اختار الكاتب سلام المحارب من بين أفضل كتاب الدراما العرب لإعداد مسلسل تلفزيوني يرسم للمشاهد صورة درامية للحياة في مدينة قد تصبح رمزاً للمدن العربية. المتعة في المغامرات التي يعرضها المسلسل وكذلك الحوار يحتل بجاذبيته مكانة لها أهميتها، هكذا أكد المدير على رغبة المحطة في تكرار الملاحظة لأكثر من مرة. وقال المدير إن المتعة هي ما يطلبه المشاهد، وتكون في أقصاها عندما يتوفر الحب سندا لتلك المغامرات.

وقال المدير، كمعلم في مدرسة، ولا تنس لوحات من الطبيعة وكذلك الآثار من عمارات قديمة من أجل إضفاء جماليات متنوعة على المسلسل. وإذا ما ضرب الطاولة بكفه هتف بالقول:

شركات الإعلان ستتهاون على حجز أكبر المساحات في  
المسلسل المنتظر إنتاجه شريطة أن تتوفر له عناصر النجاح التي  
تحدثنا عن شيء منها.

وهباً واقفاً يجول حول مقعده ليقول:

لك الخيار في كتابة المسلسل، ولكن أليس ما قلته لك يعني  
توفر النجاح للمسلسل؟.

كان الاستسلام للإصغاء قبل أن يعلق بشيء من صفات  
المحارب، إلا أنه في ذلك اللقاء لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى  
المكوث في مقعده كتمثال يوحى بالطاعة، ولكن الرغبة في أن  
يقول شيئاً كانت تغلي بداخله. بات مستعداً لقول شيء ولكن  
الوقت لم يسمح له، فقد كان دخول السكرتيرة على القاعة، والتي  
كانت في منتصف العمر ولا يشي منظرها بأنها من أهل المدينة.  
وضعت أمام المدير أوراقاً قام باللقاء نظرة سريعة عليها، ولكنه  
ما لبث أن مرّرها إلى المحارب وهو يقول:

أمامك العقد في نسختين. اقرأه على مهل منذ ريثما أعود.  
وحيداً في القاعة من جديد، تصحبه في رحلة القراءة صفحات  
ثلاث أحكمت صياغة بنود الاتفاق بدقة، كما فعل الكومبيوتر في  
رسم كلماتها. كانت فقرات العقد ملزمة بتقديم ملخص تفصيلي  
للأحداث والشخصيات مما يمهد بسهولة لكتابة السيناريو من قبل

المؤلف بعد الحصول على ملاحظات خبراء المحطة. وبالرغم من الأجر الكبير للحلقة الواحدة إلا أن سلام المحارب ابتداءً يحس أن بنود العقد تكيد حريته دون أن تشير إلى ذلك. دقائق تأمل فيها أوراق العقد، وقد ساوره شعور بالأ يوقع، إلا أنه خشي أن يتمم بالجنين أو (بالولادة). المحطة تعامله على أنه كاتب كبير، وتدفع دفعات طائرتة بالدرجة الأولى، وتحجز له جناحاً في أرقى الفنادق، ولكنه يمتنع عن توقيع العقد.

‘أيمكن أن أرفض دعوة إلى الكتابة من جديد؟’.

‘قد تكون في هذا المسلسل نهاية لجفافي. وقد يكون آخر ما أكتبه. هل ابتداءً الرهان؟’

وأثنى المدير في عودته على توقيع المحارب على العقد. هدف مهتئاً لاتخاذ الكاتب قراره متمنياً له أن يستلم أوراق الملخص بالسرعة نفسها. قال منتشياً:

‘إن كانت حلقات المسلسل اليومية ستغطي أشهراً، فهذا يعني أن الاستاذ سلام المحارب سيكون من أغنياء الكتاب العرب.’

أذذاك خرج المحارب عن استسلامه، وقال مازحاً:

‘وهل يعني ذلك أنني سأصبح كاتباً بترونياً.’

فما كان من المدير إلا أن فاح منه الغضب بدلاً من العطر، ولكنه تماسك وسرعان ما رسم ابتسامة على شفثيه وهو يقول بتقريرية المسؤولين الكبار:

‘لا تغيب عنك روح الدعابة، أترأه أثر هذه المدينة عليك؟’.

‘هذا إطراء يا سيدي لم أسمع بمثله منذ زمن’.

واكمل بقوله وهو يستعد للمغادرة:

‘لم أعرف شيئاً من المدينة سوى أطراف ثوبها المرصعة بالحدائث المدهشة’.

فلم يعلق المدير على الملاحظة، صامتاً كان. وهو يرافق ضيفه إلى الباب تمنى له إقامة مريحة. آنذاك شعر المحارب بتحرره من قيود اجتماع أصبح بداية للعودة إلى الوطن.

في الطريق إلى الفندق خيل إليه أن هذه المدينة قد تكون مسرحاً للمسلسل التلفزيوني، ولكنه سرعان ما اتهم نفسه، فهو يجهلها ولا يعرف عنها شيئاً سوى ما كانت عليه من أبراج وطرفات. اكتفى آنذاك بمراقبة الطريق من نافذة السيارة الذي بدا بلا نهاية. واقنع بمراقبة أشجار النخيل المتشابهة.

وهذا ما سيكون عليه الحال بعد فترة من الوقت فالفندق فتح ذراعيه له ليلجأ إليه كملاذ. وفي جناحه رمى نفسه على مقعد وثير كغريق عثر على لوح من خشب:

‘انتهت المهمة. بدأت المهمة’.

وقضى بقية يومه في الجناح يقرأ عن الصين في قصة الحضارة لول ديورانت، وقد اصطحب ذلك المجلد معه بعد ان

مرت عليه سنوات على قراعته، فهل كانت مصادفة أن يعيد نفسه شيئاً من حضارة الصين القديمة في مدينة دبي الحديثة؟  
وفي الفجر غادر سريرته استعداداً للسفر يعود إلى حيث ينتمي. وهو ينتقل إلى المطار تحولت عنده دبي إلى مجهول ولكنه مدهش، فهو لن يذكر منها سوى المراكز المغلقة على رفاهية الحدائث المستوردة. وهو لا يذكر أي بذخ رافقه في حياته الحليية، فلم تكن مدينة دبي سوى سحابة مرت في سماء رحلته في الحياة، وستختفي لحظة استعادة حطب.

وطئت أقدامه أرض مطار دمشق، ومن بعدها سحبته دواليب السيارة باتجاه مدينته. كانت سرعة الزمن تغزل صوراً في مخيلة سلام المحارب الوحيد مع السائق الذي اتسم بصمته. وجعلت الصور تتجمع في أفكار تحاول أن تدسج قماش المسلسل المطلوب إنجازَه.

ها هي حكاية الفلاح الذي أمضى عمره في زراعة أرضه الصغيرة ورعاية حيواناته القليلة، واحتضن بالحنان أفراد أسرته الذين يتزايدون مع مرور الأيام. وها هو يواجه فترة الجفاف الذي يأبى وقف زحفه للسنة السابعة. المطر عزيز طوال تلك الفصول المتلاحقة، وأما المياه الجوفية فقد وصلت إلى ما يقارب النهاية. وهكذا لم تدفع صلاة الاستسقاء الجماعية في استرضاء السماء كي تروي العطش. لم يستطع مقاومة فكرة النزوح عن

أرضه التي دُفن فيها أجداده، لما أخرج ترابها الخير للناس. كان لا بد له من الهجرة إلى المدينة. واكتشف أن العالم واسع فيها، وابتلعه من البداية حزام الفقر القائم على أطراف المدينة ليشارك البؤس مع أسرته التي لم تعرف الطمأنينة في الأشهر الصعبة الأولى. وفي سعيه إلى الرزق عاملاً في أي مجال أتيج له من العتالة إلى الحراسة لبناء يشاد إلى جمع القمامة، فتبين له أن ما يقابله من قوة يفوق ما ناله من جفاف قريته. وهكذا يعود إلى أرضه معداً نفسه لمواجهة المصاعب التي قبل بها، ورافضاً لنظام المدينة.

وتساعل سلام المحارب إن كانت حكاية الفلاح تنفع لبناء مسلسل، فكان خياله قد انتقل إلى فكرة أخرى، كانت حكاية المغترب قد بدأت بالتكون مع طي المسافة الممتدة أمام باصريه. إذن فقد عاد المغترب إلى وطنه بعد عشرات السنين من الهجرة في بلد إفريقي. بنى ثروة رافقت أحلاماً تمنى أن يضعها ذات يوم في مشاريع تخدم بلده وأبناء المجتمع فيه. أشعلت الحماسة أفكاره وتفجرت همته في إعداد مخطط لمصنع ألومنيوم وآخر للأثاث المنزلي. وكان يهدف إلى إعطاء الطبقة المتوسطة والفقراء فرصة أفضل في تكوين حياتهم العائلية وتحسينها. وفي لحظات التخطيط ابتدأت المعاناة، فمن بيروقراطية الإدارات الرسمية، والمعاملات التي تضيع في دهاليز حكومية، وأساليب

يكتنهما موظفون في استنزاف قدرات المغترب. الرجل يحارب خصوصاً مجهولين، وما أن يسدّ ثغرة حتى تفتح له هوة. سنة لحقت بها أخرى فكان هناك شيء أطلق عليه اسم الوباء. وهكذا أصيب باليأس ليعود من جديد إلى أرض الاغتراب.

وتساءل إن كانت المسلسلات السابقة قد ألفت الضوء على مواضيع مشابهة في فساد الإدارات وخيبة آمال العائدين من الاغتراب بعد تكوين ثروات. وجعل يفكر في حكاية عن زعيم مثيلياً قد يكون له نموذج في التاريخ الحديث أو القديم، فعثر عليه. كان الزعيم قد ارتكب الجرائم في حرب أهليه فقتل انتقاماً ومن ثم تلذذاً بلا رحمة، يسفك الدماء ويكسر العظام ولا يرتوي. وحش بداخله والظلم متعته. وفجأة وقع في فخ أفعاله فكانت له محاكمة عادلة ليقتضي سنوات في السجن الذي استبدل إعدامه نظروف خاصة. وحدث في ظروف سياسية أن أفرج عن الزعيم فبات طليقاً، واختفى أياماً في دارته. شيئاً فشيئاً تجمعت حوله قلوب جماعته ليصبح له حزب سياسي. شق الطريق إلى احتلال مكانة بارزة بين الأحزاب، وهو ذا يحاول أن يجد له قوة في ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية.

وصل إلى مدينته، وها هو الآن في بيته، فتوقفت الأحلام التي ولدت أفكاراً لمسلسلات. توجه إلى مطبخ أعماله الأدبية، الورشة التي صنعت أعماله، وقد تخلى عن أفكاره وحكاياته التي دارت

في طريق السفر ليجد أنها افتتحت إلى روح المسلسل أو أنها قد تصبح مكرورة. بعد فترة انتقل إلى أوراقه يرسم عليها إشارات استفهام وتعجب، ويضع عليها الدوائر والمستطيلات، النجوم والأقمار، الوجوه التي تميل إلى حيوانات خرافية. وابتدأت تلك الهلوسة تتراكم كحبات الندى نقطة بعد أخرى، فلم يكتب له التوفيق في الانطلاق إلى كتابه جملة واحدة. كان الليل قد مال عن منتصفه وهو يريد أن ينام.

## (٦)

وسمع في ظلمه عتبات الفجر نداء سعاد يدعوهُ إلى اليقظة تميهداً لاستيقاظه. الزمن يسبقك. هكذا كانت الدعوة، وهمست قم فأنت تكتب، وارتفعت وتيرة الصوت في سمعه:  
'اكتب سيرة مدينة.'

فاستوى في فراشه يتساءل عن تلك السيرة، وأية مدينة. وسمع سعاد تقول بحزم:

'سيرة مدينة أنت تعرفها، هي ما تبحث عنه.'  
لبث المحارب فترة، إلا أنه هب من فراشه مسرعاً إلى الصالة حيث صورة سعاد فوقف أمامها. وبالرغم من العتمة فإنّ النور كان يشع من وجه المرأة الجميلة:

ألا يمكن للسنين أن تغيرها.

قال لنفسه وهو يحدق في الصورة يحاول أن يسمع منها، فكان الصمت مغلقاً. كانت سعاد في الأربعين آنذاك، ولكن الأيام لم تصبها بشيء. هتفت سعاد فجأة ليكون صوتها أجمل ما يدخل دهاليز أذنيه:

اكتب سيرة مدينة.

هي تطلب منك الكتابة عن سيرة مدينة، أو ربما عن مدينة بعينها لتكون مسلسلًا. وتساءل:

المدينة تاريخ، والتاريخ فيه حكايات وأحداث وبشر. أية مدينة اكتب عنها؟

ومع خيوط الصباح تقدم من غرفة صناعة الكتابة وهو يقول لنفسه:

حسناً فلتكن سيرة مدينة.

وإذ بسط أوراقه أمام قلمه، هتف بصوت مسموع:

ولكن أية مدينة، وأية سيرة؟

وتساءل المحارب وقد بات مقتنعاً:

أهو تاريخ بلد أم سيرة مجتمع؟

وقال إن التاريخ هو المجتمع، ولا فرق بين أحدهما.

وحدث نفسه مستعرضاً واقع المحطة الفضائية:

‘أعلم أنها أصلاً لا ترغب في موقف سياسي، بل أنها لا ترغب في السياسة، فلكل بلد عربي شؤونه وهي تنفر من أمور لها علاقة بالسياسة. سيرة أية مدينة تمر في حقل ألغام.’

وانفجر المحارب ضاحكاً فالسيرة يجب أن تغسل بالصابون والمطهرات، فلا يمكن أن تمس طهارة المحطة فما الذي تدل عليه سيرة المدينة؟.

عليك يا سلام المحارب تجنب الخطوط الحمراء التي أصبحت حدوداً تفصل بين الناس والحكام وقد ترسم تلك الخطوط بين العجائز والشباب، وإنّ تصلب شرايين الناس بتقدمهم في السن لا يسمح لهم بالانفتاح على الأفكار. خطوط حمراء رسمت على الخرائط لتعيد تشكيل الحدود وفق الأنظمة والبشر. الأعمار الصناعية توظف اليوم في بث برامج المحطات على مبدأ حيادها بين الظلم والتعسف، الفقر والرخاء، الحب والجنس، وكذلك العدل وإعدام الشعوب. محطات تمطر المتعة والتسلية. هدف المحارب:

‘ألا تستحق المدن المسكينة أن يكتب لها تاريخ حقيقي؟’.

توقف المحارب. سدت عليه منافذ التفكير. ومن جديد أكل عليه الهسيس بل هو الوسواس بين العجز والإقدام. وعاد إلى

نداء سعاد الذي سكن روحه، هتف متيقظاً هي 'حلب'، وقال  
مخاطباً الأوراق التي ملئت بياضها:

يكون المسلسل عن السيرة الحلبية!.

ووجد في إطلالة الضوء القوية من النافذة فرصة اغتتمها،  
فتحرك القلم على السطح الأملس. وكانت الكلمات الأولى في  
الاسم الذي اختار نفسه دون تدخل:

'عبد القادر الحلبى'.

وانسال قلمه فكان تاريخ عائلة. عبد القادر الحلبى مازال  
يحتفظ بمكانته على رأس عائلة يدين له أولاده وأحفاده بالولاء  
احتراماً لمهابتة وقوته في إدارة النظام المحكم الذي وضعه. حياة  
عبد القادر الحلبى هي القيادة وقد انعكست على أفراد عائلته،  
ولكن بعضهم أراد أن يتخلص منها. وبالرغم من أن عبد القادر  
الحلبى في ماضيه المشرف بانتسابه إلى الجهاد ضد الاستعمار  
الفرنسي، فإن ذلك ما زال يسري في معظم عروق الأبناء  
والأحفاد. كان بيته الكبير محجاً يتردد عليه الأبناء والأحفاد،  
وكذلك رفاق الحي، ويقصده رجال سياسة وأحزاب. عبد القادر  
الحلبى واحد من آخر الباقيين من رجال رفضوا نل الاحتلال وقد  
منحوا البندقية شرف الحرية وتوجوا بقتالهم استقلال البلاد.

وابتدأت زوجات الحلبي في طرق باب سلام المحارب ليفتح  
لها الطريق، فكانت الواحدة منهن تقدم نفسها بعد الأخرى. سجّل  
أسماءهن ووقائع ارتباطهن بالزوج وما خُفّن من أبناء ساهموا  
في اتساع العائلة الكبيرة.

وهكذا كانت البداية، فإذا ما أصبحت الرحلة مستمرة فإن  
حكاية المسلسل باتت متابعتها في ساعات الليل والنهار. عاد  
سلام المحارب من جديد.



## عبد القادر الحلبى أو حكاية السيرة

- ١ -

في حوش الدار الصغيرة، كانت الأم تنادي للمرة الثانية على  
ابنها الشاب عبد القادر لإيقاظه:

’الشاي بانتظارك يا ولدى. الإفطار يا عبد القادر.’

وتعود إلى التور من جديد لإخراج الرغيف قبل أن يحترق  
ووضع آخر. وكررت النداء بصوت أعلى. وهي في طريقها إلى  
(النملية) لإخراج صحنى الزيت والزعتر، مازالت تنادي. وفي  
ركن الحوش كان الماء يغلي مع أوراق الشاي فتحون صوت الأم  
إلى استغاثة:

’الإفطار يا عبد. يا حبيبي النائم. هل ستأخر في نومك يوم  
زواجك’ .

وارتفع صوتها حتى كاد الجيران يسمعونه:

- ٤٣ -

‘عليك بالزواج يا عبد القادر، فمن يضمن لك بقائي معك’

ووقت عند باب غرفة ابنها وكأنها تخاطبه:

‘من غير الزوجة ستجد نفسك وحيداً. أهل الحارة لا يرحمون  
شباباً تخطى الخامسة والعشرين بلا زوجة’

وبينما تعود إلى التور لتضع فيه رغيفاً آخر، سمعته يتحدث  
بكلمات لم تفهما. وكان عبد القادر قد خرج إلى الحوش يتمطي  
وهو يقول:

‘ما أحلى خبز التور في الإفطار يا أحلى أم عبده’

كان يقترب منها بهدوء ليلتحم بظهرها ويقبلها من العنق،  
فجعلت تقول بصوت خفيض:

‘يا ابن الماكرة فوالله أشك في أنني ولدتك’

مساء عاد عبد القادر من (الخان) الذي يعمل فيه. كان مع  
العمال يدخلون أكياس الشعير والعدس وغيرها من المنتجات  
الزراعية، فيكنسونها استعداداً لبيعها. وهو يعمل مع زملائه في  
كنس الحوش لتجمع بقايا تلك الأكياس. وفي ذهابه إلى الدار دخل  
مقهى الحي ليسلم على الرفاق فكان يحمل حكايات عن شكاوى  
الناس لغياب القمح، فالفرنسيون يحتكرونه لصالح جنود الحلفاء  
المنتشرين في أرجاء الحرب العالمية الثانية. ويرد عليه واحد من  
شباب المقهى بأن (الكاز) المقتن لا يكفي لأسرة واحدة لاشتعال

النار في واپور (البريموس)، و يتساعل آخر إن كان الدواء متوفرأ حقأ. يقولون إن الناس يلجؤون إلى الحطب والسحاحير كوقود لهم، وإن الشيوخ يكتبون الأحجبة بدلاً من الأدوية. وفي حذقة المقهى يتبادل الرفاق أخبار القتال ضد الفرنسيين، فمن (جبل العرب) إلى (جبل الزاوية) إلى مناطق جبال الساحل العالية، لم تتقطع المقاومة للاحتلال. وأما المظاهرات فلم تهدأ في كثير من المدن السورية فلا تتوقف اعتقالات الطلاب والسياسيين.

يعود إلى الدار فتستقبله أمه مرحبة لتستكمل في عونته وهي تنق بالشكوى المرسومة يوماً بمقدار العزوبية التي ألحقت ابنها باللعنة، وقد أصابته منذ سنين. تحدثه عن صبية من أهل الحارة، أو عن أخرى من عذارى الأحياء المجاورة أو البعيدة، فكان يستمع إليها ويبتسم:

أنت أمي ولا أقصود بديلاً منك في الدار.

فتفجر في وجهه لتقول:

حرام عليك يا ولدي أن تحرم بنات الناس من رجولتك وجمالك.

ولا تتقطع الأم عن الدعاء لعبد القادر والدعوة له أن يهديه الله في الموافقة على الزواج. هي تحضر الشيخ الضرير إلى الدار مرة أو مرتين في الشهر الواحد. تطعمه وتسقيه الشاي، فإذا شبع

قرأ لها الأوراد والتعازيم المبهمة من أجل أن يهتدي الابن المتمرّد، إلا أن الأم تصحح له في كل دعاء بالقول بأن يهتدي الابن العنيد. وإذا طرح على الشيخ ابنة أسرة بارك أهلها فقال نعم الاختيار. وقليلاً كان عبد القادر يقابل الشيخ الضرير فيسلم، ولكنه يكرر ماشياً هي إرادة الله يا شيخنا الفاضل، ويهمس في أذن أمه أنه باق لها فالدار لا يجوز أن تستضيف امرأة أخرى. إلا أن الأم لم تياس ولن تغفل. هي لا تتوقف صباح مساء عن الدعاء لابنها والدعوة كي تكون له زوجة.

كان الخان واحداً من مراكز المدينة التي يتم فيها تداول الأحداث بسرية. اضطرابات وأخبار الثورات في مناطق من سورية. وكان صاحب الخان يتابع مكتماً أخبار إذاعة الشرق الأدنى لينتقل منها إلى (يونس البحري) من إذاعة ألمانيا، فيتسرب شيء منها إلى زوار الخان. وكان عبد القادر في زيارته للمقهى من حين لآخر، يكتفى بمشاركة الرفاق الغاز وقائع ما رشح من أخبار الثورات في الجبال والمدن، ليكون مقتل جندي فرنسي يعني اصطيد طائر، والجراح التي أصابته بالحكة التي يتسبب بها الجرب، وإذا ما اعتقل تائر أو متظاهر فيرمز إليه بإغماضة العين اليمنى لمرتين.

ويوّد الغضب في أعماق عبد القادر الحلبي. جنيناً تخلق ومازال ينمو يوماً فيوماً. فحوّلته تآبي أن يقف متفرجاً. أريد ان

أحصل على سلاح، إلا أن السلاح بحاجة إلى مال، وكان الفقر شعار الشاب. المهربون عندهم الخبر اليقين فكانوا يؤمنون ما يطلبه أحد من الطبنجات والبنادق، إلا أن عبد القادر لا يملك ما هو مطلوب. وابتدأت خطة التوفير، الليرة إلى جانب ليرة، والكيس السري يجتمع فيه كنزه. وكان خلال شهور طويلة يقترب من الهدف، فإذا ما ظن أنه قد اكتمل أحسّ بنشوة تسري في أوصاله، فمضى يربط الكيس بشرواله إلى مخبأ المهربين.

عرف أنّ (الثلة السوداء) هي مقصده. بيوت هشة غطت الثلة وأخرى في كهوف، فاستدل على الكهف من انتشار رجال حول مدخله. سئل عن الهدف من الزيارة، فإذا أجاب لغرض السلاح، سمح له بالدخول. وتقدم عبد القادر في الممرات المتعرجة وهو يشعر بمراقبة له. ألقى السلام على ثلاثة من رجال يفتريشون الأرض، ويتكئ زعيمهم على ندوء صخري. قال ثالثهم المتجهم: 'أنت قبضاي في حارتك، أم أنك تريد أن تكاتل الفرنسيين.'

فتلعتهم عبد القادر، لكنه تماسك وهو يطلب (البرابلو)، مخترعاً قضية تار. وقال للزعيم الذي ملأ شارباه نصف وجهه وهو يدخل في النارجيلة السامقة بطولها:

مسدس. أريد مسدساً مع الطلقات.

ومدّ الزعيم ذراعه يطلب النقد، أذاك أخرج كيسه من شرواله، فقدّمه له. أشار الزعيم إلى جاره ليحمل الكيس فهزه ثم

أخرج النقود فإذا هي أوراق ليرات سورية وعدد كبير من  
الفرنكات. جعل يعدها.

يا مسكين أنت تجمع الصدقات أمام باب الجامع  
هكذا قال فضحك الآخرون، وظلّ عبد القادر لا يعلّق بكلمة  
أو تجهّم. قال المهرب:  
'مبروك عليك فرد البرابؤو، وتستحق صندوقاً واحداً من  
الخراطيش'

ونبش في كيس من الخيش بحثاً إلى أن وجد شيئاً فأخرجه  
فإذا هو مسدس كبير، وقال:

يا عيب الثوم، صدقات أمام باب الجامع!  
فلم يعلّق عبد القادر على السخرية، وتناول مسدسه ليعاينه،  
وسأل إن كان من الممكن أن يحصل على صندوقين فكان أن  
صاح الثلاثة بصوت واحد:

'الصدقات يا عمي لا تسمح لك بأكثر من صندوق'  
خرج من القلة السوداء متقادياً إنزلاقات الممرات فيها، فكان  
في دخوله إليها لم يحسب لخطورتها حساباً. وإذ وصل إلى بداية  
الشارع أدرك أنه قد أنقذ. ولفّ عبد القادر كنزه الثمين بشاشية  
رأسه التي لم يسبق له أن نزعها من قبل. عاري الرأس يمشي،  
فكان يستقبل بالفخر نظرات المارة إليه، وظلّ عالي الجبين  
دومض عيناه بالقوة. بدا عبد القادر وكأنه رجل شديد البأس.

قفل عائداً إلى الدار ليكتشف غياب أمه عنها، فهي إما عذد  
ابنتها أو تشرب القهوة عذد واحدة من الجارات. سارع إلى وضع  
مسدسه وصندوق الخرطوش في مشمّع، وابتدأ في نبش التراب  
واضعاً الثقة عميقاً بالقرب من شجرة الفارنج. وإذا ما سوى  
التراب طبطب على سطحه قائلاً:

تام يا حبيبي تام. ولا تستيقظ قبل أن أمرك.

ومن جديد عاد مسرعاً إلى الخان.

مساءً يدخل الدار. يلقي نظرة على مخبأ الكنز، فإذا وجد أمه  
أمامه قبل يدها، وتلفه بفرح وهي تعلن عن العروس التي وفقنا  
الله بها. وبينما يصغي باحترام إلى ما تقوله أمه عن صبية  
(لقطة)، صغيرة وممتلئة وأحلى بنات بائع (المشبك) الذي يعرف  
عنه أنه لا يتوقف عن استقبال زبائن الحطوى الساخنة صيفاً  
وشتاءً، ولربما أخذت الصبية حلاوتها من أقراص (المشبك).  
وقال عبد القادر:

صبراً جميلاً يا أمي فانه هو الذي يختار.

في الليل وبعد العشاء طرقت باب الدار، واستمر قرعه بعنف،

وكان يتداخل مع الضربات صوت مغربي:

افتحوا الباب قبل أن يحطمه الجنود.

جمدت الأم هلعاً، في اللحظة التي تقدم عبد القادر هائلاً من

الباب. فتحه. وتدفق جنود معظمهم من السنغال يقودهم ضابط

أشقر فانتشروا في أرجاء الحوش. كان مشهد الاحتلال يتكرر شهرياً لأكثر من مرة، واعتاد عبد القادر اقتحام الدار للتفتيش. لم يظهر عليه أي خوف وبخاصة أن كنزه مدفون في التراب بالقرب من شجرة النارج.

الجنود يقلبون الفرش والالحف والطناجر. يبحثون في التنور، ويطنون على البئر من باب الاحتياط فهم لم يكتشفوا من قبل أي مخبأ له. انتهى التفتيش فقام الضابط بتقديم الاحترام بانحناء رأسه، بينما قال المغربي بالإعلان عن الاعتذار. قال عبد القادر لنفسه مع خروج الجميع من الدار:

لن ينجح أحد في نبش التراب.

بعد أيام قليلة أخبر أمه بأن مهمة كلفه بها صاحب الخان، وسيسافر إلى (الجزيرة) مخترعاً كذبة غلال سيثحنها، لزمّت الأم الصمت ولكنها بعد قليل دعت له بالتوفيق. قبل عبد القادر يدهاً طالباً الدعاء له بالتوفيق في مهمته.

- ٢ -

مع خيوط الفجر الأولى خرج من الدار، حاملاً كنزه وقد ربطه إلى ظهره ملفوفاً بقماش تغطيه أوراق من شجرة النارج. وألقى على كتفيه عباءة فروة الغنم ومضى في طريقه. كانت

- ٥٠ -

الحياة في حلب قد بدأت تنب ببطء. المصلون يغادرون المساجد، بينما أهل السوق يتوجهون إلى دكاكينهم وخاناتهم، وينتشر زبائون في الشوارع يكنسون الأرض. وإذا مرَّ عبد القادر بعدد من المخافر لا يعيرها اهتماماً فيقطع خطواته من أمامها بثقة. وكان هدفه الوصول إلى (باب الفرج) الذي ضم عدداً من الكاراجات ليصبح مركز السفر إلى المدن والأرياف. وكان أبرز الأبنية هو (المكتبة الوطنية) التي شيدها بلدية حلب فوضعت المخابرات الفرنسية اليد عليها، فإذا ما مرَّ بها عبد القادر أحسَّ بشيء من الخوف الذي لم يكن من المسدس الذي يحمله بل الذكريات المترامية بذلتها على أهل حلب.

وقد انتصب عمود الساعة أمام الكاراج الذي قصده عبد القادر لتسفر إلى (أريحا)، فدخله ليشاهد عدداً من الباصات في المكان الأشبه بالهنكار الواسع الذي امتلأ بمئات المسافرين إلى اتجاهات مختلفة.

لم يسبق لعبد القادر أن خرج من حلب فأحسَّ بالغربة، لكنه عزم على المضي في مهمته.

بعد ساعة من الانتظار امتلأ الباص. مضى في طريقة خارجاً من المدينة ليتوجه في سيره إلى (أريحا). وكان عبد القادر يعظم أن البلدة قد تحولت منذ القديم إلى مصيف لأهل حلب، وأن القتل قد انتشرت حولها ومنها جبل (الزاوية) الذي تحول إلى

مقل للثوار يحاربون فيه الفرنسيين بالتطوع إلى أن تعم الثورة أرجاء من البلاد.

نبث عبد القادر ساكناً في مقعده وهو يلاحق الطريق الذي اضاءه نور الشمس الصباحي، فكانت حقول القمح والشعير ممتدة إلى الأفق، وأشجار متفرقة قد تقاشرت على الأطراف. تحرش به جاره في المقعد فلم يلتفت إليه متطعاً من النافذة، إلا أنه مع إلحاح الجار أجاب عن سؤاله بأنه يقصد أريحا من أجل استيراد الكرز، كاشفاً من زيارته الأولى وهو يتساءل عن أهم البساتين التي يمكن أن يتعامل معها، وإذا بالجار يكشف عن خبرة واسعة، وتطوع بالحديث عن طبيعة المنطقة، وهكذا انطلق الرجل بوصف جمال أريحا، بساكنها وجبالها والآثار التي تعود إلى تاريخ قديم. وعاد إلى الكرز الأسود الذي خص به الله بساكنهم فلا تعرف منطقة أخرى من سورية مثيلاً له، إلا أنه لم يأت على ذكر ما يجري من مقاومة للفرنسيين في جبل الزاوية. وتساءل الجار فجأة إن كان المسافر واحداً من تجار (باب جنين)، فإذا بالرد يأتيه دون تلكؤ:

شريك في المال ضابط كبير في الدرك، وسيقوم بالتحاق بي بعد الظهير.

ظهر الإعجاب على الجار وهو يهز برأسه، بينما يقول عبد القادر:

أهل حنب مغرمون بالكرز الأسود. المري، العصير،  
واللحمة بالكرز هي الأفضل.

ويعلق الجار بالقول إننا في أريحا مثلكم يا أهل حنب، فعلق  
عبد القادر بقوله:

‘الكرز هو الفاكهة التي اختارها الله لتكون اللؤلؤة السوداء.’

وبدا ان الجار قد عجز عن فهم وصف الكرز، بينما كان  
القادم من حنب لا يعلم شيئاً عن اللؤلؤ. وابتدأ الباص وصوله من  
مقصد السفر.

في ساحة البلدة لفظه الباص، حائراً كان ولا يطيق عباءة  
الفرو ولكنه لا يستطيع التخلص منها. وكان ملتزماً في حركته  
بتعاليم الأستاذ. كان معلم المدرسة في حيهم الذي استدل عليه،  
هو من أنصار إبراهيم هنانو. اقترب منه في خروجهم من صلاة  
الجمعة ليحادثه على انفراد، وكان الأستاذ قد عرفه شاباً من  
خيرة ابناء الحي، وهكذا قبل فكرة الالتحاق بثورة جبل الزاوية  
ليدفعه إليها. وكانت الرحلة.

كان المقهى يقع على أطراف الساحة. الكراسي والطاولات  
وقد توزع على معظمها أهل البلدة أو الغرباء، فجلس عبد القادر  
بعيداً عنهم بانتظار من كان قد وعد به. لمح صبي القهوة الذي  
تقدم منه، آنذاك طلب كأس شاي، فجاء الكأس على عجل فيما  
يهتف الصبي:

أكره عجم مع أربعة معالق سكر بلون التراب'.  
وأدرك عبد القادر أن كلمة السر بحاجة إلى مفتاحها، فقال:  
'السكر لا بد أن يكون هو الأحمر'.

فمال عليه صبي المقهى وهو يهمس في أذنه:  
'على رأسي أبو حنبل'.  
وانفلت عائداً إلى الداخل.

بعد قليل سمع صوتاً جاء من رجل اتخذ له مقعداً إلى الطاولة  
المجاورة، وكأنه يحدث نفسه:

'الحق بي بعد قليل، وكن بعيداً عني'.

فلبث عبد القادر جالساً على كرسيه تاركاً فرصة للرجل في  
الابتعاد، فإذا ما أصبح في آخر الساحة، هب واقفاً ليحاسب صبي  
المقهى، ومضى متابعاً خطوات الرجل عن بعد، فكان الدليل إذا  
تباطأ تراخي هو في مشيته. في حارة ضيقة من بلدة أريحا  
توقف ليحكم حزام قنباره فتوقف عبد القادر ليحك رأسه منشغلاً  
بقراءة الكتابة على جدار، وعاد الرجل يمشي وهو يقرع بحدائه  
على بلاط الحارة بينما عبد القادر كان يخشى أن يحدث أية  
ضجة. وانتهى الدليل عند باب قديم ليقرعه بالنسقاطه ثلاث  
مرات، ليفتح. آنذاك أشار إلى عبد القادر أن يقترب، ومن ثم  
دخل الدار. أصبح الاثنان داخل الحوش فهمس الدليل في أذن

صاحب الدار، وما لبث أن غادر من حيث أتى، ويبدو أن مهمته قد انتهت.

حيّاه الرجل الخمسيني وقال أن اتبعني، فلحق به عبد القادر. دخلا غرفة ومنها إلى أخرى، فإذا برجال ثلاثة قد توزعوا على بساط جالسين وهم يستندون إلى وسائد. هتف صاحب الدار: 'أبو حنبل، الأخ عبد القادر.'

ووقف الرجال وهم يرفعون أذرعهم في الهواء، وكانوا يرددون بصوت واحد:

'أهلاً بعبد القادر أبو حنبل.'

صافحه أحدهم وهو يدعو إلى البساط، فاستجاب. خلع عبد القادر عنه عباءة القرو ليجلس أرضاً، وها هو يأنس إلى الرجال فكان شعور يراوده أنه يعرفهم منذ زمن. كانت أريكة في صدر الغرفة فتراجع للاستناد إليها، وهو يذمح في أسفلها أنابيب حديدية، فعرف أنها البنائقي، وأدرك أن الغرفة كانت للذوار. وتربع على البساط رجل الدار ليصبحوا خمسة وكأنها ندوة افترش رجالها الارض.

وتسأل من يظن أنه صاحب المكان أو أنه مكلف براحة المجاهدين، وكان قوله دون مقدمات:

'كنا قد أخبرنا بقُدوم ابو حنبل إلينا، نحن نرحب بك يا أخ، ولكن لم تريد أن نقائل معنا؟'

أذناك كشف عبد القادر عن ظهره، وقام بفك رباط وسطه.  
أخرج المسدس مع صندوق الخرطوش ووضع كنزته أمامه، وقال  
بهدوء المعتاد:

'أتريدون أن يكون لكم شرف النضال ضد الفرنسيين؟'  
وقال مجاهد من الرجال بحماسة:

'لا والله. نحن نريد الجميع في البلاد معنا.'  
وعلق واحد منهم:

'ومن أخبرك أن الثوار يحسبون على أهل المنطقة؟'  
وقال آخر وقد استوى في جلسته:

'إنهم كل أهلنا في البلاد، المدن والسهول والجبال.'  
وهتف بأن أبو حلب مرحب به، وأهلا بك.

كان رجل الدار يقترب من المسدس يعاينه، ينقله من يد  
لأخرى، وتساءل:

'أو تريد أن تحارب جنود الاستعمار به؟'

فقال عبد القادر إنه جمع الكثير فوق الفرنك ليحصل على  
المسدس من مهربي السلاح، فأنبرى أحدهم متسائلا عن أهمية  
هذا المسدس في وجه رشاشات العدو ومدافعه، وعلق بالقول:

'لا ينفعنا مسدسك يا أخ، إلا أننا نرحب بك.'

بداية خاب أمل عبد القادر في الحصول على المسدس، إلا أنه  
ما لبث أن استعاد الأمل بعد سماعه بترحيب الرجل به وليبلغ

أقصى ما يمكن ان يصل من نشوة. وقام ليمدّ يده بالمصافحة  
رجلاً بعد آخر، إلا أن الجميع هبّ واقفا ليعانق القادم من حنب،  
فكان احتضان الآخرين له قد دفع الدموع إلى عينيه لترقرق  
مأقيه. وفيما يحتضن رجل الدار ضيفه، قال:

سيقوم واحد من رجالنا على طريقة استعمالك البنديّة،  
وأرجو أن تحتفظ بمسدسك فهو ينفع.  
وأضاف قائلاً بأمر حاسم:

ستبدأ منذ اليوم، وبعد قليل، التدريب عند السفح القريب من  
الآثار هو المأمون.

ويبدو أن الوقت قد أذن بانفضاض الجميع، فتقدم رجل الدار الذي  
كشف عن أهميته، ليلحق عبد القادر به. خرجا من أرض الحوش  
لينزلا في قبو. نادى على أحد الرجال المسمى بأبو محمد:  
أبو حنب أمانة بين يديك.  
فهبّ الرجل امتثالا للأمر.

- ٣ -

تقدم البغل في صعوده عبر شعاب التلال حاملاً الرصاص  
والبنادق المخفية بخبرة. وكان الاثنان يتابعان الحيوان بخطواتهما  
الواتقة، بينما أرسل عبد القادر بصره متأملاً السفوح التي أطلت

- ٥٧ -

الأعشاب من بين صخورها، ويمتلئ صدره بالفخر على إقدامه بالانتساب إلى الثوار في ساحة الشرف. جعل يقرن جمال الطبيعة بأهمية الجنة التي قد تكتب له باستشهاده. حياة الجبال لا يعادلها العيش في الحواري والأزقة، فيا لحظ أهل الجهاد.

كان بغل أبو محمد يسبق الرجلين بخطوات، فما تعيق الصخور مسيرته وقد اعتاد على معرفة طريقه، وكأنه يعرف الهدف. والتزم عبد القادر أوامر معلمه الذي يقوده إلى مكان التدريب. وظهر على الرجلين ملامح بائعين يجولان بالبضاعة بين البيوت التي تتأثرت قلة منها على السفوح، بينما لم يظهر أي من مراكز قوى الفرنسيين. الطريق كانت آمنة يعرفها أبو محمد معلم الرمي، والذي افتتح لعبد القادر أول أيام التحاقه بثورة جبل الزاوية.

وانطلق صوت أبو محمد بالاهزوجة التي كان عبد القادر قد سمعها في حلب، وتغنّى بها في سره:

طيارة طارت في الجو / فيها عسكر فيها ضدو / فيها ابراهيم  
هنانو / مركب ابو قدامو.

ومن يوم لآخر. كان وانقأ من انتشار اسطورة البطل ابراهيم  
هنانو في كل أرجاء البلاد.

توقف البغل عذد منعطف أطلّ على منخفض بين ارتفاعين.  
كان الرجلان يتأملان الفسحة الخفية، وسمع أبو محمد يشير إليها  
قائلاً:

هذه المنطقة من الأرض لا يعرف أحد عنها عدا جماعتنا.  
وأخرجت البنادق وصناديق الرصاص، وقد حملها الاثنان  
منحدرين إلى تلك الفسحة، بينما البغل ربط إلى الشجرة الوحيدة  
على رأس النل، وقال أبو محمد بلهجة أمره:  
ليس أمامك لاقتان التصويب على الاهداف سوى ساعات  
تنتهي مع غياب الشمس.

جعل عبد القادر يستنفر طاقته، وهو يحاول أن يكون لائقاً في  
الامتحان الذي ستكون نتائجه تحقيقاً لرضى ثقة الثوار، بل إن  
المعلم سيعلن عن نجاح التلميذ في امتحانه. هو لا يريد إلا أن  
يجتاز هذا الامتحان ليكون جديراً بالقتال ضد العدو.

التحمت البندقية بالكتف، وبعد محاولات تثبيتها بات نوح  
الكتف منتصباً بالقاعدة الخشبية، فكان لعبد القادر الدرس الأول  
الذي انتقل إلى الثاني في دقة النظر لمعرفة الهدف. وكان أبو  
محمد قد رسم بالطباشير دوائر متباعدة على سطح الصخرة  
الواضحة أمامه والتي كانت على بعد منه. وطاشت الرصاصات  
الأولى، فقال أبو محمد محدراً:

انتبه يا أخ ابو حطب، فالرصاص عزيز.

ومن جديد جاءت الرصاصات بعيداً عن واحدة من الدوائر،  
فهتف المعلم:

‘على الرصاصه أن تقتل جندياً فرنسياً’.

واقتربت أخرى من محيط الدائرة، فصاح ابو محمد:

‘لو أنقنت تصويبك لما خرجت عن الهدف’.

بعد ساعة من الزمن جاءت الرصاصه في قلب دائرة، آنذاك خرج عبد القادر عن وقاره ليقفز في الهواء من فرح، فإذا بالمعلم يهتف:

تمهل ابو حنبل، فأمامك مشوار لبذوغ الهدف. عليك أن تصيب قلب الدوائر جميعاً’.

ومن جديد صوب على مركز دائرة فجاعت قريبة من محيطها. وتكرر اطلاق الرصاص بثبات يخفي غليان نيران التحدي. وإذا ما أصاب الدوائر في مقتل، قال ابو محمد:

‘هنياً لك ابو حنبل، فالبداية جيدة’.

وقام المعلم فجأة برمي حجر في الهواء، فإذا بالرامي ينجح في تفتيته، ليقول ابو محمد:

‘ابو حنبل، أنت رجل حقيقي’.

وسمعت هممة من الأعلى، فتبته الرجلان في الساحة ليشاهدا شاباً يشير بعصاه. وقد دلت ملابسه على أنه من الرعاة. وأحسن عبد القادر بالخطر، إلا أن المعلم الذي تبادل الإشارات مع الشاب، فكانت له الطمأنينة. تساءل عبد القادر عن أمر الشاب

فقيل له إنه واحد من رجالنا، وهو مكلف بحراسة المكان ويقول لنا إن كل شيء آمن. آنذاك هدأ عبد القادر وهو يدرك أن جماعة الثوار تعمل وفق نظام وتخطيط، متمنياً أن تكون لهم في حلب مثل تلك الجماعة.

وكانت العودة إلى التدريب قد أصبحت أكثر تركيزاً، ولم يتوقف المعلم عن توجيه التعاليم والملاحظات فيقبلها المتدرب بشغف. وظهر عبد القادر كمن فطر على استخدام البندقية والتحرك بها خفيفاً كبهنوان في اتقان القفز والزحف، الإقدام والتراجع، كذلك الاختباء والظهور المباغت.

وقد توج أبو محمد فترة التدريب التي أدخلت إليه البهجة باكتساب مقاتل، وقال فجأة:

‘حان الوقت لاستخدام المسدس.’

اعتبر عبد القادر القول مديحاً للبرابرو، فأخرجه من وسط دكة الشروال، وقبل الكنز الذي يفخر به.

وابتدأ المدرب تعاليمه التي التزم بها التلميذ. كان إقدام عبد القادر على التصويب برغبة لم يشهد حرارة مثلها. وبأنت البندقية لها شأن والمسدس له شأن، ولكن الرصاص واحد، كما أن النتائج هي نفسها في النجاح.

ومع بداية علامات المساء في زحفها على الفضاء، أعلن أبو محمد أن تناول الطعام قد حان، وإذا عبد القادر أحسن بالجوع

المفاجئ. كان قد أنجز مهمته في تدريب صارم فجاء وقت الطعام الذي لم يكن سوى أرغفة الخبز والجبنة القريش والبندورة والبصل. وكانت المائدة هي الأثمهي من أي شيء، بل إنه العشاء الذي بات مدخلاً إلى عالم الثوار.

كان الراعي الشاب قد أطعم البغل وسقاه، فانطلق الرجلان في طريق العودة. وبدت سفوح التلال بالرغم من شحوب ضيائها فإن النور قد انفتح على عبد القادر، فكان خياله يكشف عن المعارك التي ستقوم بين الثوار والفرنسيين. فيدوح له من بين الصخور وميض نار الرصاص الذي جعل الجند والغرباء ينساقون كأغصان منكسرة.

سئم البغل للإسطنبول القريب من الدار، فأكمل الرجلان مشوارهما إليها وهما يتبادلان حمل كيس البنادق. استقبلهما صاحب الدار، فإذا استقر بهما الحال أمر لهما بالطعام. وكانت ساعتان من الزمن قد مرت عليهما منذ مغادرة أرض التدريب، فجاءت صينية البرغل مع الدجاج فتحت لهما الشمية على ما قد يسمى بالعشاء الحقيقي وقد نسيا أمر ذلك العشاء المزيف.

مسح أبو محمد الصينية، وإذا ما شكر الله يطعمهم من جوع، ابتداءً يمتدح عبد القادر على انجازه للمهمة، وجعل يقول:  
'وأنت أبو حطب أصبحت مؤهلاً للقتال إلى جانب الثوار.'

وأكمل بلهجة أمره لا تخفي المحبة:

تقضي ليلتك هنا لتعود غداً إلى بذك باننظار الإشارة فتعود.

وقال متكناً على وسادة:

بندقيتك تخصك لودك، اتركها مع مسدسك فهما باننظارك

هنا.

ولم يكن هناك فرصة في طرح السؤال الذي كتبه في صدره، فقال عبد القادر بصوت خفيض في الوقت الذي أغفى فيه أبو محمد، إن كانت عيناه ستتكلان برؤية البطل هنانو، فهي الأمنية والرجاء. وما لبث أن افترش الأرض مسنداً رأسه على مخدة القش، وذهب في نوم عميق.

مع الفجر بحث عن الماء لوضوئه. أقام الصلاة وإذا بعبد القادر يفاجأ بصاحب الدار الذي لحق به في العبادة. وكان له دعاء في ختام صلاة الفجر أن يعيده إلى أرض الجهاد. واستعد العائد للمغادرة فتقدم بالشكر على الضيافة وإعداده للقتال، منطلقاً إلى ساحة البدة.

احتل مقعده في الباص الذي امتلأ ليمضي بالركاب في الطريق إلى حلب. وكانت السيارة تطوي المسافة، فبات عبد القادر متطلعاً إلى العودة بعد أن فتح له باب الجهاد على مصراعيه. وانطلق ينشد في سره نظيرة طارت في الجو.....

باب الفرج قلب حنّب، أصبح فيه وها هو يغادر كاراج البابا.  
عبد القادر اشتاق أمه فتسارعت خطواته عرج على (باب جنين)  
القريب فاشترى (البامية) التي ستثبت أنه سافر إلى منطقة  
(الجزيرة) التي اشتهرت به بالرغم من اختلاف طعمها وحجمها  
عن تلك القادمة من بساتين حنّب، وكانت النسوة في حنّب لا  
يعرفن شيئاً عن بامية الجزيرة، وأمّه من بينهما. وفي لقائه مع أمه  
استقبلته بالفرح والدهشة، فهي لم تعتقد انه سيعود بعد يوم. وقال  
يعطيها الكيس:

‘البامية من بدة الرقة يا أمي.’

ولم يعنها الكيس فضمت ابنها إلى صدرها وهي تقول إن خبز  
التنور من غيرك يا ولدي لا يكون، وقالت الأم وقد غمرته  
بالقبلات:

‘هل وفقت في تجارتك يا ولدي؟’

فقال الابن وهو يستريح على الدكة الخشبية في الحوش:

‘أهمّ تجارة قمت بها في حياتي.’

— ٤ —

لم يسجل على الأستاذ أحمد أن نطق بكلمة واحدة لها علاقة  
بما جرى لعبد القادر في سفره ولقائه بعدد من رجال الثورة. ظل

— ٦٤ —

الأستاذ صامتاً أثناء خروجه من صلاة الجمعة في مسجد الحارة،  
بعكس ما كان يتلو الأدعية عقب الصلاة وكأنه شيخ تفرغ  
للعبادة. ولحق به عبد القادر ليهمس:

‘متى؟ متى سأعود يا أستاذ؟’.

وإن قد مرت أيام قليلة على عودة عبد القادر، فردّ الأستاذ  
بحرصٍ كان يتفكّه:

يختار الله ما فيه الخير’.

وأضاف تحية الوداع، وانعطف في طريقه مسرعاً في خطواته.  
وتوقف عبد القادر عن السير ليردّ على التحية. جعل يفكر في معنى  
قول الأستاذ يقبله على وجوهه، إلا أنه ما لبث أن تذكر ما كان يردد  
بالعمل على الكتمان، فهذا معنلاً نفسه بالطمأنينة.

وجعل يمشي كتائه لا يفكر. قطع الحارات والأزقة فعادت بعد  
قليل خطواته تؤدّ في صدره الوسوس. أتراه لم ينل بعد ثقة  
المجاهدين، أم أن أسلوبهم في العمل السري يدعو إلى الحذر.  
وتساءل إن كان جديراً بالثقة، وكان جوابه أنه أهل بها. وتوقف  
لحظة ليقول لنفسه إن كان ثوار الجبل عرفوا شيئاً عن وضع أمه  
التي لم يكن لها رجل غيره، أو أن الأستاذ أحمد حذرهم من ذلك  
خوفاً على العجوز، وهل بلغهم أن أمه لا معين لها في العيش  
غيره. وسواسه دفعه من جديد إلى متابعة السير.

واندفع عائداً إلى الدار يفكر في حلّ لوضع أمه. وإذا ما وجد نفسه في مواجهتهما فكانت تعتب عليه غيابه في يوم عطلة وقد تجاوز حدّه. وعادت من جديد إلى أسطوانة الحديث عن الزواج. خيرته في الموافقة على فتاتين، إلا أنه لم يعر أي اهتمام لهما، وانسحب إلى غرفته مدعياً أنه متعب يريد شيئاً من الراحة.

مع بداية الأسبوع حمل عبد القادر معه نيتَه في مفاتحة صاحب الخان في أمر. دخل غرفته، فكان مشغولاً بالاستماع إلى راديو الشرق الأدنى. همهم وسعل. فاستمر الحاج في استغراقه. بعد قليل يفاجأ بعبد القادر، إلا أنه تساءل عن سبب قدومه. كان الشاب عبد القادر في وقوفه الحائر وهو يستجمع أفكاره ليجدها بعد قليل مستعدة في إطلاقها. قال إن الأحوال صعبة والمعيشة تتعثر، وقال إن كانت هناك أعمال إضافية يتمنى أن يقوم بها فتسمح بزيادة أجره. إلا أن صاحب الخان اشتكى من سوء الأحوال بعد أن وضع الحاكم الفرنسي يده على أهم الغلال، وهتف بحرقه:

«ألا ترى يا ولدي، وأنت أفضل عامل في الخان، ألا ترى ما وصل إليه حال التجارة في البلاد».

وصاح بصوت خفيض مددداً بالظلمة المستعمرين أعداء الله والناس.

بعد يأس من صاحب الخان، فكر عبد القادر في الأقارب لمد يد المساعدة، إلا أنه بالرغم من بعض الأهل الذين أنعم الله عليهم

بحياة أفضل لا يجرؤ على الطنب منهم مساننته دون سؤال عن سبب غيابه. وتذكر قول الأستاذ أحمد عن وجوب الكتمان والتستر في العلاقة مع الثورة، فكان يزداد حرصاً على سره، فهو لا يمكن أن يفشي به ولو كان لأقرب الناس.

وما كان أمامه سوى الأستاذ يشكو له حاله. التقى به في صلاة الجمعة، وجلس إلى جانبه، ومال عليه هامساً أثناء الخطبة: 'أستاذ، أنا بحاجة إلى الحديث معك بعد الصلاة.'

فكانت إيماءة رأسه بالموافقة، وإذا ما انتهت الخطبة والصلاة والدعاء، وخرج الاثنان من المسجد، افترقا كمن لا يعرف أحدهما الآخر.

كان يلحق بالأستاذ عن بعد يتساعل بالسلام على واحد من الحي، ويتوقف عند طفل يداعبه، إلا أنه لم يغب لحظة عن متابعة الأستاذ الذي انتهى به المطاف عند باب المدرسة. دفعه حرصه إلى الاطمئنان على خلو الزقاق، فادخل الأستاذ المفتاح في القفل، بينما يوميء إلى عبد القادر بالدخول.

ومن جديد دخل المدرسة، وأصبح الاثنان في الحوش الصغير ليقل الباب عليهما. وكانت المدرسة تشغل داراً قديمة بغرفها القليلة، وكان الأستاذ هو المدير والمعلم والأذن. ودعاه إلى غرفة الإدارة وهو يقول إننا نستطيع فيها التحدث دون رقيب.

ملأت خارطة سورية جداراً في الغرفة الصغيرة، فاجتنبت اهتمام  
عبد القادر وهو يتأملها باعجاب، وقال متحسراً:  
لم أكمل تعليمي، وكنت قد تعلمت القراءة والكتابة عند الشيخ، ولم  
يكن عنده مثل هذه.

واقترب من الجدار يلامس بأصابعه مواقع في الخارطة بقديسية  
تشابه ما يتم التمسح به لمقام زكريا في الجامع الكبير، وجعل يردد  
بصوت خفيض:

‘بلاننا جميلة وتستحق ان ندافع عنها ضد جنود الاحتلال.’

وقال الاستاذ مريباً على كتف عبد القادر:

لهذا كانت الفرصة لك للجهاد من أجل الدفاع عن استقلال البلد.  
وجعلت الكلمات تنزل على صدر عبد القادر برداً وسلاماً. أيقن  
أن في قول الاستاذ اعترافاً بالقبول في صفوف الثورة. سعاقته لا  
يفوقها سوى الالتحاق بأهل الجهاد. ومسح الخارطة بعينه وهو  
يتوجه بسؤال الأستاذ:

‘اعذر فضولي يا أستاذ أحمد لأسأل أن كنت تشارك في القتال مع  
الثوار.’

فما كان من المعلم إلا أن وقف على قدميه ليتقدم خطوتين ثم  
توقف، وقال:

‘أليس عملي في التعليم جهاداً من نوع آخر!.’

ومال على عبد القادر ليهمس في أنه:

موقعي هنا، ألا يعني لك شيئاً؟

وأعقب القول صمت داخله سقسقة العصافير التي اتخذت لها  
موقعاً على أغصان شجرة الجوز الوحيدة في حوش المدرسة. حفزه  
صوت العصافير ليقول شيئاً، لكنه استمر في سكوته. ثم بعد قليل  
هبَّ عبد القادر واقفاً وفي فمه كلام كشف عنه ارتعاش شفتيه.  
وفاجأه الأستاذ بالقول:

‘ألم يكن عندك شيء لتقوله لي؟’.

ابتدأ عبد القادر بشيء من همس غير مسموع، ولكنه بالرغم من  
تعثر كلمته صرَّح بالقول:

‘عندي شكوى يا أستاذ. الشكوى لله ولكن ليس لي غيرك من  
دون كل الناس أحادثه’.

وجاءه الجواب في أني استمع إليك فاطلب. وتنفق عبد القادر  
يحكي عن أمه التي قد تكون وحيدة يوم التحاقه بالثورة، فهو لا يريد  
لأحد أن يعلم شيئاً عن سبب غيابه ولو كانت أخته. وقال إن غيابه  
سيوقف أجره من الخان، فمن سيعين أمه على مواجهة الحياة. وقال:

‘أنا الوحيد الذي يدخل عندها بالطعام، ويؤمن لها احتياجاتها’.

وأشرقت ابتسامة في وجه الأستاذ. اقترب منه فكانت للتشاكلي  
مفاجأة لسماع المعلم يقول:

‘لا يمكن للخير أن يغيب عن أهل حطب. إنهم يستجيبون عادة  
لندائنا في مساعدة المجاهدين وأهلهم.’

وقال الأستاذ يطمئن الخائف على أمه:

‘الأ تظن يا أخ عبد القادر ان مقاومة الاحتلال سيساندها  
الناس. أفراد وجمعيات خيرية وآخرون لن يعجزوا عن رعاية  
امرأة هي أم رجل من الدوار. ليطمئن أخي على أمه فهي لن  
تبقى وحيدة من غير معين.’

وأضاف بالقول إنَّ أهل حطب لا ينقصهم فعل الخير.

لمعت عينا عبد القادر بالدموع. مسحها واحتضن الأستاذ  
بذراعيه. كان عاجزاً عن التعليق بكلمة، ولم يستطع أن يعبر عن  
امتقانه فكان الضم إلى صدره كافياً. مرة أخرى قال الأستاذ هامساً:

‘الزعيم هنادو أيضاً حاضر أبداً لإعالة المحتاجين من رجاله.’

وقال الأستاذ مودعاً وهو يرافق عبد القادر إلى باب المدرسة:

‘لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.’

وانطلق عبد القادر إلى الدار، طاوياً الطريق بخطوات تشبه  
العسكر، بينما يردد متمماً:

‘طيارة طارت في الجو.. فيها عسكر فيها ضوء.. فيها ابراهيم  
هنادو.. مركب ابنو قدامو.’

كانت قد انزاحت عن صدره صخرة عثت فترة تحت ثقلها، ولكن  
الاستاذ أحمد ففتحها وأحالها إلى كومة ورد.

وما إن دخل الدار، حتى همّ على أمه التي كانت تكنس أرض الحوش فلم تلاحظ حضوره. احتضنها ليُقبل رأسها ويديها، فما كان منها إلا أن هتفت في وجهه:  
'لن تعترض الآن على البنت التي سأخطبها لك. ولن تتدم يا ولدي.'

فإذا به يمسك بها يحاول أن يراقصها ويقول:  
'وعندي لك ما هو أهم من العروس يا أمي.'  
'وهل هناك يا ولدي ما هو أهم من العروس الحنوة ابنة رئيس مخفر.'

إلا أن الابن لم يملك سوى ابتسامة غامضة وهو يتسائل فجأة عن طعام الغداء لأنه سيموت من جوع.

- ٥ -

جاءت الدعوة. أخيراً وبعد انتظار حسيبه دهرًا، تلقى الإشارة من الأستاذ في همسه يبارك توجهه إلى جبل الزاوية. وكان يقول مساء في المدرسة:

'ها قد صبرت وولت. شرف الجهاد من حقاك. أنت يا عبد القادر من رجال الثورة.'

تسأل 'متى؟' فقول له 'منذ الغد، فلم يستطع أن يتمالك نفسه حتى احتضن الأستاذ فلا يقدر على منع دموع تجري من عينيه.

- ٧١ -

غادر عبد القادر وهو يمتلئ بالنشوة. وها هي اللحظة التي حسمت القلق، فكانت تشكل له حياة جديدة. ومن حارة المدرسة انتقل إلى صاحب الخان في داره. تقي الترحيب ولكن الحاج تساعل عن سبب الزيارة وإن كان من أمر طارئ أو مكروه حدث، فطمأنه عبد القادر بأنه سيغيب بضعة أيام في سفر إلى أقاربه في الريف، فلم يلتق أي استفسار عن سفره، بل تمنى صاحب الخان له السلامة.

تملكه العجب وهو يرى إلى سهولة موافقة الحاج، فتساعل عن سرها.

وظفق عائداً إلى داره. أخبر أمه بالمهمة التي كلفه الخان بها للإشراف على توريد البضاعة إليه، فما كان من العجوز إلا أن دعت له بالتوفيق وهي ترفع ذراعيها إلى السماء تخاطبها كي يصبح ابنها شريكاً في الخان لما يبذله من جهد، أو أنه سيمتلك مكاناً، بل خاناً يصبح فيه سيداً. ولم تتوقف عن مخاطبة السماء في أن يوفق ابنها في الحصول على ابنة حلال.

ليلة مرت بين نوم ويقظة. وكان يتقلب على فراش ترقب الفجر والتوق إلى صباح ينطلق فيه إلى الجهاد. وإذا ابتدأ الضوء يخرج من جوف العنمة، تسأل عبد القادر من الفراش، وخرج إلى الحوش للتوضوء. قام بالصلاة لينوجه بالدعاء للثورة ورجالها. وفي طريقه إلى الكراج مشى مقابهاً تدق أقدامه أحجار الطرقات السود، وكانت خطواته تلامس الزفت في الشوارع العريضة.

الكاراج مرة أخرى، ولكن الباص الذي لم يتحرك بعد تمنى له أن يقفز طائراً في الهواء، أن يحلق ويعبر الفضاء بين حطب وبلدة الجهاد. الباص يربض على الأرض، فلا ينقصه سوى قلة من الركاب، فاستعجله عبد القادر في سره فلم يتحرك. وكان منغمضاً فإذا اكتمل العدد هدر المحرك ليتحرر الباص من سكونه. واستمر أبو حطب الذي أسكره لثبه في إغماض عينيه سارحاً بخياله في شعاب التلال التي يترصده الرجال برصاصها جنود الاحتلال. ويبدو أن حرمانه من نوم هائئ في ليلته دفعه إلى استسلام جسده لإغفاء عميق، فسبح في بحيرة الحطم.

قيل له ارفع رأسك أنت. قال اسمي أبو حطب. وسمع أن يرفع رأسه مرة أخرى، ففعل ليرى بأم عينيه رجلاً مثلماً أطل عليه من صخرة عالية وهو يلوح بذراعه لرجال وقفوا على تل مقابل، وكثوا يرفعون في الهواء بنادقهم يردون على التحية، ويتساءل عبد القادر عن المثلث من يكون، فجاءه الصوت معنناً بالغمم 'أنا ابراهيم هنك' فارتفع صوته في الهواء 'وأنا أبو حطب' وقال 'أريد أن أرى الزعيم، أتبارك به وأباركه، فتجمع همس في الفضاء لتسمعه التلال وأعماق الشعاب وما لبث أن تحول إلى هتاف 'أنت تراه بقلبك، وأنت تشعر به كما يشعر بك'.

وتوقف الباص فجأة. انزلت نوابيه على اسفلت الطريق لتتمكن المكابح من لجمها فما عاد يتحرك. وهكذا حدثت الهزة منتزعة النائم

من غفوته الحاملة ليواجه مع الركاب فرعاً. ضربت رؤوس بمقدمه الكراسي وسقط بعضهم على أرض الباص. صعد جنود فرنسيون ببنادقهم إلى الداخل قادمين كالأشباح من أسفلت الطريق. هتف جندي بلغة عربية ركيكة أن يلزم كل من الركاب مقعده حتى ينتهي التفيتش.

لبث الجميع ساكناً لا يأتي أحدهم بحركة أو صمت، فكأنما الركاب اعتادوا على هجوم الجنود على سفرهم. وكان عبد القادر يحمد الله على انتقاله دون سلاح وإلا تعرض لخطر تفيتشه، وكان مستعداً وهو لا يبالي بالخطر. فُشَّ الكُل، وبحث في السلال والاكياس، وأُنزِلت من الرفوف الحفائب والقفائف، فكانت البراعة ومن بعدها انصراف الجنود بعد يأس.

ويمضي الباص في طريقه. بعد قليل تساعل راكب في الصفوف الأولى إن كانت هناك إخبارية كاذبة، وهتف آخر بقوله إنه من الجنون حمل سلاح في الطريق المؤدية إلى جبل الزاوية أو بلدة أريحا. وأثار القول عبد القادر الذي ردد في سره:

‘لا بد أن دعاء الوالدة يراففك في حياتك.’

وإذا ما حط الباص رحاله في ساحة البلدة، ترجل المتلطف للقتال وقد تملكته المشاعر بأنه وضع أقدامه على أرض الجهاد. ودون نيل توجه إلى الدار مسرعاً وهو يستعرض صور تدريبه على تصويب النار فكان بشوق إلى رؤية أبو محمد الذي علمه. مشى في الحارات

كواحد من أهلها، فإذا مرّ بعابر حياّه بالسلام. واستقبله صاحب الدار، وقاده إلى الداخل فكان آخرون لم يعرف أحداً منهم من قبل، لكنهم رحبوا به على أنه (أبو حطب). كان اللقب قد ألصق به فزاد فخراً به، بينما الرجال الثلاثة يمازحونه باعتزاز كمن كانوا يعرفونه من قبل.

وبعد صلاة العصر تسئل الثوار الأربعة من المقرّ خرجوا منفردين الواحد تلو الآخر، ليجتمع الشمل عند نقطة في واحد من التلال. وكانت بنادقهم ومسدساتهم تخفيها العباءات التي التفتوا بها، فكثف رئيسهم عن الهدف الذي جاءوا من أجله. مقرّ القوات الفرنسية الذي كان علمها يرفرف عليه، بات مراقباً بالمنظار المكبر يرصد الحرس والغرف التي تجمع فيها الجنود التي جعل يصفها الرئيس لمجموعته. كان الرجال بانتظار المساء ليحدث الهجوم.

الشمس تغيب وراء الأفق، يبدأ ظلام شفيف بالزحف على فضاء التلال، فكانت ساعة الصفر. ابتدأ الرجال يقذفون في قوس ما لبث أن اتسع ليباعد بينهم. يقتربون من المقر الفرنسي وقد أصبحوا مثل حزن يريد أن يطبق على المخفر برغبة القضاء عليه. رمى رجل بقنبته اليدوية فلحق آخر برمانة فجرت جانباً من جدار. وانتهال الثوار بالرصاص، فكان عنصر المباغثة ما أوقع الجنود في الفخ. سقط البعض وسعى الآخرون إلى أسلحتهم، وما أن تمكن أحدهم من استخدام الرشاش ليطلق الرصاص، ابتدأ الثوار بالتراجع فكان انسحابهم مفاجئاً كما حدث في الهجوم. واستمر تحصن الجنود داخل

البناء لِيَتَّحِ لِنُورِ فِرْصَةِ الْعُودَةِ مِنْ حَيْثُ قُورَا. أَصْبَحَ النُّورُ مِنْ جَنِيدٍ عَلَى النَّارِ الْمَقَابِلِ لِلْمَخْفَرِ، أَدَاكَ ابْتِدَاءَ الْجُنُودِ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْعِرَاءِ وَهُمْ يَصُوبُونَ النَّارَ عَلَى أَشْبَاحِ لَا وَجُودَ لَهَا إِلَّا فِي مَخِيلَتِهِمْ. اسْتَلْقَى الرَّجَالَ الْأَرْبَعَةَ خَلْفَ سَائِرِ صَخْرِي. انْقَطَعُوا أَنْفَاسَهُمْ بَيْنَمَا يَشْتَعَلُ الرِّصَاصُ عَنْ بَعْدِ، فَكَانَ الرَّئِيسُ يَعْلَنُ فِي ارْتِمَائِهِ عَلَى سَطْحِ النَّارِ وَعَيْنَاهُ تَتَعَلَّقَانِ بِظُلْمَةِ السَّمَاءِ:

‘اعْتَقِدْ يَا رَجَالَ أُنَا وَفَقْنَا. كَانَتْ الْمَعْرَكَةُ مِنْ أَنْجَحَ مَا تَمَّ فِي هَجُومٍ عَلَى مَقَرِّ لِهِمْ.’

وَتَوَقَّفَ إِطْلَاقَ النَّارِ، وَيَبْدُو أَنَّ الْجُنُودَ قَدْ دَخَلُوا الْمَخْفَرَ لِإِحْصَاءِ قَتْلَاهُمْ وَجِرْحَاهُمْ وَمَا لَحِقَ بِالْمَكَانِ مِنْ خَرَابٍ.

كَانَ الْمَرْكَزُ الْفَرَنْسِي فِي مَوْقِعِهِ عَلَى أَرْضٍ مَنْبَسِطَةٍ مَا بَيْنَ التَّلَالِ قَدْ أُحْدِثَ لِنَافِيسِ احْتِيَاجَاتِ الدُّورِيَّاتِ مِنْ وَقُودٍ وَنُخَيْرَةٍ، فَأَغَابَ الْجُنُودُ مِنْ إِدَارِيينَ لَمْ يَعَادُوا عَلَى الْمَفْلَجَاتِ مِنْ نُورِ الْجَبَلِ. وَقَالَ رَئِيسُ الْأَرْبَعَةِ أَنَّ اللَّيْلَةَ تَبَارَكْنَا، قَلَمَ يَكُنْ هُنَاكَ مَا يَكْشِفُ مَوْقِفَنَا أَوْ تَحْرِكُنَا. وَعَلَّقَ عَلَى هَجُومِهِمْ عَلَى الْمَرْكَزِ بَأنْهُ كَانَ تَأْنِيْبًا لِنَقْوَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ مُشِيرًا إِلَيْهَا بِأُنَا (عَلَّمْنَا عَلَيْهَا). وَضَحِكَ يَقُولُ:

كَانَتْ حَرَكَةُ تَأْنِيْبٍ لِأَهْمِ مَرْكَزِ لَتَمْوِينِ قُوَاتِهِمِ الْمَعْتَدِيَّةِ.

وَعَلَّقَ آخَرَ مِنَ الرَّجَالِ بِفَخْرٍ:

‘خَرَجْنَا عَلَيْهِمْ كَشَيْاطِينِ اللَّيْلِ لِنَصِيبَ جُنُودِهِمْ بِالْجَنُونِ.’

وسمع عبد القادر يقول هامساً:

'تمنيت لو أننا عرفنا عدد جنودهم.'

فما كان من القائد أن قال وهو يداعب بذنبيته:

'لم تكن أهدافنا في قتل الجنود، وإن كان منهم من لقي مصرعه، بل كانت في إثارة الذعر في صفوف الاحتلال. أقول لكم إن التأكيد على وجود ثورتنا مازال مستمراً، وهو أفضل ما لدينا.'

كان قد مضى على اختباء الرجال على سطح النل أكثر من ساعة، فإذا تأكد لهم أن الجنود قد عادوا إلى مقرهم، انطلقوا في طريق العودة. وفي غضون ساعة من الزمن ضمتهم الدار إليها من جديد. وكان سؤال صاحب الدار للعديين من معركتهم:

'ترانا وقتنا في المهمة وتحقق الهدف!'

واستوى المحارب الذي قاد الهجوم ليهتف بالقول إن المهمة قد نجحت، وأوضحت كلماته أن الهدف هو إقلاق الاحتلال فالثورة مستمرة حتى يخرج آخر جندي فرنسي من بلاننا. وتساءل صاحب الدار فجأة:

'ما عدد الضحايا المقدر في صفوف العدو؟'

ولم يكن هناك من أحد يملك الجواب، ولكن القائد قال:

'سنعرف غداً ما يعلنه العدو عن ضحاياه.'

واستكمل قوله هائلاً بحماسة:

‘ذعر العدو من ثورتنا هو الأهم، وليس في قتلاه’.

وتدخل عبد القادر في محاولة منه لتطويق خلاف محتمل، قال:  
لم أعرف من قبل شجاعة كنتك التي لرجال المجموعة. لقد رأيت  
بأم العين ما فعلته الرمانات التي سقطت كالثهب على مقر العدو،  
وكان الرجال من فعل ذلك’.

وقال بحماسة مؤمنة انني تعلمت وأمنت بأن الاحتلال الفرنسي لا  
مكان له في بلانزا.

ولم يكن كلام عبد القادر ما منع الرجال من خلاف فحسب، بل  
جعل الجميع يحيون أبو حنبل. وهدف صاحب الأدار بالدعوة إلى  
عشاء ما لبث الجميع أن استجابوا له وهم يهتلون. اجتمعوا على  
صينية واحدة وهم يأكلون بشره قبيلة جائعة. وفي الصباح الباكر كان  
عبد القادر يستعد للرحيل حاملاً معه إلى مدينته موعداً للعودة إلى  
عملية جديدة.

- ٦ -

اشتكى الحاج صاحب الخان من تكرار غياب عبد القادر. كانت  
لا تمضي أسابيع قليلة حتى يطلب الإنن في الغياب لأمر تتعلق  
بأقارب له في الريف، فكان الحاج أن هتف غاضباً:  
‘من أين لك كل هؤلاء الأقارب يا عبد القادر. لم أسمع من والدك  
شيئاً عنهم’.

- ٧٨ -

ويعلل عبد القادر بحجة مرضهم وأنهم يطلبون المساعدة، إلا أن صاحب الخان هب وانهاً بغضب بعد أشهر من نفاذ صبره، وقال بصرخ في وجهه:

'لن أسمح لك بأي غياب عن عملك في الخان منذ اليوم. اسمعني جيداً فأنت لن تغيب بعد اليوم.'

وعاد الحاج ليحتل مقعده. كان هائناً وقد صمم على ذلك منذ اللحظة، وقال:

'أنت تريد أن تترك العمل في الخان. هذا شأنك يا ولدي، ولكن تذكر أنك معي منذ صباحك.'

وتطعن إلى النافذة وكأنه يحدث نفسه:

'حسناً فلك ما تريد. لنذهب حيث تريد. حياتك ملك لك.'

فوجئ عبد القادر بقرار الحاج، ليحسب أن الأرض تميد به. لم يستطع أن يتصور نهاية له كذلك. كان الحاج بمثابة والد له، وها هو الأب يتخلى عنه. كان يريد الحاج أن يلتفت إليه، لكنه لم يفعل، فخرج من الغرفة ليستقبله الضياع في ساحة الخان التي كان يتحرك فيها بحرية إلا أنها أطبقت عليه.

مشى بخطوات متثاقلة وهو يزحف بنعليه على البلاط القديم. كان عمال الخان يلقون عليه السلام ولكنه بدا ذاهلاً عن كل شيء فلم يعر اهتماماً لأحد. تكوم عبد القادر على نفسه جالساً على أكياس

العدس. كان يفكر في كل ما قاله الحاج الذي بلغ أسماعه كحجارة  
اخترقت أذنيه. أتكون أزمة عيش التي ستبني سدا في طريقه، أم أنها  
هوة قد تباعد بينه وبين المشاركة في النضال ضد العدو المحتل.  
وماذا عن أمه التي لا معين لها سواه، ومن طرف آخر الانخراط في  
ثورة هنانو التي ساهم فيها؟. ويأكل الألق قلبه وينهش أحشاءه، يفكر  
ويحفر في أعماق مشكلته فلا يجد سوى اللجوء إلى الأستاذ فيطرح  
همه أمامه، إلا أن صوت الحاج نادى عليه. الرجل يسمع نداءه  
فاستقام جسده. استجاب فأسرع.

أصلح هندامه وكثت نقرات أصابعه على الباب كخريشة خجول،  
فإذا أذن له بالدخول لمعت عيناه بالفرح. تقدم خطوتين ممثلاً لطيب  
الحاج بالتقدم منه، ففعل. وكان صاحب الخان يجلس هائناً بوقاره  
الذي عرف به، فأشار إلى عبد القادر بالجنوس ليبي طائعا ولكن  
بفرح يخفيه. قال الحاج:

'ما سرّك يا ولدي، وليكن كتابك مفتوحاً لأرى ما فيه. اعتنت  
منك الصدق، وأتوقع ذلك.'

أكان عليه البوح بسرّه؟. ولكن عبد القادر لزم الصمت خوف  
الإفلات من العهد الذي قطعه على نفسه. قال الحاج:

'لم يكن بيني وبينك سر تخفيه عني. أصدقني يا ولدي حكايتك مع  
الغياب.'

وهب الحاج واقفاً يسنده عكازه، وهمس راجياً:  
‘ألم يكن والدك رحمه الله صديق عمر، وأنا مثل والدك؟’  
فرفع عبد القادر رأسه تلمع في عينيه رقائق دمع، وقال متوسلاً:  
‘ارحمني يا حاج فأنت لي الأب من بعد المرحوم’.  
وتقدم الحاج نحو المقعد المقابل الذي جلس عليه عبد القادر وهو  
يقول:

‘إذا كنت تخفي عني مشكلة ما، فما من مشكلة إلا ولها حل’.  
وتساءل فجأة وهو يحتل مقعداً أمامه:  
‘أهناك امرأة؟ هيا ولا تخف أي شيء عني. أنت رجل تحبه  
النساء’.

وأعقب الحاج بالقول الذي اتسم بالحزم:  
‘لا بأس في امرأة صالحة. بل القصد بأنني أخطبها لك، والله على  
ما أقول شهيد’.

ويتساءل عبد القادر في سره عن طيبة هذا الرجل الذي ذهب  
بعيداً في أبوته، وهنق قائلاً:

‘لم تكن هناك امرأة، صالحة أو غيرها. لم يكن الأمر هكذا’.  
وخيم الصمت على الحاج. كان يفكر ويقلب الأمر على وجوهه،  
وما لبث أن تجهّم في قوله:

‘إذا لم تكن المرأة ما شغلتك، فما هو سبب غيابك المتكرر عن  
الخان؟’.

وأهأاً ینفجر بالجواب وقد شدت عروقه:

‘أهسم انه لم یکن هناك سوى السر الذي ائتمنت علیه فلا أبوح به.’

‘وما هو هذا السر الذي أهسمت على إخفائه.’

كان هو سؤال الحاج الذي لم ینترحزح من مكانه، فما لبث عبد القادر الا أن توجه الى الخزانة الخشبية القائمة خلف المكتب. أخرج منها نفة قماش حريري مال لونه الأخضر إلى سواد خفيف. وكشف عن محتواها، فكان القرآن الكريم. وضعه أمام صاحب الخان وهتف راجياً ان يضع كفه علیه ويقسم وقال:

‘هذا كتاب الله والقرآن بيني وبينك فأقسم علیه.’

بدت الدهشة على وجه الحاج وقد أخذته مباغطة الطنب. وتحول إلى حيرة تملكته وهو يقول:

‘علام أهسم يا عبد القادر؟ أحذرك يا ولدي فالقسم خطير.’

‘أن تحفظ السر. أهسم يا حاج أن تحفظ سري.’

فظهر الغضب على وجه صاحب الخان، وهتف:

‘السر.. السر! ماذا تريد مني يا رجل؟’

قال عبد القادر وهو يعود إلى هنوئه:

‘ألسنت مع الزعيم ابراهيم هنانو. لا أظن أنك لا تؤمن به وبتورته.’

آنذاك عاد وجه الحاج إلى سماعته وهو یردد بصوت خفيض:

ما شأن الزعيم بكل هذا؟

واعتكل في جلسته وهو يضم عصاه بين ساقيه، قال:  
'ابراهيم هنانو يا ولدي تاج رأسي. الزعيم فخر لكل البلاد.'  
وانتفض عبد القادر في وقفته ليبتزم وضع جندي في صفه، يقول  
مندفعاً:

'التحقت برجاله. أنا مع رجال الثورة في جبل الزاوية.'  
وقرأ أثر قوله على وجه الحاج، حاول أن يستطلع فعله عنده.  
وأضاف قائلاً:  
كان غيابي عن الخان بسبب التحاقي بالثورة، أودي فيها واجبي  
وأعود.

ومرة أخرى تقدم من الحاج بالقرآن الكريم وهو يقول:  
'اقسم يا حاج، فأنت والدي، أن تحفظ سري.'  
أخذه الدهول، نكن الحاج ما لبث أن وضع كفه على الكتاب مقسماً  
بالأبيوح بالسر لأي مخلوق.

كانت معركة القسم قد نفعت عبد القادر إلى الاسترخاء على  
المقعد، بينما الحاج قد أغمض ليعود برأسه إلى خلف. بدا الاثنان  
وكأنهما خرجا من معركة انتصرا فيها. بعد قليل رمق الحاج الجالس  
أمامه فكانت عيناه تلحسان عبد القادر، وهو يحاول أن يقرأ في  
وجهه أثر القسم عليه، ليحس أن الشلب صادق في سره، وأنه تسبب  
في طمأنينة له. وكان عبد القادر مازال يلقاه عذاب الكشف عن سره

الذي احتفظ به في صدره فلم يسبق له أن كشف عنه. وفجأة استوى الحاج في جلسته وانتصب واقفاً يسنده عكازه، ليميل على عبد القادر فاحتضنه، وطبع على جبينه قبلة وهو يقول:

'اغفر لي يا ولدي لومي لك على الغياب المتكرر. هل تغفر لي؟'.  
وقال عائداً إلى المقعد مؤنباً نفسه:

'لن أسامح نفسي على الشك، فلم تكن هناك امرأة وأنت تجاهد مع ثوار الجبل'.

لحظات صمت مر بها الاثنان، لينطلق الحاج بعدها بالقول:  
'اسمع يا عبد القادر ما سأقوله لك. أجرك من حقتك في غيابك وحضورك. وأمك ستكون في عنقي، فلا تحمل همها يا ولدي'.  
مع بداية المساء خرج من الخان. كان ما يزال يحمل بداخله ذلك التأثير العميق بموقف الحاج منه ومن ثورة الجبل، والذي كشف عن حقيقة ما يكنه للزعيم إبراهيم هنانو. وقد شغل في طريقه بأمر شكل له قضية أفلتته. هل يعلم الأستاذ بأنه أفشى السر لصاحب الخان، أم أنه يبقى الأمر بينه وبين الحاج. إلا أنه وجد نفسه دون قصد عند المقهى نخله فكان الرفاق يستقبلونه بالترحيب. وإذا ما فاجأه أحدهم بالسؤال عن سرّ شروبه لحقه بالقول:

'هنيئاً لها، لتلي تشغل بالك. أنت يا صاحبي غبت كثيراً عنا'.  
وعلق آخر ساخرأ وهو يراقب الماء بفقاعيه في نار جيلته:

ماما وترجمتها والدتك، هل تحتمل ضرة سرية لها تنافسها؟  
الآن عبد القادر لم يأبه لأي من التعليقين، وقال كمن يحدث  
نفسه:

كتب على الإنسان ما سَجَل في أوراق القدر:

فقال آخر على القول مازحاً:

'حرمانك من الزواج على سنة الله ورسوله، كتب عليك':

فلم يملك عبد القادر من كل هذا سوى ابتسامة رسمت على  
وجهه، وقد رافقت كلامه:

ما كتب علينا هو من إرادة الله:

ولم يشرب الشاي الذي أحضره صبي المقهى، فهب واقفاً  
ليرمي بالتحية على مجموع الرفاق، وخرج والعيون تلاحقه  
بالغرابة من تصرفه.

وما أن نخل الدار حتى استقبلته أمه بخبر من عثر على النصيب.  
أعلمته أن صبية لا يحتمل القمر جمالها، فما كان من عبد القادر إلا  
أن هتف متعباً:

يا أم عبده، ارحميني:

فأصببت العجوز بالذهول بينما هو ينسرق داخلاً إلى غرفته.

عاد من قتاله مع الثوار حاملاً معه آثار جراح. وكان هجوم على قافلة الجنود الفرنسيين في مرورها بواد مفاجأة للطرفين، مما أسفر عن مقتل جندي فما كان من أهل القافلة إلا الخروج بمدافعهم ورشاشاتهم التي أمطروا بها الثوار، فكان أن تفرقوا كل ينجو بنفسه، مشتمين من هول الطيران التي خرجت عليهم من قلب الشاحنات وكأنها جهنم. لم يحسب الرجال لتلك القافلة قوتها المستترة ظناً منهم انها فريسة سهلة. وهكذا شنتهم الذعر فانسحب الثوار يطلبون النجاة في شعاب التلال.

وكان قدر عبد القادر في هروبه أن تزل قدمه ليقع في حفرة تناثرت داخلها صخور صغيرة. وبقي فترة مغمياً عليه فتح عينيه بعدها ليتلمس جراحه. إلا أنه لم يستجد بأحد من الثوار، وظل أسير صمته يكبح آلامه بالصبر.

مرّ على جنون النيران الفرنسية ساعة أو أكثر، ولكنها أخيراً نهبت إلى هدوء فمضت في طريقها دون أن يترجل أحد منها. وكان أن تجمع رجال الجهاد بعد تفرق، فكان السؤال واحداً هو أين أبو حطب، فابتدأ البحث عنه. وانتشرت الجماعة في الظلمة تفتش الشعاب وتنبؤات الصخور، لاعتقادها بانها ستجده. وإذا ما نال التعب الرجال وقاوموه، عثر على عبد القادر مستلقياً في حفرة يئن بصمت يخشى

لقت أسماع العدو إليه. نقل المصاب على ظهر ولحد من الرجال، وما لبث أن تناوب عليه الآخرون. وما أن وصل الدار حتى استدعي الطبيب للكشف على عبد القادر، فضمنت جراحه ورضوض قدمه، ليظمن شريطة ان يبقى في الفراش أياماً. ولم ينقطع عنه الرجال يواسونه ويرددون الحكايات عن معارك قديمة للثوار. وقد وجد عبد القادر تلك الجماعة تحيطه بالمحبة والعناية ما كان يفوق رفاق المقهى، إلا أن الحاج كان مستثنى، فقد كانت أبوته تفيض عن الذي أنجبه من صلبه.

وفي أيام الاستشفاء التي أمضاها في دار الثورة كما كان يحلو له ان يذكرها دوماً، وقعت على مسامع عبد القادر أخبار مقاومة الثوار للفرنسيين في أكثر المناطق السورية بدءاً من جبل العرب التي قاد رجالها سلطان باشا الأطرش، مروراً بغوطة دمشق، وجبال ومدن الساحل التي كان الشيخ صالح العلي رمزاً لها. وهكذا اتسعت الرؤية عنده فشملت مساحة الوطن ليتأكد له حسن اختياره بالالتحاق بثوار جبل الزاوية، فتحوّلت جراحه إلى أوسمة علقت على وجوده متمنياً ان تدوّج باستشهاده.

كان الوقت ظهراً عندما دخل عبد القادر داره لتستقبله الأم بالعناق المعاتب، فغيابه عن الدار قد طال مما تسبب بالقلق والخوف عندها. واكتشفت شيئاً من جراحه ولاحظت التواء قدمه، فصحبته فرعة إلى نكة خشبية في أرض الحوش. التصقت به وهي تمسح على رأسه

لتكشف الكوفية عن تلك الجراح، فصرخت من فزع تسأل عن  
النصائق تغطي جوانب من شعره الذي بات كثوب مرقع. كانت  
تلمس رأسه وقد استسلم لها لتقول:

من فعل بك هذا يا ولدي؟.

فلم يعلق على سؤالها بكلمة، فعادت تلح بالاستفسار:

من فعل هذا في غيابك الطويل فعدت إليّ والجراح تغطي  
رأسك.

أمسك عبد القادر بذراع أمه ليقودها من أرض الحوش إلى  
غرفته. جلسا على الأريكة وهو يستجمع أفكاره، فاخترع قولاً  
همس به:

اعترض قطيع الغنم السيارة التي نقلته إلى حدود مدينة الحسكة.  
انقلبت السيارة، وهذا كل ما حدث يا أمي.

فعدت العجوز إلى تفحص الجراح، لتهتف بخوف نبع من قلبها:

أسفارك لا تعجبنى يا ولدي.

كان عبد القادر في تلك اللحظات يجاهد النفس كي لا ينزلق إلى  
هوة الاعتراف بالحقيقة خوفاً على أمه من وقع الخبر عليها. صراع  
بداخله دام دقائق، لكنه انتهى بقيام العجوز واقفة وهي تعلن عن  
نهايتها إلى المطبخ لإعداد الطعام لحبيبها، وإذا ما ابتعدت خطوات  
هتف الابن:

اشققت إليك يا أمي .

وبدا الأمر محسوماً لصالح كتمان السر المتعلق بثورة جبل  
الزاوية وما لحقها من جراح عبد القادر .

عصراً توجه في الطريق إلى الخان ليقابل الحاج . فرح صاحب  
الخان بالغائب ليحتضنه بترحيب أبوي وهو يقول ان قلنا عليك يا  
ولدي فقد طال غيابك . وإذا ما كشف العائد عن جراحه، انتفض  
الحاج مذعوراً وهو لا يمتلك نفسه من غضب، ويصرخ :

أذاك الجنود، لعن الله الفرنسيين .

وبينما يتحصن جراح عبد القادر هتف بإعجاب ليقول إن ما  
أصابه يحسب شهادة على الرضا بما كتب لنا، وسيظل علامة على  
الإيمان القوي بالجهاد كفرض . وفي جلوسه على المقعد خلف مكتبه  
طلب راجياً أن يقص عليه تفاصيل ما حدث له . ووجد عبد القادر  
نفسه مندفعاً يحدثه بما جرى له دون ان يشير بكلمة إلى الموقع،  
ودون أن يدل على مقر اقامته التي عولجت إصابته فيها . آنذاك لم  
يتوقف الحاج عن الدعاء للبطل ابراهيم هنادو ورجاله من المجاهدين،  
فهمل وكبر، وتحسر على نفسه لأنه بات عجزاً لا يسمح سنه  
بالمشاركة بالقتال مع الثوار . وبلغ التأثر بعبد القادر حداً دفعه إلى  
الاقتراب من الحاج وطبع قبلة على يده فيما يهمس بأن أمثاله قلّة في  
البلد، ولكن الحاج انتفض غاضباً ليقول :

هل تظن أهل حنب في حبهم وتقديرهم للزعيم يختلفون عن رجال الثورة؟.

ومضى عبد القادر خارجاً من الخان وقد حمل في أعماقه الفخر بالحاج وبنفسه. جعل يردد هامساً بأن ما حصل عليه من نعمة الجهاد وتعاطف الحاج، هو أقصى ما يمكن لشلب مثله أن يناله. وقادته خطواته دون إرادة إلى المقهى. وهناك وجد المكان محتشداً بناسه وهم ينصتون إلى الحكواتي الذي تصنر المكان يقرأ في سيرة عنتره متفاعلاً معها بجسده وبيده. وبدا أن الحكواتي يدير معركة بتمثيله لفصل من السيرة، فاتخذ عبد القادر كرسيّاً له عند المدخل، وكان يسمعه ووجدانه يتابع شخصية عنتره ليسقطها على إبراهيم هنادو، فما هي سيرة البطل القديم تظهر في البطل الحي في الزمن المعاصر. وكان عبد القادر يتمايل طرباً من آهات رجال المقهى وتهليلهم لأوصاف الحكواتي للمقاتل الأسمر التاريخي، فيتخيل هنانو مشاركاً مع الثوار في معاركهم.

وإذا ما انتهت الحكواتي ليهم بالانصراف، هبّ عبد القادر واقفاً ليغادر أيضاً، فكتبه رفاقه إليه ليستدعي إلى طاولتهم مرحبين به. وابتدأ تسأول الرفاق عن الغياب مرددين أسطوانة المرأة أو النساء التي حجبت عنهم رفيق العمر، فما كان منه إلا الغضب مفاجئاً الرفاق بصراخه:

أنتسون بطونة عنتره العبسي وتعودون إلى أفقه الأمور. أسرار عاطفية وكلام فارغ.

وانطلق متسائلاً إن كانت سيرة عنتره تشبه ما يجري في البلد من بطولات، فما كان من وجوه أهل الطاولة إلا أن رسمت علامات التعجب وتبادل النظرات فيما بينهم وهم لا يعتقدون بكلمة، وكأن الرفاق فوجئوا بسؤوك صاحبهم الذي لم يشهدوا له مثيلاً من قبل. وأحسن عبد القادر بخوف من انزلاق إلى حديث عن الثوار، فكان كأس الشاي الذي لم يمسه ليوقف مغادراً تودعه أنظار الرفاق الذين ما عانوا يفهمون شيئاً.

- ٨ -

الفصول تتعاقب، واثان منها لم يكن لعبد القادر فيها نصيب من الالتحاق بالثورة سوى مرة واحدة. كان حانقاً ويتسائل عن السبب، وإذا ما قال للأسف ذات يوم يستفسره عن سبب إهماله، والحزن يعتصره، فجاءه جواب محير:

الجماعة توفرك لأيام أخرى، ومن يدري قد تمتد الثورة إلى حلب نفسها. آنذاك سيكون لك دور فيها، بل أفضل الأنوار. رجل مثلك يا عبد القادر يمكن الوثوق به.

وفوجئ الشعب السوري بالنبأ الذي هزهم فلم يكونوا ليصدقوه. لكن الحقيقة كانت في القبض على الزعيم. من كان يتصور وقوع ابراهيم هنانو في الأسر؟ وهكذا قدم البطل إلى المحكمة العسكرية

- ٩١ -

الفرنسية فكانت مدينة حلب ساحة لها، وقد أتيح لأهلها ومنهم عبد القادر فرصة تكحيل أعينهم برؤية الزعيم ولو كان وراء القضبان. وقف قائد الثورة شامخاً وهو يردّ التهم عنه، بل إنه جعل يتهم الفرنسيين فلا يأبه لأحكام من احتلوا بلاده. كان أفضل المحامين يترافع عنه، فما كان من سبيل إلا الإفراج عنه.

ولم تكن لعبد القادر فرصة في رؤية هنانو بعد انتصاره على أحكام القضاة ليخرج حراً، وبهذا حمل الحسرة على حرمان عينيه من رؤيته، والفرح بتحرره من قيود السجن. إلا أنه مع الحسرة والفرح بات ينتظر مقاومة الاحتلال من أهل حلب، والتي اقتصرت على قيام التظاهرات التي أشعلها طلاب المدارس وأفراد من فئات المجتمع. كانت نقادي صارخة بخروج الاستعمار، فيتصدى لها الجنود بالرصاص والعصي، وكثيراً ما كانت البنادق تطلق في الهواء لتفرق الجموع لتعود إلى شوارع أخرى وهي تهتف بالغضب. لم يشارك عبد القادر في أي من التظاهر مع الآخرين، محافظاً على الامساك عنه بانتظار اليوم الذي تشتعل الثورة في حلب ليكون واحداً من مقاتليها. ولهذا لم يغامر مرة بالكشف عن علاقته بمجاهدي جبل الزاوية، ومن طرف آخر نجم الرغبة في المشاركة بالتظاهر احتجاجاً على الاحتلال.

وذات يوم خرج كعادته من الدار ليقتصد مقرّ عمله في الخان. ولأول من ساعة في الانهماك باستلام البضائع، دخل الساحة صبي

من جيران البيت وهو يبحث عن عبد القادر. وجده فاستدعاه على عجل ليعود إلى الدار فأمه بحاجة إليه. يتابع الصبي راكضاً فإذا ما اقترب من الزقاق زانت خشيته من سوء في بيته. كانت قنماه لا تحملانه وهو يرى جارة تخرج مسرعة من غرفة أمه، فأحس بالخطر، لكنه تماسك وهو يجر خطواته. كانت الأم في فراشها تتلوى من ألم في الصدر، فإذا ما أمسك بذراعيها مشاهداً العرق الذي تصبب من وجهها، ففلت عائداً إلى الحوش طالباً من الصبي أن يستدعي الطبيب. وبعد زمن قضاه عبد القادر بين فراش أمه وباب الدار، قدم مريض من المستوصف، لكن أمه كانت قد أسلمت الروح.

العجوز هائلة وهي قد توقفت عن معاناة الألم، والابن خاشع لا يعرف البكاء. وفجأة انفجرت الدموع في عينيه وهو يستحلفها بالله أن ترد عليه بكلمة. هزها برفق وهو يناديها، فكانت شاخصة النظرات التي لا يُعرف لها معنى. يصرخ بانساً بندااءً عُصَّ به حلقه وبعد زمن لم يكن له حساب عنده، أمسك الممرض به يرفعه عن العجوز الراحلة، وهو يقول:

‘البقاء لله وحده، ولا حول ولا قوة إلا بالله، كنا لها يا أخ عبد القادر.’

وأكمل بقوله إن إكرام الميت يكون في دفنه، فلندفع الابن إلى الحوش ليكمل نحيبه وهو يردد:

‘أيمكن لأمك أن تغادر دارها وتترك حبيبها؟’

ولحق به الممرض وهو يقول:

'الناس تموت يا أخ. رسولنا الكريم مات، ومن قبله خلت الرسل'.  
آنذاك جعل عبد القادر يدور في الحوش، وهو يقول كطفل  
مستسلم.

'أسلمت أمري إلى الله، ولتكن جنة الخلد مثواك يا أمي'.

تصدّر الحاج موكب المشيعين إلى المقبرة القريبة من الحي، وقد  
مشى رجال من الحي مع عمال الخان حاملين النعش، ليتبادلوا رفعه  
على الأكتاف. وكان صاحب الخان يمسك بذراع عبد القادر وهو  
يدبّ بعصاه فلا ينفك عن الترحم على الأم التي أنجبت رجلاً هو من  
أقرب الناس إلى قلبه. ومساءً كان العزاء في الدار ينصت فيه  
الحضور إلى تلاوة من القرآن قرأه شيخان ضريران بالتناوب وقد  
استدعاهما الحاج لحلاوة صوتهما، بينما دار بالقهوة المرة على  
الخاشعين شاب من عمال الخان.

إذا يعني أن تبقى وحيداً؟ وكان عبد القادر لا يتصور أن لا تكون  
أمه في الدار. وبالرغم من أن شقيقتيه مع الزوجين أقاموا ليئلتين  
يواسونه في وحشته، إلا أنهم غادروا بعد ذلك ليواجه وحشته. وكان  
قد قضى ليله حتى الصباح جالساً تحت أغصان شجرة النارج التي  
كانت أمه قد زرعتها في أيام زواجها الأولى، فمضت الساعات  
يستذكر طرائف أمه في الإلحاح على زواجه، ولا يلبث أن يبتسم في  
لحظات الحزن التي كانت تتأوبه.

وما هي أيام علي وفاة أمه، حتى حضر الأستاذ في الصباح الباكر، والذي لم يدخل الدار إلا في ليلة العزاء. وفوجئ عبد القادر به دافع العينين وهو يختق بالكلمات:

‘الزعيم مات. مات إبراهيم هنانو يا صاحبي.’

وقد عانى عبد القادر فهم ما قيل له، وطلب من الأستاذ الذي توقف عند المدخل ليعيد على مسامحة ما جاء به، فما كان من الرجل المفجوع إلا الاستناد إلى الحائط وهو يقول:

‘ضاع منا. إبراهيم هنانو مات. أقول لك يا رجل انه مات.’

وكان الزمن توقف، فجمدت خلجات عبد القادر. جسد ساكن يبحث عن روح. وكان بلاط الحوش يمد تحت قدميه كرمال متحركة. وصرخ فجأة كوحش جريح:

يا ضياع البلد برحمتك يا أحب الناس.’

وكانما عبد القادر الذي بات له فقيدان في أسبوع، أحس بأن عمره قد ضاع منه. وإذا ما مرت الدقائق عليه أدرك أن الحزن مزق صدره لغياب الزعيم.

خرجت حلب في جنازة إبراهيم هنانو. مشيت الجماهير وراء النعش المحمول على عربة مدفع، فكانت تشق الطريق ببطء ولكن بالمهابة اللاتقة، وإذا ما كانت تمر في الشوارع قابلها الناس المجتمعون على الأرصفة وشرفات المنازل بالولاول المخلطة

بالزغاريد تطلقها نسوة محجبات وسافرات. النهار كان مجتلاً بالسواد والشمس مكتمرة، وكأن وجوه الناس قد رشت برماد من الغيب. ومشى عبدالقادر منكمس الرأس لا يستطيع أن يتخلص من غلالة الدمع التي حجبت عينيه عن الرؤية، فمشى على إيقاع أقدام الآخرين. وامتألت المقبرة بالنلس والتي لم يكن فيها سوى القبر المعد لهنادو، لينعاقب سياسيون وزعماء أحزاب على كلماتهم لتفتت قلب المشيعين. فُتحت بيوت وجوامع وعدد من الساحات لتقبل العزاء، وكثيراً ما كان عبد القادر يصادف أحداً إذا ما عزاه بوفاة أمه، فانه يقول:

'وفاة إبراهيم هناو تجب ما قبلها من وفيات.'

وفي اليوم الثالث، أعدت المقاعد في الخان لاستقبال المعزين. وما أن غادر الجميع حتى استدعاه الحاج إلى غرفته، وكان الليل قد ذهب مقرباً من منتصفه، قال:

'عزيزان، أمك والزعيم، قد رحلا إلى دار البقاء، وبقي لك الحاج' غمرته عاطفة صاحب الخان، إلا انه توقف طويلاً عند توقف الحاج لبيداً حديثاً آخر، قال:

'لا بد لك من زوجة يا عبد القادر. زوجة تأنس لها وتقوم على رعايتك، فالمرحومة رحلت، وهنانو غاب عن الساحة، والزمن لا يرحم. الزواج واجب إلهي ليعمر الكون. الزواج يا ولدي.'

وكان عبد القادر في إصغائه للرجل الذي كان في مقام والده، يتذكر أمه في إصرارها على زواجه، فما عاد يكتم ابتسامة في داخله ما لبثت أن تسللت إلى وجهه.

وبدأ الحاج من جديد حديثاً عن ابنة أخت له قد ترملت بعد أشهر  
من زواجها، وقال:

الرجال يلهثون في طلب الزواج منها لجمالها وثروتها. دار كبيرة  
وأراض زراعية في الريف تنتج القمح والخضار، ويأتي الزيتون  
منها بدخل كبير.

وكان الحاج يستمتع بنكر تلك المرأة، ومال على عبد القادر  
ليهمس عن بعد:

ابنة أختي يا رجل بحاجة إلى زوج يحفظ مالها ويرعى شبابها.  
وأقول لك يا ولدي إن الخال العجوز لا يستطيع دوماً حمايتها.  
وعاين الحاج أثر كلامه في عبد القادر، ومن ثم عاود الحديث  
بشيء من الرجاء الأمر:

توكل على الله ولا تتردد لحظة في اتخاذ القرار بالموافقة. الرجل  
للمرأة في وحشته، والمرأة للرجل تحبه وتغنيه عن السؤال.  
ببراءة تسأل عبد القادر عن مصير الزوجة إن مات في ساحة  
الجهاد، فما كان من الحاج إلا أن هتف قائلاً:

أديت واجبك يا ولدي، وأكملت دورك على أحسن وجه. وأظن  
أن الأمور لا بد أن تتغير بعد الزعيم هناو. الحال لن يبقى كما هو.  
وخيم صمت تجاوب مع هدوء الليل، ولكنه قيد استجابة عبد  
القادر، وألقى انتظار الحاج لجواب الموافقة. ويبدو أن شبكة السكون  
قد اخترقها الحائر وهو يقول:

عشت سنوات طويلة من عمري تحت مظلتك، ولن تكون  
السنوات القادمة إلا معك وبرعايتك.

وقال عبد القادر أيضاً وهو منكس الرأس كجندي يقف أمام قائده:  
يشرفني أن أقبل بالفخر انتسابي إلى عائلتك.

فما كان من الحاج أن ضرب بعصاه أرض الغرفة الخشبية،  
وَدَمَّتْ بصوت جلي:

على بركة الله يا عبد القادر.

ولم ينتظر عقد القرآن فالزواج أربعين الوالدة، جرت المراسم في  
دار الزوجة مساء الخميس، وقد اجتمع حول الشيخ الخال والعريس  
وشاهدان من عمال الخان، فقرأ الجمع القاتحة، وشربوا عصير  
اللوز، وانطلقت من العلية زغاريد النسوة إيذاناً بدخول عبد القادر  
على عروسه التي لم يسبق له أن قابلها من قبل.

- ٩ -

أمام السرير النحاسي الذي اتسدل قماش (الناموسية) على قضبانه  
الأربعة، وقفت العروس بثوبها الأبيض وخمارها الشفاف وقد نزع  
الألماس في أقراطها، وطوق عنقها عقد من اللؤلؤ. كان شمعدانان  
كبيران قد رسما الظلال على قوامها فهدت كجنية جاءت من أعماق  
الظلام لتتشر النور.

- ٩٨ -

تقدم الزوج بخطوات محسوبة ليقف على مقربة منها، وهتف بصوت بحته الدهشة:

‘أم الخير. أنت حقاً أم الخير.’

فسمعها تهمس بخجل عنب:

‘أبي هو الذي اختار لي هذا الاسم.’

ومشى ببطء كالمأخوذ ليقترب أكثر من عروسه. ولبثت هي جامدة كتمثال، ولكن وهج جسدها تبعث من مرمها، وتقدم منها ليكشف الخمار عن وجهها، تأمله لتدّ عنه آهة تبعها بالهمس:

‘يا سبحان الله، ما أجملك بين نساء الدنيا يا أم الخير.’

وتحشرجت الحروف بين أسنانها لتشتعل وجنتاها بالاحمرار. تأملها كامرأة هبطت عليه من السماء وهو يقول ويردد:

‘يا إلهي يا أم الخير.. أنت نعمة.’

وأطرفت برأسها وهي تتمم بكلمات مرتعشه:

‘وأنت كما قال لي خالي الحاج.’

قاد زوجته من يدها، فتقاسما الأريكة التي امتدت أمامها طاولة اصطفت عليها صحون الفاكهة والمكسرات وأطباق (الكنافة المبرومة) و(البذورية) و(الجوك ملين). لم يمس أحد منهما (آلة العرس) فقد كان الزوجان منشغلين بالسباحة في عيون بعضهما البعض. وأخيراً امتدت كفه لينتشل لوزة قدمها إليها،

فانفجرت شفتاها لتلتقطها بأسنانها. وقامت هي بأخذ حبة فستق  
حلي محمص لتفصل القشرة منها، فقربتها من فمه. وكان أن  
احتفظ بها تحت لسانه وهو يقول:

أريد أن احتفظ بها لمدة أطول.

فكان خجلها الذي بدأ ينوب بتسارع قد دفعها إلى الهمس:

يستطيع ابن عمي أن أعوضه بأفضل منها.

فاقترب عبد القادر منها ليتغلب على خجله في ضم العروس إلى  
صدره، وقال مرتعشاً:

أعتقد أن الله سيجازي من أعدّ آلة العرس هذه.

أم الخير كانت تبسم وهي تنزع القشرة عن موزة، فقربتها من فمه  
فقضم قطعة منها، ومن بعد ذلك دفعها إلى فمها لتعضّ على شيء  
منها دون أن تقطعها.

ابتدأت الألفة تمد جسورها بين الزوجين. تماسكت الأكف وفيما  
يمرر كفه على شعرها قال:

كانت أُمِّي تقاديني أحياناً بقولها (عبد)، وأنت الآن أقرب إليّ  
منها.

وجعل الزوجان يتبادلان تفاعلاً يقضم كل منهما شيئاً منها. كانا  
كطفلين مرحين، إلاّ أنهما دخلا بعد ذلك في رحلة المشاركة بصنع  
حياة واحدة.

في (صبحية) العرس التي لم يكن فيها غيرهما وما من غناء أو تحت شرقي كما كانت عادة الزواج، اجتمع العروسان في الصباح المتأخر حول مائدة في ليوان الحوش، فكانت صدون (المامونية مع القشطة) والجبن المغلي وخبز التور، والتي أرسل بها الحاج ليكون أول إفطار يحيي به الزوجين. وفي ذلك الليوان الكبير الأشبه بمقصورة واسعة في الدار القديمة والتي أصبحت منذ ذلك اليوم بيت عبد القادر الحنبي الجديد.

قالت أم الخير وهي تتود زوجها في رحلة استطلاع لأقسام الدار من غرف و (مربعات) وأهية:

‘أليست الدار واسعة لتستقبل أولادنا‘.

فيهتف عبد القادر بدهشة وهو يمازحها:

‘هل فت على استعداد لإنجاب ستة من الأطفال‘.

فأطرقت خجلاً أشار إلى دلال تهمس في أذنه:

‘هذا يتوقف عليك يا عبده‘.

فاندفع شبقاً يحتضنها بذراعيه لتمانع بدلع، وإذا بباب الدار يطرق. كانا يسمعان دقات ملحّة، فسارعا إلى مدخل الدار، لكن المرأة التي لم يكن قد رآها من قبل سبقت الاثنين لتكون عند الباب. سألتها بعينيه عنها، فقالت أم الخير:

‘الدادا وهي التي اعتنت بي منذ طفولتي، وستكون معنا‘.

القادم كان أم العروس وقربياتها، وقد حضرن للمباركة. زغاريد وقُبَل، والتفت النسوة حول الأم التي احتضنت ابنتها، وانخرطن في الرقص على إيقاع تصفيق الأيدي وأخرجت إحدى النساء من تحت جلبابها الأسود مبخرة رشت عليها (الحرمل) فانتشر الدخان، تُدور المرأة بالمبخرة حول العروسين تحوطهما من عين الحسود، وداعية لهما بإنجاب الأولاد كبنور (البقلة). وقربت الأم عبد القادر منها لتصبح مع أم الخير كتلة واحدة وهي تتادي الحسد ان يبتعد عنهما، وتردد بأنها منحت للنديا أجمل البنات.

وتحلق الجميع حول الحوض بنافورة الماء وسطه، وقد زنرته أصص الورود ونباتات الأوراق الخضرة. قدمت لهم صحون (المهلبية) وحلوى (جوز الهند)، وكانت الدادا تدور عليهم وهي تطائب كل منهم بالصلاة على النبي، فيما مالت الأم على زوج ابنتها لتهمس في اننه:

ترك المرحوم لأم الخير هذه الدار الكبيرة، وإن كان القدر لم يسمح له بالإنجاب، فأنت يا عبد القادر أريدك أن تملأ الدار بالأولاد. الأبناء يطردون أشرار الجن.

وتمتت كناصحة تمثلي بالحكمة:

‘لا تسمحوا للدار أن تكون لغير أولانكم فتملؤها بالضجيج.’

ونادت على حاملة المبخرة فإذا هي الدادا التي شرّبت وجهها بالتجاعيد. قالت الأم:

‘دادا حلوم هي التي شهدت ولادة أم الخير، ستقوم بخدمتكم  
ودعني بأولادكم.’

فعبّرت الدادا بصمتها عن الطاعة، وابتسمت كأُم استعادت أولادها  
بعد غياب.

مرّ يومان على الزوجين غارقين في بحيرة الحب. كان عبد  
القادر ينعم بسعادة لم يعرفها من قبل، ولكن العمل ناداه، فلم يملك  
سوى الاستجابة له. وفي اليوم الثالث خرج من إيسار الدواصل،  
ووافق بمرح على تسمية أم الخير له بالهارب من شهر العسل، فقال  
عبد القادر إن عليه أيضاً أن يردّ الجميل للحاج الذي أدخله جنة  
الزواج. ومضى إلى الخان.

استقبله الحاج بالأحضان، لكنه توقف متأملاً وضعه ليستكره  
بالقول:

‘وتعود يا رجل إلى شروالك القديم، كذلك تنتعل الصرماية نفسها.  
ألسنت يا ولدي في أيام فرحك لتعود إلى ماضيك!’.

فما كان من عبد القادر إلا أن هتف بالقول:

‘يحتاج الرزق إلى العمل يا خال.’

وأكمل بالقول إن العمل في الخان منذ هذه اللحظة سيكون رداً  
للجميل الذي أغرقتني فيه، وإن كان هو الأفضل ما حدث لي في  
حياتي.

وأصبح قريب الحاج بين العاملين له مكانته، وإن كانت قد سبقتها العلاقة الطيبة مع الجميع. وذات يوم استدعاه الحاج مساءً، فأطال النظر إليه صامتاً يختزن الكلام. وإذا قام من مقعده منتاقلاً جعل يقول:

تعبت يا ولدي. الرومايترم لا يرحم والشيخوخة ما عادت تسمح لي بجهد. ليس لي إلا أنت فقد حان الوقت لأستريح. أنت صهري فكن لي بديلاً، وإذا احتجت شيئاً فأنا سأكون لك عوناً.  
وعاد إلى مقعده يطلب جواباً من عبد القادر، فكان له جواب بعد صمت طويل:

هل أستطيع ان أخالف لك أمراً يا حاج!.

- ١٠ -

اقتربت أم الخير في حملها من شهرها التاسع. كانت قد التقت بذرة الجنين منذ أقل من شهر على الزواج، فكان عبد القادر فرحاً لا يصدق أنه سيتحول إلى أب، فتمرّ عليه لحظات في اليوم يكلم نفسه فيها ويقول هل يمكن ان يحدث ذلك، وإذا ما أطل من النافذة على ساحة الخان الهائلة كما كان يفعل أحياناً يراقب العمال، كان يشيد بنفسه على أنها الأسعد في العالم. زوجة جميلة ودار واسعة وطفل سيأتيه بعد فترة، وخال يملك الخان قد ترك له إدارته. يهتف بان الله قد منحه بلا حساب.

- ١٠٤ -

واستعداداً ليوم الولادة جعلت أم الخير تمشي بحملها صباح كل يوم لتدور في حوش الدار، وكان ذلك استجابةً لنصيحة أمها. وفي الأيام الأخيرة تحولت إلى الدوران حول حوض الماء الثماني الأضلاع لأكثر من مرة، فتلحق بها دادا حلوم ترعاها بعينها وهي تتابع خطواتها المتناقلة بحرص أم، تعني لها مهددة بكلام غير مفهوم. وإذا ما توقفت أم الخير لتستريح تقول دادا:

‘حملك ينبيء بطفل ذكر. طفل لا مثيل له.’

وتعلق بأن (البكرية) يصبح وزنها أكبر مع الصبيان، فتهتف أم الخير متوسلة:

‘من فمك لأبواب السماء.’

وتقول وهي تعود إلى المشي البطيء، إن عبده يستحق (خلفة) تليق به، أن يكون له ابن مثله ويحمل اسمه مكملاً لمشوار رجولته. تتوقف أم الخير ذات مرة لتقول:

‘دادا، أيمكن أن تحمل بطني توأمًا؟’

‘يكون الله قد أكرمك يا أم الخير.’

تقول دادا لتعاودا الدوران حول محيط الحوض.

بعد عصر ذلك اليوم الحاسم انطلق من الحارة صبي يركض. الخان مقصده ويريد أن يخبر عبد القادر أن الطلق قد اشتد بزوجه. هبط الخبر على الزوج، كان واقفاً فجلس. وفي ثوانٍ من زمنه دار

الخبر في رأسه ليعلم أن اللحظة قد أزفت، فخرج راكضاً من الخان وخطواته تسابق نفسها، فيما الصبي يلحق به كظله وهو يقول إن جارقتا أم الخير لم تتوقف عن الصراخ وأن (الداية) تساعدها، وكانت الداذا حلوم هي التي طلبت منه أن يستدعي الزوج. وما يزال عبد القادر يستمع إلى أقوال الصبي، لتجعل خطواته أكثر إقداماً على تجاوز قدرتها. خيل له أنه بات طيراً يسابق الهواء.

سمع الصراخ من مدخل الحارة. أم الخير تصرخ وكأنها تؤلول، فافتحم باب الدار الذي وجدته مفتوحاً، وتقدم في الحوش كضائع يعنصره الألم، وهو لا يقدر على تمالك نفسه. وإذا ما بلغه آخر صيحت الزوجة توقف عند أول درجات المربع لتتصلب ساقاه. مرت الثواني من زمن لا هوية له فوجف قلبه الحائر. إلا أن بكاء المولود القادم اخترق أذنيه ليخرجه من مجهول خاف أن يسقط في نوامته. بكاء رش روحه بعطر فدمعت عيناه، وحوّم في فضاء روحه التي استكبت البكاء بما هو أقصى ما يسمى بالفرح.

وضع أنه على خشب الباب مستظناً ما يجري في داخل المربع، فإذا ما خرجت امرأة تحمل لفاة بين يديها، وكنت (الداية)، فإذا بطفل قدمته لعبد القادر بقولها:

مبروك لك. صبي ولدته أم الخير.

إلا أنها لم تترك له فرصة الاستمتاع بالصبي، لتعود من جديد إلى الداخل. دهش لرؤية القادم إلى الحياة وتمنى أن يحمله بين يديه، لكنه

لم يفهم لم حرم من تلك الممتعة، فألقى جالساً أمام الباب. بعد قليل خرجت الدادا لتقدم له الصبي، فهب وانها لاستقبال ابنه، والدادا تقول: 'هذا ابنك يا زين الرجال.'

تلقف عبد القادر الرضيع بذراعيه. هبة من السماء وضعها الله بين يديه، وجعل يردد سورة الرحمن، متأملاً وجهه وكأنه برعم الفل الذي طالما أعتت أمه الراحلة به و بالنباتات التي تتفتح عن الأزهار لتطعمها، فتضعها بين ثيابها المحفوظة في صندوق عرسها القديم. وجعل الأب يرسل في اذن ابنه (الله أكبر.. الله أكبر) ليكمل الأذان، ولكنه ما أن انتهى حتى هتف قائلاً:

'اسميك يا ولدي بإبراهيم. انت منذ اليوم إبراهيم.'

ونادى ليسمع الجميع باسم ابنه، فارتفعت في الفضاء زغاريد النسوة، وقال عبد القادر:

'مات إبراهيم هنا، عاش إبراهيم الحلي، والإبراهيمان سيبقيان.' كانت رقائق الدموع تغشي عينيه فلا يميز فيها الحزن على رحيل قائد الثورة من الفرح بقدم الابن. الدادا تابعتة وهو يميل على اذن ابنه يهتف فيها برفق تكبير الأذان، وسمعتة يعطي الصغير اسمه، فامتنت يداها تسحب الطفل منه وهي تردد:

'برهو يا برهو، وحبينا ابراهيم.'

وقفلت عائدة إلى الداخل لتضع الرضيع في أحضان أمه، فاستقبلتها أم الخير بالقول على ضعفها:

لم أسمع في حيلتي أحداً يرفع الأذان كما فعل أبو إبراهيم.  
وتتني الدادا على قول الأم إنَّ صوته حنون مثله، فلتكن لكما  
فاتحة لأيام تمتلئ داركم بالأولاد.

في الخان، أهل الحي يتقاطرون على تقديم التهناني لعبد القادر  
بقدم إبراهيم هنأوا، فإذا ما علم الكثير منهم بأن ابنه يحمل اسم الزعيم  
إبراهيم هنأوا، رفعوا أيديهم بالندعاء لروحه، وللصغير أن يكون قدوة  
له ما سمي به. ولم تتح الفرصة للحاج أن يبارك لملازمته البيت  
مريضاً، إلا أن عبد القادر هو الذي سعى إليه، وقال إن ولده حمل  
اسم إبراهيم، فمضى الحاج أن يكون مستقبلاً لطفل امتداداً لبطولة  
الزعيم. وأن يحب بذه كما أحبها هنأوا. وأضاف أن يكون صورة  
لأبيه في الإخلاص للعمل والأمانة. وما كان عبد القادر ليحلم بتهنئة  
أكثر منها.

وما زال الحاج يحدث زواره من أقارب وأصدقاء، مديحاً لعبد  
القادر، حتى وصل إلى أم الخير.

كانت تختلس النظر إلى زوجها، في صدوه ونومه، وهي تشكر  
الله على نعمة الاقتران برجل مثله، فأنه قد عوض عليها زواجها  
الأول. إلا أن أفكاراً بدأت تدور في رأسها.

وذات ليلة، والأب يضم الابن إلى صدره مستلقيين على السرير  
النحاسي، فإذا بأم الخير تقترب منهما لتجلس وهي تداعب إبراهيم  
وتقول:

أكرمنا الله بابتنا، وزاد عليه أنك أتمنت على خان الحاج خالي:  
فاستوى عبد القادر في جلسته وهو يتسائل عن العلاقة بين نعمة  
الابن وإدارة الخان لصالح الخال.

فما كان من أم الخير إلا أن انطلقت بالحديث هادئة:  
'ألم تكن أنت ناحجاً في إدارة الخان، وخالي الحاج فوضك لتكون  
الأمير الناهي فيه.'

ونظرت في عيني زوجها لتقول برقة:  
'الخال مريض، شفاه الله إلا أن أحداً من أصهاره لا يمكن أن  
يدير أعمال الخان.'

ولبت عبد القادر ساكناً، إلا أنه تساءل بغتة:

'وما قصدك يا أم الخير من كل ذلك؟'

فأطرقت برأسها لتقول بعد لحظات:

'يمكن لك أن تشتري الخان منه. عندنا من الأموال والذهب ما  
يكفي. هل أنت جاهز.'

وهنت بصوت خفيض إنك من يحق لك أن تملك الخان.'

أخفى الرجل غضبه، كابد المشاعر التي تغلي في داخله، ولكنه  
هب وانهاً يمسك نفسه وقال:

'الخان هو ملك الحاج، وسيبقى له. ما أنا إلا مكلف بإدارته.'

وأقلت منه عتب واجه به زوجته:

'دعي ذهبك ومالك بعيداً عني يا أم الخير.'

وعاد إلى هدوئه، فلم يسبق له أن واجه الزوجة بكلمة تمس مشاعرها. وجلس على طرف السرير ممسكاً بكف أم الخير يشد عليه، قال بهدوء:

'رعائي الحاج منذ شبابي الأول. أكرمني باختيارك لي. هو أكثر من أب، ولا يمكن لأحد أن يمتلك الخان غيره. خالنا الحاج، أعطاه الله العمر، سيد أصحاب الخانات في حنب وفي كل البلاد، ألا تعرفين ذلك يا أم إبراهيم.'

لبحث أم الخير صامته لا تجد لها مدخلاً إلى تعليق، وكانت تعقد في سرها مقارنة باخلاص زوجها للحاج ومحبه لها. وقد تحررت من صمتها بعد ذلك لتقول:

'عبده يأمر فيطاع. يا زين الرجال أعطيتنا حبا لي ولإبنتنا إبراهيم. وما كنت أحلم بغير ما أنت فيه.'

- ١١ -

إبراهيم ينمو. الأشجار تثمر والنباتات تزهر. الطمأنينة تخيم على الدار، والاستسلام للرضا والسعادة شعارها. وفي صباح خرج من عتمة الفجر تنبه عبد القادر، بينما يقوم بالوضوء، إلى طرقات على

- ١١٠ -

لب الدار، فكان الطارق يحمل معه الشؤم. فتح الباب فكان وجه القادم لا يرى بوضوح. سمعه عبد القادر يعلن بصوت ولجف:

استرد الله الأمانة. مات الحاج:

رحل الحاج، فهرع المفجوع إلى الخروج من الدار يقصد دار الفقيد، وقد نسي إعلام زوجته بالفاجعة. هو ينطلق مهرولاً في الطرقات . ثم يستبدل ملابس النوم. كانت دار الحاج بعيدة فما أن يمر برجل من المارة حسبه يلاحق أحداً ليمسك به.

كانت شيخوخة الحاج المنهكة مسجاة على فرشه، ومن حوله الكف حولها عدد من المشايخ الذين فقدوا البصر، يرفعون عقيرتهم بقراءة القرآن كل يقرأ في سورة منه، ليتحول فضاء الغرفة إلى ما يشبه الأريز. واقترب من الميت منحنيّاً عليه فطبع قبلة على الكف والجبين، وهو يهمس:

كنت الأب، وأفضالك علي ستبقى العمر كله.

وتولى عبد القادر كل ما تعلق بأمور التشييع بما يليق بمكانة الحاج في الحي وبين تجار المدينة. وكان في المقبرة على رأس المتلقين للعزاء من أهالي الأحياء وتجار الجملة والمفرق وموردي المحاصيل الزراعية من أرجاء مختلفة في الحقول والبساتين.

وفي اليوم الثالث أقيمت مأدبة كبرى في دار الحاج. وما أن فرغ الأقارب والمعارف والمشايخ من العشاء، حتى طلب أصحاب الحاج

الانفراد بعبد القادر. اجتمعوا في غرفة الضيوف، وما أن شكر للحلبي مسعاه في كل شيء. حتى أعلمه أزواج بنات المرحوم بأن الوقت قد حان لتقاسم زوجاتهم ملكية الخان فيما بينهم، فهو شرع الله. طلب عبد القادر أن يكون اجتماعهم في الخان غداً، فحضرُوا جميعاً، وقد فوجئ بان ممثلي الزوجات الثلاث اتفقوا فيما بينهم على بيع الخان.

كان الخان بغرفه ومستودعاته وساحته، قد ورثها الحاج عن أبيه، فما خطر على البال بان يباع تاريخ طويل، وتساءل عبد القادر في سره لو أن الحاج رزق بابن لما فعل ذلك، فهل خانته بناته.. قال واحد من الأصهار ممثلاً لاتفاق الآخرين:

ألم تكن أنت الأقرب إلى المرحوم، لذا سترتب الأمر مع زبون يشتري الخان.

وكان صمته أسفاً على مصير الخان ونهاية حزينه للحاج. وما أن خرج من التعليق على الطلب حتى قال:

الله يختار ما فيه الخير، ولا حول ولا قوة الا بالله.

وكان المساء يخيم على الدار، فدخله بصمت والوجوم يحل عليه. وانتظرت أم الخير طويلاً قبل أن يحدثها زوجها عن ذلك الاجتماع مع أصهار المرحوم، إلا أنها جلست صامته بقوة إصغائها إلى كل كلمة وحرف ينطق بها عبد القادر. ولم تخف الزوجة ابتسامة

غامضة ارتسمت على شفيتها. وإذا ما أخرج الزوج ما في حبه من كلام، انطلقت تقول بتصميم:

اشتر الخان من الورثة يا أبو ابراهيم.

وكان الكلام قد أفتت من فم عبد القادر، فقال دون تفكير:

ستصبحين مالكة للخان انت. هذا هو الحق يا أم ابراهيم.

فاعلنت عاتبة بقولها إن ما أمك سيكون لك أيضاً. أنت تدير

أعمال الخان بكل همة، فهو من عمل رجل البيت. وهنت قائلة:

لا فرق بيني وبينك، ولننوكل على الله ونشتري الخان.

وأصبح عبد القادر مالكاً، فهل تحول الشاب الفقير إلى واحد من أهم رجال السوق في المدينة. واستمر في مشواره الذي تأسس على علاقات مميزة بالزيتون، كما كان الحال مع عمال الخان. ومازالت في تحسن دائم ثقة المنتجين للمحاصيل والسمن والزيت، فجعل الخان هو الأكبر في استقباله للبضائع وتوريدها إلى تجار المفرق. وبالرغم من أن عبد القادر لم يتجاوز الثلاثين من العمر بسنوات، فقد تحول إلى ما أطلق عليه بأنه شيخ التجار، يلجأ إليه أهل المهنة لحل الخلافات والاستشارة في عقد الصفقات.

ويوم ولدت له عائشة طار فرحاً، فقد أصبح لأم الخير ابنة، ستكون أختاً تساندها في سنوات العمر القادمة. كانت الدادا تهدهد (لعيشة) الرضيعة بين ذراعيها، بينما يمسك ابراهيم بذيل ثوبها

وكانت خطواته الأولى قد ابتدأت منذ أيام، فكان يلاحقها في تجوالها البطيء في أرجاء الحوش. ووقف الوالدان صباحاً عند النافذة بإعجاب أمام ذلك المشهد، ويفخران بما تحقق من حب بينهما وما وصلت إليه الحياة من نجاح.

ذات مرة، تساءلت أم الخير في معرض حديث عن سبب تسمية عبد القادر لابنتهم بعائشة مهملًا اسم أمه، فلبث هو صامتاً ترسم علائم الحيرة على وجهه، بينما يهمس لنفسه:

'لو أنني فعلت لتساءل الجميع عن عدم تسمية الصغيرة باسم جنتها لأمها.'

وقال بقلّة اكتسبها لتوه:

'اخترت اسم عائشة لعلاقته برسولنا الكريم.'

وهنف ضاحكاً بأنه كثيراً ما كان ينادي أمه بـ (يامو)، فهل تتخيلين اسم ابنتنا يامو.

وتتساءل أم الخير بروح المرح:

'هل يمكن لإبراهيم أن ينسى اسم أمه مثلاً؟'

ليقول عبد القادر بشكل حاسم:

'أنت أم الخير. اسمك لا ينسى، فأما الخير له علاقة بالعطاء لأسرتك ولكل الناس. أنت الخير يا أم إبراهيم، ولا يليق بك اسم إلا أم الخير.'

وتوالى الأيام متعاقبة لا تتوقف انعكاساتها على أسرة الحلبي، إلا أن الأنباء جاءت بأخبار الحرب التي قامت في أرجاء واسعة من العالم. وكانت حلب لم تنس من قبل أيام الحرب العالمية الأولى من قبل بأهوالها وأزمة الفقر والجوع فيها، والتي لحق بها الاحتلال الفرنسي للبلاد. كان اسمها الحرب العالمية الثانية التي وقف فيها الألمان في وجه دول كثيرة منها فرنسا، فانتشر في أوساط شعبيه شعور التأييد للزعيم الألماني هتلر نكاية بالاحتلال، واعتقاداً منهم بأنه يدافع عن حقوق المسلمين، لذا فهو لن يتأخر عن طرد فرنسا.

وفي أيام الحرب، شهدت غرفة عبد القادر في الخان تحولها أحياناً إلى ديوان يضم رجالات الأحياء يستمعون إلى إذاعة لندن العربية. وإذا ما أسدلت الستائر على النوافذ، مالت الأجساد للإصغاء إلى صوت (يونس البحري) من إذاعة تبث باللغة العربية من ألمانيا، وكان يدعو إلى تمجيد المعسكر الألماني بزعيمه هتلر الذي تحول عند عدد كبير من الناس إلى بطل أسطوري.

وتحولت شوارع المدينة إلى مظلمة تحرم أعمدة النور فيها من الإضاءة في الليل، كما فرضت على مصابيح المنازل أن تدهن بالنفيلة الزرقاء، فكانت الكأبة مخيمة على أهل حلب. وساد غلاء استشرى بين معظم الناس. لكن دار عبد القادر لم يلحق بها الضيق كما حدث للكثيرين، كما تغلبت الدار على مشكلة النور باستخدام شمعدانات نحاسية وجدت فيها فرصة لنظام الإضاءة الذي ساد قبل سنين كثيرة.

وتساءل عبد القادر، بعد أن مرت سنوات ثلاث على قدوم عائشة، عما يعيق أم الخير عن الحمل بولد ثالث، فالنعمة التي يعيش فيها سترحب بالكثير من الأولاد والدار واسعة. ولم تقطع أم الخير في الشهور الأخيرة عن التفكير في أمر حملها. وأخيراً استعانت بالدادا، فكان أن دارت على الجيران والأقارب لتُكَلِّ على اللجوء إلى شيخ سره قاطع، وكان اسمه (أبو بريس). ذهبت الدادا بأم ابراهيم إلى بيته الذي كان في حي (الفردوس) بالقرب من مقبرة (الصالحين). قرأ الشيخ عليها من تَمائمهِ وتعاويذه داعياً لها بالحمل بإذن الله وأن يزرع في بطنها ولداً جديداً. وإذا انتهى الشيخ كتب حجاب الحمل الذي أمرها بوضعه تحت فراش السرير. ومرت الأسابيع دون نتيجة، فقامت الدادا باصطحاب أم الخير إلى الشيخة (أم الجدائل) التي تكمن في قرية قريبة من المدينة. قامت أم الجدائل بإحراق بخور جاوة بين فخذي الزوجة في الوقت الذي تلت فيه الأدعية التي لم تفهم المرثان منها شيئاً، وحذرت من فضّ الحجاب الذي قدمته إلى أم الخير منذرة بالويل والثبور. قالت الشيخة إن أمامك أشهراً ثلاثة لتلقطين فيها بذرة زوجك. ولم تتحقق النبوءة.

وسيعلم عبد القادر بالمصادفة بتردد زوجه على مشايخ وأطباء شعبيين، فلم يتحدث معها في الأمر، بل لجأ إلى معلم المدرسة. استفسر من الأستاذ محمد عن جدوى الذهاب إلى أهل الأحجية والتمايم. تأمله المعلم طويلاً، وكانا وحيدين في المدرسة، فقال الأستاذ:

أذكرك يا صديقي بأن الدعاء لن يخرج المستعيرين من بلادنا، رجال الثورة لم يعرفوا سوى البنديفة يحاورون فيها الجنود. الأطباء هم الذين يعرفون أسرار الداء والدواء، وأما المشايخ فلا حول لهم ولا قوة. وأقول إنه لا حول ولا قوة إلا بالله لحكايتك هذه. ووقف عبد القادر أمام قول المعلم متبصراً حكيمته. وكان ان اصطحب زوجته إلى طيب.

الشهور تمر، والفصول تتعاقب، وعيادات الأطباء تشهد دخول الزوجين وخروجهما منها. أكثر من طيب فحص أم الخير فلم يجد فيها علة. وفي أيام الأفراح بإعلان الاستقلال ونيل البلاد حريتها، وكان الاحتفال الرسمي بعيد الجلاء توصل طيب شاب قدام مجدداً إلى حلب متخرجاً من جامعة فرنسية، إلى الكنف عن مشكلة في رحم الزوجة، فتكررت التحاليل والأشعة عن ورم فيه، ما لبث أن ترايد نموه ليتحول إلى ورم خبيث اكتمل نموه أخيراً. ذهل الزوجان، وفي أيام أسلمت أم الخير الروح. أغلقت الدموع نافذة الرؤية في عيني عبد القادر، ونسي أمر الراحين من أمه إلى إبراهيم هنانو، فكانت ظلمة الفجيعة قد فوتت عليه أية فرصة في الصراخ.

- ١٢ -

يدخل الفتى إبراهيم الخان، يتقدم بخطوات وثيقة حاملاً ريعانه في الإقدام على شباب مكتمل. يمر في الساحة متوجهاً إلى مقر والده

- ١١٧ -

كعانتة اليومية في عونتة من المدرسة. يلقي التحية على العمال والزبائن ليقابل بالمودة والإعجاب منذ أيام الطفولة. وكثيراً ما كان الرجال يرددون علانية أو في السر بأن إبراهيم هو سر أبيه.

فوجئ الابن بالزوار يملأون الغرفة على غير العادة. يسلم على الحاضرين ويتخذ له كرسيّاً بالقرب من الباب، وكان والده يتابع حديثه معتقاً على الأوضاع السياسية في البلاد. وكان ذات يوم قد سمعه يعلن في الدار في الأيام الأخيرة لمرض أمه والدموع في عينيه:

قسّموا فلسطين يا ويلنا، والمجرمون أعلنوا عن قيام دولة إسرائيل.

فلم يفهم إبراهيم الصبي ما سمعه من والده. إلا أنه في هذا اليوم أصغى إليه يقول:

إذا كانت الانقلابات العسكرية تهدف إلى اعداد تحرير فلسطين فهذا حسن.

فما كان من واحد من الحضور إلا أن تخطى عبد القادر بالقول:  
مرت أسابيع على انقلاب الشيشكلي، ومن قبله الحناوي الذي سبقه انقلاب حسني الزعيم، فأقول يا سادة إن العسكر تردد شعارات تحرير فلسطين في الوقت الذي لم تفعل شيئاً.

وهتف الرجل هامساً برنة خائبة:

ألم يشبع العسكر من القَبْض على دفة الحكم في البلاد؟.

وهبَّ آخر بالوقوف على قدميه لينطلق بالقول:

لئن يسمح لنا استمرار النقاش في هذه الأمور بالتحاق بصلاة المغرب، فالجامع الأموي بعيد.

انفضَّ النقاء، ومن جديد رحب عبد القادر بابنه الذي أعلن بالقول أن طلاب الثانوية انقسموا على أنفسهم، وما زالوا منقسمين منذ ساعة الانقلاب. الأكثرية تستنكر بينما القلة تؤيد. ألا تلاحظ أن البلد قد انقسمت أيضاً؟.

وقال إبراهيم وهو يتخذ له مقعداً أمام والده:

بصراحة يا والدي فأنا مع الأكثرية. البلاد بحاجة إلى نظام منحي. وتأمله عبد القادر، فإذا به يكتشف أن إبراهيم بات يمتلك قراراً لنفسه، وهو يفكر بطريقة يتجاوز فيها عمره. كان الأب يفكر فيما قاله الابن بأن البلاد بحاجة إلى نظام منحي. وامتد به التفكير ليتذكر أن إبراهيم كان يستعير الكتب، فأية منفعة في تلك الكتب في تكوين وعي الابن. وقال عبد القادر لنفسه وهو يتطلع إلى السنوات القادمة: قد يكون إبراهيم أكبر من أن يدير خاناً كهذا.

وبدا وجه إبراهيم. أشبه برجل صنّب تدعمه الأفكار التي كان جازماً فيها. وجعل عبد القادر يطيل التأمل في فنه، فكان ذلك إعجاباً بما وصل إليه.

في الخان وبعد أيام بدأ عبد القادر بالاستعداد لما سيقله بعد تردد في مكائفة أحد. قال:

تعلم يا ولدي أن أمك الغالية بين نساء الكون. وستبقى أم إبراهيم حارسة لنا في غيابها.

واستمر صمته لدقائق، ولكنه ما لبث أن عاد إلى الكلام:

الدادا تقوم على رعايتنا، لكن ما سأقله لك لن يغير من محبتي لأمك ولن يقلل من احترامي لها ولنكرهاها. فأنا أريد أن أعرف رأيك في إقدامي على الزواج.

صمت الأب، ولم تكن هناك أية علائم على وجه إبراهيم الذي ظل هائلاً، ولم تتطرق شفتاه بكلمة. كان الابن متمالكاً لأعصابه كرجل لا تهزه مفاجأة. وبعد حين قال عبد القادر:

الحياة فيها الحلو وفيها المر، وأمك المرحومة لن تمنع بزواجي فقد كانت متزوجة برجل آخر، وقد رحل فكانت لي.

وأحدث قول إبراهيم هزة في نفس عبد القادر:

أنت رجل البيت، والقيادة لك. قرار الزواج يعود إليك وحدك.  
ظل الأب يدرس قسماً الوجه عند إبراهيم، ويتفحص كلماته.  
تبينت له الحقيقة فكان الابن يعلن الحقيقة وهي الموافقة الصادقة.  
انزاح الهم عن صدره.

عائشة التي مهدت لها الدادا بخير الزواج، سمحت محبتها لوالدها بالموافقة، وإن كانت قد نرفت الدمع في فراشها. وفي عصر الخميس

قاد سيارته (الستروين) باتجاه بلدة عفرين شمال حلب. وإذا ما زحف الغروب جعل الطريق يطوى المسافات أمام عبد القادر في اقترابه من هدف الزيارة، وهو الذي قاد السيارة للمرة الأولى خارج المدينة. أطل وجه أم الخير عليه من وراء التلال، وطاف على أشجار الزيتون. جعل يردد لنفسه:

'أم ابراهيم ستبقى الحبيبة التي أكرمتني بأولادها ومالها، ولن تكون إلا الأولى في حياتي.'

وابتدأت الجبال في مروره بوندانها تستدعي ذكريات جبل الزاوية. سمع فراغ السيارة همسه:

'ولو أنني لم أكمل مشواري في ثورة هنانو، فإن البلد قد نال استقلاله أخيراً.'

وصل إلى أطراف بلدة عفرين، وأمام دار الآغا أوقف السيارة. استقبل عبد القادر بحفاوة تليق بالرجل الذي سيصبح صهر عائلة الآغا، وهو من يملك الخان الذي يورّد له الآغا وكبار المزارعين الزيت والزيتون لتتحقق للجميع أمانة وصدق صاحب الخان.

رجال العائلة وعدد من الوجهاء في المنطقة، قرؤوا الفاتحة بأصوات مرتفعة، أعقبها آية من القرآن جوّدها شيخ المسجد. وإذا ما انفضّ الجمع انفرد الآغا بعبد القادر يتفان على مهر ابنته وموعد الزواج، ليوافق الخاطب على كل المطالب محتفظاً لنفسه بأن يقتصر

حفل العرس على أقارب الطرفين في اجتماعهم في حديقة بيت الآغا الممتدة خلف داره. وقد لعبت مهابة عبد القادر دوراً في تردد الآغا من الإقرار بمبدأ هذا النوع من السرية التي اقترحه زوج المستقبل احتراماً لذكري زوجته الأولى، فتمت الموافقة على الطلب شريطة ان يكون العرس لانقاً بمكانة الآغا في الجبل، وبأهمية (جليئة) بين النساء. وقد وافق عبد القادر على رغبة الآغا ما دام العرس سيكون بعيداً عن حلب.

وكان قد حدث قبل تلك الليلة، أن أرسل عبد القادر نسوة من طرفه لاصطحاب الصبية جليئة إلى حمام السوق في حلب. أجمعت النسوة على وصف العروس بالكمال الذي يليق برجل هو عبد القادر وقد وصفت جليئة على إنها خلقت له. وفي اليوم الحاسم شهدت حديقة الآغا التي تحول ليلاً إلى نهار جمعاً غلب عليه أهل العروس وأقاربها وعدد من أغوات الجبل، وكان فيه قلة من جماعة العريس. الأشجار تشاركت بحملها لمصابيح الكهرباء الملونة لتحجب نجوم السماء الصافية. وتوزع الرجال على الكراسي المنتشرة وهم يدخلون الفراجل، بينما تصدرت الفرقة الموسيقية يقودها صوت المغني وهو يصدح بأغان كردية رقص على إيقاعها شباب وكهول. واستمر الراقصون مع الأغاني العربية يتمايلون. وانتشرت النسوة على الاسطحة يزغردن من حين لآخر. وكان عبد القادر مع الآغا في زاوية من الحديقة ينقها وقار السادة، ويهزان برأسيهما في أوقات مختلفة دليلاً على الإعجاب بالفرقة والمغني.

و غلب الأغا ليعود بابنته جليئة التي أطلت بثوبها المبرقع يضيء  
بياضه بمشاركة وجهها الذي غطته ألوان تشع بكحل العينين  
واحمرار الخدين وشفاه توهج منها نون الكرز. وهبّ الجميع يقفون  
إعجاباً واحتراماً، فكان الأب يسلم الأمانة للرجل الذي بات فعلياً  
صهر العائلة.

استمر حفل الحديقة بعد غياب العروسين. وكانت جليئة بخمارها  
الشفاف تتقدم عبد القادر الذي أسرع إلى فتح سيارته، فأصبحت منذ  
تلك اللحظة أول خلوة لهما. وتحركت بهما السيارة يرافقيها عدد من  
الشاحنات الصغيرة والتراكتورات، وما أن وصل الموكب أول البلدة  
حتى ترك للعروسين انطلاقهما وحينين في الطريق إلى حلب.

دام الصمت فترة من الزمن. جليئة التي رفعت الخمار عن وجهها  
دفعت بعد القادر إلى اختلاس النظر من طرف عينيه فيقول لنفسه  
إن جمالها يفوق الوصف. ويتابع مراقباً الطريق المظلم، فكانت  
الأشجار كالاشباح المغلقة على نفسها، بينما جليئة كانت مضيئة. قال  
الزوج متجاوزاً الصمت:

ستحبين الدار. هي واسعة وترحب بك.

بعد قليل، وفي ظهور أنوار المصانع التي تبشر بالاقتراب من  
المدينة:

ستلقين الترحيب من ودي إبراهيم وعيشة.

ثم يعرف الحي سيارة يمتلكها أحد غير عبد القادر. وفي ليلة العرس قدمت السيارة إلى الساحة في وقت متأخر. وتقدم عبد القادر مع عروسه ليدخلا الزقاق. فتح باب الدار ففوجئ بالدادا صاحبة وهي تجلس على حافة الحوض، والدار بأوارها قد استعدت لاستقبال العروسين. هبت المرأة واقفة ترحب بالقادمين وتقول:

'خفت أن تطبأ خدمة مني فانتظرت.'

وقال عبد القادر مقدماً الدادا لعروسه:

'الدادا حلوم هي كالأم للأولاد، وهي من يرعانا.'

وكانت الدادا بخبرة عمرها الطويلة تتأمل العروس في محاولة لمقارنة بينها وبين أم الخير، لتنتهي بنظرتها الثاقبة إلى أنها وجدت ما كعروس للرجل الذي تعامل معها كواحدة من أسرته. وأخفت في سرها ابتهاجاً تدعو الله فيه أن تكون هذه المرأة كأم إبراهيم التي كانت كابنه لها. وهي أكثر من صانعة.

كانت الغرفة الأخرى قد أعدت للعروسين، بعد أن أعطيت غرفة أم الخير لعائشة والدادا. وقد دخلها العريسان ليقول عبد القادر في أول خطوة أنت الآن في بيتك واهلاً بك. فما كان من جليئة إلا أن أجابت بسعادة خجولة:

'الدار واسعة والغرفة جميلة. بستان اهلي خارج الدار، وأما بستانكم فداخله.'

واقترب عبد القادر من عروسه ليمسك بذراعها يقودها إلى الأريكة، فيجلسان وهو يقول:

'بساتنا هو حديقتك يا جليئة. ومنذ هذه اللحظة أريدك أن تعرفي أن حياتنا قد ابتدأت منذ اليوم في هذه الدار، وأنا من يحميك ويحبك' فأطرقت برأسها وهي تسمع كلمة الحب لتشعل النار في جسدها، وتدعذغ سمعها، وهي التي لم تسمع بالكلمة إلا في الأغاني. كانت تحلم بها منذ أن كانت في عمر الفتوة وعيون الشباب تلاحقها، إلا أن عبد القادر امتلكها.

أمسك بكفها يلامسها برقة، فوجدت نفسها تطبق عليها بكفها. وكان الصبح قد اقترب فقال الزوج لها أن تذهب إلى الفراش لتسري في أوصالها الرعشة. كانت جليئة في ريعان أنوثتها، وكان عبد القادر لم يعرف امرأة منذ مرض زوجته الأولى، فقارب الاثنان ليلتصقا في كتلة واحدة يضمهما سرير الشوق. وكان عبد القادر قد نسي ضوء الكهرباء ليكشف لقاء الشريكين، إلا أن أشعة الشمس التي أطلت على النائمين باستغراق عميق، كانت أقوى من نور الكهرباء، ومع كل تلك الإضاءة فإنها لم تدفع العروسين إلى الاستيقاظ.

اننتصف النهار وكان يوم جمعة، فخرج الزوجان إلى الحوش يستقبلان رحلة جديده. وكان إبراهيم وعائشة يلاحقان نيكاً هرب من قفصه، فاستجابا نداء والدهما ليتقدما منه جانساً مع الزوجة. وقفا باستعداد ليقدا الاحترام اللائق، فما كان من جليئة إلا أن همت على

عائشة تحضنها، وإذا ما حاولت مع ابراهيم مدّ ذراعه يصافحها وهو يقول:

مرحباً بك يا خالتي.

انتشر الأربعة على المقاعد التي ظللتها أوراق شجرة الليمون. الجميع يبتسم، ولكن الذنطرات الفاحصة بأشكال متباينة أرسلها الواحد تجاه آخر. عبد القادر يدرس انطباع ولديه عن الزوجة القادمة إلى الدار، وجنيلة ترى في ابني زوجها الودّ والوداعة. وكان ابراهيم يحاول ان يستطلع موقف هذه الزوجة من الابنين وأبيهما، أما عائشة فقد حملت نوعاً من العاطفة تجاه خالتها لتجد شيئاً من أمها التي كانت الخير الذي حمله اسمها. وهتف عبد القادر فجأة متسائلاً عن طعام الغداء.

واجتمع الأربعة حول المائدة في ركن ظلته دالية العنب، بينما الداذا تدور من حولهم، فطلب رأس العائلة منها أن تأخذ لها مكاناً بينهم، فكانت هي المرة الأولى التي يدعو الداذا إلى مشاركتهم بالطعام. وقال:

‘أليس هو يوم الترحيب بجنيلة تجتمع فيه العائلة!’. .

وتساعت عائشة وقد بدت أكبر سناً من عمرها:

‘هل سأناديك بخالتي، أم أنك تريدني الاحتفاظ باسمك جنيلة؟’.

فسارعت جنيلة وهي تغمر الفتاة بحنان غامر:

أنا مثل أمك يا حبيبتي، وأتمنى أن تكوني لي أكثر من أخت  
وأكثر من صديقة.

أما إبراهيم فجعل يتمم بصوت يراود أن يسمع:  
كانت أمنا تحبنا، وقد أحببناها. نتمنى ان نعيد الزمن إلى ما كان  
عليه.

فإذا بعبد القادر يهتف قائلاً في توقه عن الطعام:  
'خالتكم جليئة ستحبكم أيضاً. ولن يكون في الدار سوى الحب. كل  
من في عائلتي سيحب كل منا الآخر.'

وتمر الأيام. جليئة وعائشة تشتركان في الصداقة التي ولدت منذ  
الأيام الأولى، ويستمر إبراهيم في لجوئه إلى غرفته يقرأ في كتبه  
ويتابع دراسته. وكان عبد القادر يمضي نهاره في الخان، ليعود مساء  
إلى داره تسبقه زوجته بزینتها. وجدت جليئة ما كانت تحلم به، وقد  
غمرها الزوج بحنان المحبة بما فاق مشاعر الأب. وذات يوم  
اكتشفت جليئة وهي تنخل إلى المطبخ الكبير إنكباب الدادا على إعداد  
الطعام، فإذا هي تبكى بصمت أمام طبق الفخار بينما تعمل على تنقيه  
العدس. فوجئت الدادا بدخولها، فسارعت بمسح الدموع التي اكتشفتها  
جليئة، فبادرت إلى السؤال إن كانت تشكو من ألم، فلجابتها بأن  
البصل هو السبب، إلا أن البصل لم يكن بين يديها، فعادت إلى  
التساؤل إن كان أحد قد تسبب في مضايقتها، آنذاك ترددت الدادا  
بالإجابة قبل أن تقول:

كلكم أحبائي، وأنتم أهلي. ابو إبراهيم والأولاد، وأنت ياست  
جئيلة أيضاً.

وأكملت ألدادا حلوم، والدموع مازالت تلمع في عينيها:  
'اعتبريني فأم الخير كانت لي كابنة. ربيتها صغيرة ورعيتها في  
زواجها. رافقت مرضها وشهدت رحيلها، لذا أنا أبكيها كلما تذكرتها  
وأنا وحيدة.

واقتربت جئيلة منها لتحتضنها، وتهمس في انهما:  
'اعتبريني مثل ابنتك، فأنت البركة التي ترعانا. ألا يمكن أن  
أصبح أيضاً مثل المرحومة!'.  
وكانت حرارة الحاق قد تغلغلت في وجود الدادا، فسالت دموعها

على خديها. شهقت وهي تقول:

ما أطيب قلبك ياست جئيلة.

وسيعلم لاحقاً من الدادا بما جرى في ذلك اليوم، فيدرك عبد القادر  
أنه أحسن اختيار الزوجة ليزداد الإعجاب والمحبة لها. وكان ما  
يحدث من علاقة الصداقة بين عائشة وجئيلة أثرها على ربط الزوجة  
الراحلة بالجديدة، فاستبشر بالمستقبل ليكون كما كان ماضيه.

ونفعت به أحوال استقرار الأسرة فتستمر الطمأنينة فيها، إلى ما  
كان يدور في ذهنه من الأمر الذي خطط له سابقاً. فقام عبد القادر  
بتحويل واحد من مستودعات الخان إلى معمل يعدّ أعلاف

الحيوانات، فازداد عدد عماله، كما أنه استقبل عدداً أكبر من الزبائن يقبلون على إنتاجه. إلا أن ما حدث في توسع الأعمال أن بات رجال أمن من جهات مختلفة يزورون الخان في مراقبة دورية لأحواله. وكان عبد القادر يسخر في سره من تلك الرقابة التي شاركه فيها أصدقاء مقربون له. وكانوا في جلسات الغرفة يتهامون حول حكم الشيشكلي بالقمع السائد، وكذلك للتفريق الذي وسمت به الانتخابات التي حاول نظام الديكتاتور إصااق الديمقراطية بها.

لم تَقف أوضاع البلاد الأمنية في وجه تقدم المشروع، فمعمل الأعلاف بدأ يحقق إرباحاً تعادل أو تزيد عن تسويق المحاصيل والزيوت. وإذا ما اقترب موعد ولادة جنينة هتف الحلبي في سره:

فتحت أبواب الرزق طريقها أمام الأبناء، والفضل لأم الخير ولجنينة وجه الخير.

الدادا حلوم هي أول من استلم مولود جنينة، أخذته من الدية لتحمله بين نراعيها. وبعد حين انتقل الرضيع إلى عائشة التي ضمته إلى صدرها. وإذا ما وصل الخبر إلى عبد القادر خرج من الخان مسرعاً، فإذا ما علم بأن القادم صبي هتف علانية أهلاً بإسماعيل ليكون اسم القادم الجديد.

وسأل إبراهيم في جلسة ضمت جميع أفراد العائلة: لم إسماعيل، فكان رد الوالد عليه:

ألا تعلم يا ولدي أن اسماعيل هو ابن إبراهيم عليه السلام.  
لكن الثلب الذي تجاوز عتبة الفتوة منذ زمن، هتف متعجباً:  
'ولكن إسماعيل هو أخي'.

'وعمر عبد القادر بنظرات الحب ابنه إبراهيم، وتمنى لو أنه  
ضمه إلى صدره، لكنه قال:

'ولكنك من سيرعاه يا ولدي. هو ابني، ولكنك ستمتني في أبوة  
إسماعيل'.

فانقبض قلب إبراهيم، إلا أنه تجاوز همه ليقول:  
'أدامك الله فأنت الأب وأنت لنا دوماً'.

فكانت جيلة تزداد سعادة وهي تشكر الله أنه وضعها في اسرة  
عبد القادر الحلبي.

- ١٤ -

كثيراً ما كان عبد القادر يحمل السعادة في أعماقه وهو يجول في  
أرجاء الخان، من الساحة إلى المستودعات إلى معمل العلف. يحيي  
العاملين ويشد على أيدي البعض منهم. وإذا ما عاد إلى مقره في  
الغرفة، افتتح يومه بالاستماع إلى الراديو بينما يعمل في تنقيح  
الفواتير والدفاتر وفي صباح يوم صيفي توقفت مروحة القش عن

- ١٣٠ -

الحركة أمام وجهه لخبر نقله الراديو إلى سمعه. ضباط مصريون قاموا بالاستيلاء على الحكم. وتوسعت أُننا عبد القادر في متابعتة لتلك الأحداث. وكان أول القادمين إلى الغرفة يحمل نبأ القظاهرة التي سارت في وسط المدينة تأييداً لثورة يوتيو.

بات همّ نه في يومه، فكان يتلبع أحياناً أحوال الثورة المصرية، وتحوّلت جلسات الغرفة إلى أحاديث عن مصر. وأصبح عبد القادر الحلبي منيراً لتلك اللقاءات يؤيد ويحلل، ويعتبر أن عبد الناصر هو القائد الحقيقي للثورة. وقال في سره ذات مرة إن معرفته الأولية التي كان قد حصل عليها منذ سنين طويلة لم تقدم له شيئاً، بينما الإذاعة والجرائد ومجريات الأمور في البلاد فتحت النوافذ على المعرفة. كان يدفع زواره إلى معاملته كصاحب مركز لمعلومات سياسية واقتصادية، بل واجتماعية.

وكثيراً ما تحدث في تلك الرحلة عن تشريد أهل فلسطين وزرع الدولة اليهودية الجديدة في أرضهم، فاختلف حديثه بذكريات جبل الزاوية معرجاً على تاريخ المجاهدين الذين قصدوا فلسطين لمحاربة العصابات الصهيونية قبل فرض الدول العظمى إسرائيل. وهو إذا تجاهل عن قصد نكر الانقلابات العسكرية في سورية، أكد على التبشير بنصر العرب في نطلعهم إلى الوحدة التي ستحرر فلسطين من عدوان إسرائيل، بل إنها ستنتزع الكيان الصهيوني من جذوره.

ويبدو أن زوار الحلبي من أصدقاء وزبائن، قد دفعه التفاهم حوله وإصغاؤهم إليه باتجاه الكتب يقرأ فيها سياسة وأدباً، وكان إذا لم

يشترىها فإنه يستعيرها من ابنه إبراهيم، أو ان الأستاذ يمدده بها إهداء أو إعارته، وكان المعلم قد استقال من المدرسة ليعمل موظفاً في شركة خاصة، بينما ظل مقيماً في الحي، وقد رأى عبد القادر أنه من العار أن يعمل الأستاذ عنده، مع أنه تمنى ذلك.

وسيتابع أخبار مصر التي تحولت عنده إلى عادة يومية، منذ القضاء على الملكية إلى ظهور حقيقة جمال عبد الناصر كزعيم عربي أجمع معظم الناس في الداخل والخارج على حبه. بقي المنياح من آثار الحاج الباقية بصندوقه الخشبي الكبير، إلا أن آذان عبد القادر وإبراهيم والأستاذ ظننت خلال أيام منتصفه بالراديو بانتظار ما أشيع عن إعلان نتائج البكالوريا. وفي ذلك المساء يتصق سمعهم بذلك الصندوق يتطعمون إلى سماع اسم إبراهيم بين الأاجحين، بينما الابن كان وانقأ من ذلك. طلاب دمشق ومن بعدهم حلب، فكانت الأسماء تتوالى بإيقاع رتيب. وإذا ما تقاهى إليهم إعلان اسم إبراهيم عبد القادر الحلبي توقف الزمن. التهيت المشاعر بصراخ صم الآذان عن متابعة النتيجة، وهب الأب إلى احتضان ابنه كما لم يحدث منذ سنوات الطفولة. وصل التهليل إلى العاملين بالخان فتوافدوا مباركين، اضطر عبد القادر للإفراج عن إبراهيم من العناق، وشغل بقلبي التهناني من الجميع. وفوجئ العمال بإعلان الحلبي عن مكافأة ستوزع عليهم إكراماً للنجاح ولعيون الحبيب إبراهيم.

في طريق العودة إلى الدار عقب الإعلان عن النتائج، تشابكت الأيدي، وكان عبد القادر يتساعل عن مستقبل إبراهيم والكلية التي

ينوي الالتحاق بها. الناجح صامت والوالد يقترح عليه ان ينتسب إلى كلية الطب ليكون أول طبيب من أهل الحي، كما أنه لم يسبق لأحد أن يحصل على البكالوريا، فما كان إبراهيم إلا أن خرج عن صمته فيقول إنه ولو حصل على العلامات اللازمة لدخول هذه الكلية فإنه اتخذ قراراً لن يحدد عنه. قال إبراهيم:

أريد أن أكون في سنك الشرطة. سأكون ضابطاً في الشرطة.  
صدمة المفاجأة أوقعت خطوات عبد القادر. نظر إلى إبراهيم الذي توقف احتراماً. الدهشة منعتة من أن يستوعب كلمات الابن محاولاً أن يصل إلى فهم لها. قال في محاولة للتقرب:  
ما بال الطب يا ودي. تذهب إلى جامعة دمشق، تدرس في كلية الطب، وتعود إلينا طبيباً.

وكان إبراهيم الذي أطرق برأسه إلى الأرض بتصميم وهو يقول:  
وما بال الشرطة يا ودي. أليست الشرطة في خدمة الناس؟  
مشى الاثنان من جديد. في طريقه ابتداء عبد القادر يرسم صورة الضابط في مخيلته، فأعجبه المشهد. وعاد إلى التوقف ليخاطب إبراهيم:

كنت منذ فترة تُخيل أنك ستدير الخان من بعدي، ولكن أحلامي رسمت لك مهنة يتطلع إليها الناس باعجاب. لم يسبق لأحد من عائلة الحلبي أن حصل على غير الشهادة الابتدائية، فتوقفت أنت علينا. أنت تستحق أكثر من ضابط شرطة.

فما كان من إبراهيم إلا أن همّ بالمشي ليخلف والده وراءه:  
تكون الشرطة أقل أهمية من المهن الأخرى! .

دخل إلى الدار، وقد فوجئ الاثنان بالزغاريد تملع في فضاء الحوش. اجتمعت النسوة من حولها يباركن النجاح الذي أعلنه الراديو. عائشة عانقت إبراهيم وجليئة وجدت فرصة لتقبيله من خده، وبكت دادا فرحاً. قال عبد القادر والجميع يلتف حول إبراهيم في الليوان:

تصوروا أن ابننا يريد أن يكون ضابط شرطة.

وعقدت الدهشة الألسنة. لكن الدادا تحررت منها لتتهف بأن إبراهيم سيكون زهرة الشرطة، ولحقت بها جليئة فتقول إن والده تمنى أن يكون طبيباً، ولكن عائشة اعلمت عن رغبتها في أن يتلقى إبراهيم العلم في جامعة أوربية، فما كان من عبد القادر إلا أن صرخ بخوف:

‘وهل تريدان يا عيشه أن يضيع أخوك في بلاد الغربية؟’.

آنذاك حسم إبراهيم الموقف وهو ممسك ببرنقالة تتبادلها كفاء:

‘قلت إنني سأكون في سلك الشرطة’.

الأيام القادمة حملت إبراهيم إلى كلية الشرطة. كانت نياقه الجسدية وردونه في امتحان القبول كتابة ومقابلة شفوية قد جعلته من الأوائل. وقد توقف رئيس لجنة المتقدمين عند اجابة إبراهيم عن سؤاله ما الذي دفعه ليصبح رجل شرطة:

أردت لمجتمعنا أن ينعم بالأمن، فأنا يا سيدي لم تكن لي من أمنية سوى توفير الطمأنينة للناس، وأن أبعاد عنهم كل من يسيء. الشرطة دون شك تلعب الدور الأكبر في تحقيق العدالة.

وظهر من حكم اللجنة التي دارت على المدن لاختيار المتكلمين من حملة البكالوريا، أن إبراهيم الحلبي قد نال المركز الأول ليصبح كابتن الدورة التي ستمتد لسنتين.

ومن طرف آخر، شهد سفر إبراهيم إلى مدينة أخرى حيث مكان الكلية، لقاء مؤثراً من الأهل، فأخفى الجميع عنه نموع العيون، كما حبس هو عنهم البكاء، وقال في لحظات الوداع مخاطباً والده:

كنت يوماً الأب الأمثل والرجل الذي بدأ حياته بحب الوطن والنضحية من أجله.

وفوجئ عبد القادر الذي أخفى عن أسرته أخبار اشتراكه في ثورة هنانو، فلم يخطر بباله أن تتسرب إلى واحد من العائلة. قال إبراهيم:

عدد كبير من أهل الحي تناقل أخبار ماضيك في ثورة جبل الزاوية. أنا فخور بك يا والدي.

ضم الحلبي، وهو يتذكر ان اسمه كان أبو حطب، ليصبح ابنه منقسماً بصدوره. كادت الدموع تغلت منه ولكنه تماسك. وكان خروج إبراهيم من الدار منطلقاً إلى المستقبل الذي اختاره.

سألت جليئة زوجها بعد يوم من غياب المسافر.

تم تصطحب إبراهيم إلى محطة القطار:  
وأطرق عبد القادر برأسه متمتماً بصوت مسموع:  
رافقته إلى المحطة رجال من الخان، وخشيت أن أضعف أمامهم  
لحظة الوداع.

أمسكت جليئة بكفيه لتضمهما إلى وجهها، وهمست في أذن  
زوجها:

لن تمضي السنان حتى يعود إبراهيم إلينا ضابطاً نفخر به.

اختق صوت عبد القادر وهو ينطق بقوله:

حملته بين ذراعي. كنت أتصور دوماً أن إبراهيم سيظل طفلي  
الجميل. اليوم لتبتد، وبالرغم من أنه سيعود إلا أنني أحسست  
برجولته، ولن يلبث أن يذهب من جديد.

احتضنت زوجها كما كانت دوماً تضم رضيعها اسماعيل إلى  
صدرها تهدده. استمر الحنان لدقائق، ولكن الرضيع بكى فجأة فهبت  
مسرعة إلى سريريه وهي تبتعد عن عبد القادر.

كان الهاتف قد أدخل إلى الخان، فالأعمال التجارية اقتضت ذلك،  
إلا أن عبد القادر أدخله إلى الدار قبل سفر إبراهيم تحسباً لاتصال  
منه. وهذا ما حدث فقد كان أول رنين للهاتف قد وصل من الابن  
الغائب، والذي لم ينقطع عن الحديث مع الأهل أسبوعياً، كما كان  
حضوره إلى الدار قد تكرر في السنة لمرات قليلة.

الدهشة التي تحولت إلى صدمة، هي ما أصاب عبد القادر الحلبي. وللحكاية تاريخ سابق لحصول تلك الصدمة، فقد جاء إلى الخان ذات يوم من أيام نمو وتطور زراعة القطن، رجل من الزبائن وطئب قرصاً فاستجاب له عبد القادر.. فقد تحول جزء من الخان إلى تخزين القطن الذي ورده الرجل. والحكاية لم تكن لها علاقة بذلك، بل ان الرجل الستيني جاء منذ أيام ليتقدم بطئب جديد، وهو يقول:

فقدت أم الأولاد زوجتي المرحومة، ولكن الشرع يأمرني بالتعويض عنها. رزقني الله أراضى وبيوتاً ومالاً، وأكرمني لأصبح من كبار المزارعين المتطورين، ولا ينقصني سوى زوجة من أصل كريم. وأنت يا شيخ التجار تلك الأصل، فأنت من أتشرف بالقرب منك.

واستمر إصغاء عبد القادر، أو عجبه، بينما الرجل يكمل القون: 'أبنتكم هي التي أتشرف بالتماس موافقتكم على زواجي منها'. فلم يستطع الحلبي أن يمسك نفسه عن الغضب، إلا أنه فعل، وقال كاظماً غيظه:

'عيشة! ولكن ابنتي عائشة مازالت صبية صغيرة تتابع علومها في المدرسة'.

وقال مزارع القطن بلهجة الدواثق:

'أبنتكم المصونة عائشة، صبية بالغة وحن وقت زواجها. اسم الله عليها فقد كانت المرحومة زوجتي السابقة أصغر منها في العمر'.

ابتدأ عبد القادر بكلامه على الطريقة الإيمانية، وهو يحاول أن يرسم ابتساماً مأكرة على وجهه:

يا سيدي ومولاي، أقول ان ابنتي مازالت تلميذة، وتريد أن تكمل تعليمها الجامعي.

فقاطعته الرجل مستكراً طريقته في الحديث:

‘المال جاهز، والمهر كما تريد ليكون لك تسمية المقدم والمؤخر.’  
وتدخل رنين الهاتف لإنقاذ الحلبي من الغضب الذي كاد أن ينفجر عنده. ظل يتحدث طويلاً، وإذا ما شعر الرجل بأن إهانة قد ألحقت به خرج غاضباً كثور هائج. وكانت تلك الحكاية سبباً في عدم دخول شل من القطن لمزارع مهما كان.

- ١٥ -

أيام تمر وشهور تتوالى، وبينما الزمن يمضي لتكون اللحظة حاسمة. عاد إبراهيم بالنجمة على كتفه، فاستقبل في الحي الفخور بابنه والأول بين أهله كضابط تشخص إليه الأبصار فكان حدثاً لم يشهد تاريخ الحي مثله. وكان الوقت عصراً لحظة دخوله فسحة الخان ومن خلفه رجال من أهل الحي ويحيطون به، يهتلون ويكبرون احتفاءً بالضابط إبراهيم، وكأنه زعيم أو عائد من الحج. وسمع عبد القادر من غرفته ما وصله من هرج ليطل على الجموع. وعدد الباب

- ١٣٨ -

تسمرت قدماه، فالمشهد كان مؤثراً. إبراهيم ضابط الشرطة يحمله الرجال وكأنهم يريدون تقديمه إلى والده.

الاثنان غرقا في عناق وقف الجميع له احتراماً لحرارته. عبد القادر يعاين بذلة الضابط ليعود من جديد إلى احتضانه. وأعلن صاحب الخان عن شكره للاحتفاء بابنه العائد بالفخر الذي انعكس على الحي، وأمسك بذراعه ليثقا الجموع وهما يعودان إلى الدار.

دهشت عائشة لرؤية أخيها بزيه الأنيق ونجمتين على كتفيه والشريط يتدلى على ذراعه، لتقول أن الصبايا سيفقدن توازنهن لرؤية الضابط، كما دهش إبراهيم لاكتشاف خالته جليظة في أيامها الأخيرة من الحمل. وهم على أخيه اسماعيل الصغير يحمله بين ذراعيه، فكان يطوف به و يسميه بالعفريت الجميل. وبحث فجأة عن الدادا حلوم، و حين وجدها تقدم منها، فرحبت به كأم، واحتضنها مراعيأ شيخوختها التي ابتدأت تدب في جسدها. ولم يتوقف أفراد الأسرة عن تأمل رجولة إبراهيم التي اكتملت، لتظل العيون متعلقة به.

أيام قليلة ما كادت تمر، حتى ولدت لجليظة ابنة. هفتت عائشة من فرح أن أختاً لها أصبحت حقيقة كان قدومها مع الفجر، فما أن حملها عبد القادر بين ذراعيه حتى شكر الله وليطلق عليها اسم (صفيه) تقدم من زوجه بالامتنان لمنح عائشة أختاً لها، وللأسرة فرداً جديداً، ليكون لعائلة الحلبي امتداد سيتوسع مع مرور الزمن ليملأ الدار.

كانت أيام حكم أديب الشيشكلي قد وُتت. وحصلت عائشة على شهادة البكالوريا، لتكون من أوائل بنات الحي اللواتي وصلن إلى هذا المستوى من التعليم. كانت خطتها في دخول الجامعة بعكس أترابها اللواتي أردن الالتحاق ببيت الزوجية. فبنت عائشة في كلية الطب، فتشكّل عند والدها همّ في سفرها إلى دمشق، فكانت تقول:

أردت لإبراهيم أن يكون طبيباً، وها أنا من سيحقق لك أمنيتك.

رافق عائشة إلى دمشق، وإذا ما اطمأن إلى مبيتها في دير للراهبات، عاد عبد القادر إلى حلب. ولم يكن هناك من أسبوع لا تتصل به عائشة تخبره عن تفاصيل حياتها في الجامعة أو الدير، وإذا ما تجاوز اتصالاتها الأسبوع، قام بطليبا فتدعّل بانشغالها في الدراسة. وهكذا مضت الأيام.

وفوجئ عبد القادر في ذلك اليوم بمجيء ابن له لم يكمل شهره السابع، فاقترحت الدادا أن يسمى (السيبيعي)، إلا أن عبد القادر استمهل تسجيله في قيد النفوس، باحثاً عن اسم للطفل. واهتدى إلى إطلاق اسم الزعيم الذي أغرم به لقدرته على تحدي الصعوبات من مؤامرات حيكت ضده، فسجل الابن دون تردد ليصبح (جمال).

كان إبراهيم منذ أكثر من سنة، قد عُيّن قائماً في ناحية من ريف حلب، واشتهر في أوساط وزارة الداخلية بالحزم مما أدى إلى وقف اقتال فريقين من العشائر، بل جمعهما على وفاق لتزول الأحقاد، فكانت المائدة تضم الأفراد المتخاصمين على أرض

وميراث. كانت إدارته لتلك الناحية مضرب مثل عدد الحكومة، فتارت غيرة عدد من القائمقامين من ذلك الضابط إبراهيم، بل انها امتنت لتشمل بعضاً من المحافظين. وبالرغم من محاولات الغيرة المثارة ضد الشاب المميز، فقد منح أكثر من ثناء على جهده، فكانت له الفرصة في لقاء وزير الداخلية لأكثر من مرة.

وقد وجد إبراهيم في السكن وحيداً فرصة، لينسب إلى كلية الحقوق التي لم تكن بحاجة إلى متابعة الحضور فيها. وبالرغم من انها في دمشق فقد أحضر مناهجها ليشغل وقته خارج العمل الحكومي. كان يتردد على دار أهله في حلب مرتين في الشهر، يلعب إخوته الصغار. وعن عائشة قال مرة لوالده:

أعلم واتقاً بتميزك عن بقية الرجال. أنت أفسحت المجال لطموح عيشة في ان تدرس لتكون طيبة وفي دمشق، فهذا أمر يفوق التصور. لذا فأنا أحمل لك كل الاحترام على انفتاحك.

كانت عائشة قد ابتدأت دراسة الطب بعد سنتها الأولى من تلقيها لمرحلة (ب.س.ب)، وقد شاركتها الغرفة في دير الراهبات (بدور) طالبة في كلية العلوم قدمت من الساحل، ذكية مرحة، فكانت منذ الأيام الأولى تسأل عائشة ان كان لها حبيب يقيم في دمشق أو تراسله في حلب، فردت بالإيجاب، فوالدها هو الحبيب الأول وأخوها إبراهيم الثاني، والصغيران إسماعيل وجمال هما أحب الأولاد. وكانت بدور تصغي، وفي اللحظة التي توقفت عائشة عن الكلام، ابتدأت هي:

أسألك إن كان لك حبيب تتقابلان أو تتراسلان. رجل يا زميلتي  
تضمينه إلى صدرك، يحبك ويداعب شعرك، يمس في اذنك بالشعر  
أو التغزل بمفاتن جسديك.

عائشة تسمع إلا أنها لم تستطع أن تقدر أبعاد الحديث، أو ما يمكن  
أن ينشأ من علاقة بين رجل وامرأة. ولكن ناراً كانت أن تحدث  
حريقاً مبهماً في جسدها، فتماكنت مشاعرها في قولها:  
'هذا يكفي يا بدور. أقول لك إن أحداً لا يمكن لي حبه إلا أبي  
وأخوتي.'

وأقنت بدور بالضحك. قالت بعد قليل وهي تطل على الشارع من  
نافذة الغرفة:

رجال. نساء. عجائز وشباب. أيمن لأحد ألا يحب!.

وقالت مستلقية على الفراش تحديق في السقف:

'مسكينة المرأة تعيش في هذا العصر من غير حبيب.'

وكانت عائشة تجلس إلى مكتبها تقرأ في كتاب جامعي، فلم تعر  
أي اهتمام لقول الشريكة. ويبدو أن بدور قد يئست في أيامها المقبلة  
من الحديث مع الفتاة القادمة من قلب حلب القديمة.

وما جرى لإبراهيم فاجأه. انقل من وظيفة القائمقام إلى مخفر في  
حلب، وذلك بناء على نسيئة من زعيم عشيرة عند الوزير الجديد،  
فلم تشفع له إدارته ولا فضل النزاعات بين عشيرتين. وحدث احتفال

للعاقد إلى داره وهو يحمل نجمة أخرى على كتفه، ولكن عمله في المخفر بات تابعاً لرئيس غيره. إذن فقد عاد الإين إلى أحضان الأهل، وما كان ينقص الدار سوى عائشة.

وولدت لعبد القادر بنت سرعان ما أطلق عليها اسم (زينب)، وكان قدومها إلى الحياة، يسبق بأيام اعلان الوحدة بين سورية ومصر. مجيء زينب غطت عليه أفراح المدينة. الأحياء خرجت برجالها ونسائها وأطفالها في مسيرات تهتف للوحدة. وكان عبد الناصر النجم الغائب عن التظاهرات والاحتفالات، ولم يتخلف عبد القادر الحلبي عنها فقد فتح الخان أمام المهنيين من العمال والواقدين من الأحياء المجاورة. واستمرت الأفراح في الساحة الكبرى للخان على إيقاع الطبول والمزامير.

وإذا ما ألحت الجماهير المحشدة على عبد القادر ان يتلقى خطاباً، وقف قائلاً:

'مات ابراهيم هنادو. أصبح لنا من بعده جمال عبد الناصر. أهنتكم فالوطن بخير.'

وسكت عن الكلام، واما الجميع فكان بانتظار متابعة خطابه. إلا أن الخطيب نزل من على كرسيه الذي اعتلاه، فاهترت الأكف بالتصفيق. قال أحدهم ان الكلام من ذهب، وهتف واحد من عمال الخان ان هنادو وعبد الناصر من أبطال ثورة العرب. واقترب مختار الحارة من عبد القادر ليشد على يده، يخاطبه بصوت سمعه الآخرون:

خير الكلام ما قل ودل. كنت يا شيخ التجار سيد من وصف لنا التاريخ والحاضر.

فوجئ إبراهيم بالقرار. كان وراء مكتبه في المخفر وهو يتسلم كتاب انتقله إلى جهاز أمني. وفي لقاء مع قائد الشرطة قيل له أن أكفأ الضباط هم من يختطف من قوى الأمن. وإذا علم عبد القادر بذلك، أدرك أن ابنه قد دخل مرحلة مهمة من حياته، إلا أنه ستواجهه المتاعب. وقال متمنياً أن ينتهي من دراسة الحقوق ليسلك طريق الإدارة المدينة فهي الأسلم له. وأدار الحديث في منحي آخر ليسأل ابنه:

متى سنفرح بك. الزواج سنة يا إبراهيم.

وإذا ما أجاب إبراهيم بأن ما هو مكتوب علينا سيكون، فارتسمت ابتسامة على وجه عبد القادر متذكراً أمه في إلحاحها على زواجه، إلا أنه لم يشر إلى نكرها. وعجز إبراهيم من فهم ابتسامة والده فلم يسأل عن سرها.

- ١٦ -

الترقية جاءت في وقت مبكر فأصبح إبراهيم نقيباً مع تسلمه لملف أعداء الوحدة، وكعائته في الالتزام تحول منذ أيامه الأولى في الأمن إلى إدارة ذلك الملف بحزم وجدية. بث المخبرين في المقاهي

- ١٤٤ -

والدوائر الرسمية والمدارس. أحكم العيون في الشوارع ودور السينما وملعب كرة القدم كان مجرد الاستباه في كلام يسيء إلى عبد الناصر في المقام الأول، أو إلى نظام الوحدة، يتسبب في اعتقال وفق خطورة التهمة. ويزج بمرتكبيها في أقيية لا تعرف الشمس.

ويوم أعلن عن انتخاب مجالس المدن، برز تنظيم (الاتحاد القومي) بقرار من حكومة الوحدة المركزية ليكون وحيداً بعد إلغاء الأحزاب بشكل كامل. وقد ورد تقرير إلى مكتب ابراهيم يشير إلى عدد من الممتنعين عن الانتساب إلى ذلك التنظيم. وجاء على رأس القائمة اسم عبد القادر الحليبي. ويفاجأ الابن بابيه، والذي عرف عنه إعجابه بعبد الناصر والوحدة بين البلدين.

وقد سبق أن زارت لجنة من أعضاء الاتحاد القومي عبد القادر في الخان، تدعوه للتقدم إلى الانتخابات بعد تسجيله منتسباً إلى التنظيم، ولعلمها بأنه يتمتع بمحبة الناس في أحياء حنب القديمة، وباحتلاله مكانة مرموقة بين التجار وعند أهل الأسواق. ودهشت اللجنة لاعتذار عبد القادر الذي أعلن عن عدم أهليته ليكون ممثلاً لأهل حنب، وهو يقول:

'صحيح أنني أتابع الأخبار وأقرأ الصحف والمجلات، وأنا من الذين هلتوا للوحدة مع مصر، إلا أنني لا أملك الوقت للعمل السياسي، فلدي ما يشغلني من إدارة الأعمال في الخان. وأرجو اعتباري عضواً في الاتحاد، أما الانتخابات فليست أهلاً لها.'

وبالرغم من محاولة أخرى في إقناع عبد القادر الحلبي. إلا أنه ظل ممسكاً بحجته، فما كان من عضو في اللجنة إلا أن تقدم بتقرير نسب فيه إلى الحلبي العداة للوحدة ولعبد الناصر. وكما هو الحال فقد انتهى التقرير إلى يد إبراهيم الذي لبث جامداً وراء مكتبه، وكانت عيناه لا تفارقان كتاب الاتهام. كان يعلم يقيناً بأن والده لم يكن لحظة ضد الوحدة، بل هو أشد المتحمسين لها ولرئاسة عبد الناصر المتطلع إلى بناء الوحدة العربية انطلاقةً من وحدة البلدين.

واستمر البحث والتقصي عن كاتب التقرير والاسباب التي دفعته إلى توجيه التهمة لوالده. اكتشف أن عضو الاتحاد لم يقتصر على توجيه التهمة إلى عبد القادر الحلبي، بل إنه قصد الطعن أيضاً في شخص رجل الأمن إبراهيم. نجاح الأب في أعماله وتفوق الابن في وظيفته، هما السبب في حقد كاتب التقرير.

لم يذكر شيئاً عن ذلك التقرير. أخفاه إبراهيم عن والده، إلا أنه كلف عدداً من رجاله ملاحقة أخبار الرجل الذي كان موظفاً صغيراً في مديرية التموين وبقدرة قادر أصبح مقرراً في واحدة من لجان الاتحاد والقومي. ونبشت ملفات الرجل لتثبت أنه ارتكب ما يكفي من مخالفات وأخطاء استدعت التحقيق بها، إلا أن اختياره في الاتحاد أوقف كل تحقيق. وكان إبراهيم قد ابتدأ أولى خطوته في باب الانتقام لوالده ونفسه، فيقول في سره:

من ضربك على خدك فاضربه حتى يقع أرضاً. الرحمة لا يستحقها الظالمون.

وبات إبراهيم أكثر تدقيقاً في تقارير المخبرين، فهو يحاول ان يتبين صدقها من كذبها ، وسيتبين له أن نسبة منها تدل على الكيد أو الموقف العدائي، أو لتصفية الحسابات الشخصية.

وتساءل إبراهيم أمام رئيس فرع الأمن التابع له:

‘لا يعقل يا سيدي أن ترتفع نسبة الاتهامات الكاذبة بحق الناس. المخبرون فيهم من يلقى ويكذب، والمتطوعون من فئات مختلفة، محامون وقضاة وأساتذة مدارس وغيرهم، البعض منهم يريد إصااق التهم بأخرين.’

فما كان من الرئيس إلا الانتفاض غضباً، ليقاطعه بقوله:

‘أتريد أن يلعب أعداء الوحدة بنيلهم دون أن نقتص منهم. اسمع أيها الضابط إبراهيم إن تهاونك ليس من سياسة الحكم، وأريدك أن تكون أكثر حزمًا مع الخصوم.’

خرج من مكتب الرئيس حاملاً اليأس الذي أدخله إلى قلبه حديثه. واستقر في مكتبه محاولاً أن يستعيد كل أيامه في الأمن، وفي لحظة اتخذ قراره في العودة إلى الشرطة، إلا أنه ما لبث أن طرح على نفسه للسؤال: وكيف يكون الخلاص؟.

لم تمض أيام حتى تلقى إبراهيم قرار سحب ملف أعداء الوحدة منه، وكلف بمتابعة شؤون اللاجئين الفلسطينيين في مخيم (الثيرب) الذي كان أهم تجمع لهم. كان المخيم يضم أوائل الفلسطينيين في قرية

تلتصق بحدود المدينة، وقد تحول إلى بلدة صغيرة ينتمي سكانها إلى فرق خرجت منها أحزاب مختلفة. وعمل معظم اللاجئين في حلب يعودون مساءً إلى المخيم، بينما آخرون كثيرون يديرون ويخدمون في الدكاكين والمقاهي، وكذلك مدرسة الامم المتحدة (الأونروا).

وقرر إبراهيم أن يقوم بزيارة للمخيم، بعد أن قدمت له المعلومات التي تصف أحواله من أوضاع اجتماعية واقتصادية وفكرية. كان بلباسه المنني كعادته، وقد تخفى في شخصية صحفي يحمل الكاميرا، مدعياً أنه يكتب سلسة مقالات عن أوضاع المخيم. قابل الناس في الأزقة وداخل البيوت، وما يمكن تسميته بالمقاهي الشعبية القليلة والمنشرة على أرصفة ضيقة احتلت كراسيها قلة من رجال عجائز.

فجأة خرجت جنازة من شارع ضيق، وقد حمل النعش أربعة من الرجال يلحق بهم عدد قليل من المشيعين، وقد غلبت عليهم نسوة صامئات. تابع إبراهيم الموكب الصغير يقوده شيخ يردد في خطواته بالتكبير يلحقه بطلب قراءة الفاتحة. وإذا ما وصل المشيعون إلى أرض انتشرت فيها القبور متناثرة، توقفوا عند صخرة أعدت للقادم الجديد. ولم يكن إبراهيم قد حضر أية جنازة سوى يوم وداع أمه، فكان الذكريات قد استيقظت بداخله. وكأن انزال الميت في القبر لم يشغله عن مراقبة المرأة الشابة الواقفة عن بعد، فحيل إليه أن الدموع قد جمدت في عيونها أو أنها لم تكن أصلاً، إلا أنها وقفت ذاهلة عن كل ما يجري من حولها، فلم تكن لتعبر اهتماماً بنحيب النسوة وعويلهن، وإذا ابتدأ الشيخ توقن، ليعمل هو على تلاوة سورة البقرة.

المرأة التي اتسحت بالسواد وشمس نيسان قد احتضنتها لتبدو كصبية لا يشبهها أحد بوجهها وقوامها. ودار في سر إبراهيم سؤال ان كانت ابنة للرجل الراحل أم أخته. وظلت الحيرة عذبه وقد عاد من المقبرة ليتخذ له مقعداً في المقهى، فاستمع إلى كهين يتحدثان فالتقط سمعه أحدهما يقول:

‘العجوز المسكين، رحمه الله، لم يهنأ بزواجه من صبية في عمر بناته.’

ويقول الآخر وهو يعدل في جلوسه:

‘المرحوم لم يمهله الحظ لينعم بجمال زوجته فرحل بعد زواجه بأشهر قليلة.’

علم إبراهيم أن حديث الرجلين يدور حول تلك الجنازة. وكان واحد من الرجلين قد رمقه بنظرة فأحصه متوجهاً منه بسؤال:  
‘هل الأخ من المخيم؟ أعتقد أنه من حلب. أهل المخيم لم تتشرف بالمعرفة.’

أجاب إبراهيم، وكأنه يرغب بسماع أكثر عن علاقة تلك المرأة بالمتوفى:

‘محسوبكم صحافي، والمرحوم لا يستحق سوى الرحمة وقراءة الفاتحة على روحه.’

فقال الرجل مرحباً:

أهلاً بالصحافة، ولكن المرحوم يستحق الإشفاق قبل الفاتحة.  
وعلق الآخر بالقول، كمن حمل تأثراً في نفسه:  
أيعقل أيها الأخ أن يستغل العجوز فقر الصبية فيستأثر بها. البنت  
كانت أجمل النساء.  
ويكمل بغضب وهو يضرب الطاولة بقبضته:  
حصل بماله على أجمل نسوة المخيم. المسكينة وقعت بين أيدي  
الرجل غير المناسب.  
أضاف الآخر مشاركاً غضب جليسه:  
باعتها أمها الحيزيون بأبخس الاثمان. وعلى كل حال لا يجوز  
على الميت غير الرحمة.

- ١٧ -

كانت خطة إبراهيم في العودة إلى المخيم هدفها الأول المرأة  
الأرملة التي كان اسمها (ليلي). ومهد لها في إرسال رجاله لاستجلاء  
أحوال الفلسطينيين، ووجد في أحدهم من أفعع الأم بدفع ابنتها ليلي  
إلى العمل في إدارة حصر التبغ والتبناك، وكان مديرها على صلة  
بالأمن. اقتنعت ليلي من أمها فأهمنت فترة (العنة) التي تبقىها في  
عزلة لشهور بعد وفاة الزوج، وهرعت إلى قبول الوظيفة التي  
ستضمن لها دخلاً، وذلك لمعانيتها من أهل زوجها الذين حرموها من  
أي صداق أو ميراث، خوفاً من شراستهم.

- ١٥٠ -

وابدأت ليلى عملها في مقسم هاتف المصنع. كانت قد حصلت على شهادة الكفاءة، بينما العاملات في قسم اعداد السجائر كن من الأميات، وقلة مهن أكتفت القراءة والكتابة. منذ الأيام الأولى حصلت ليلى على وسيلة للانتقال من المخيم إلى المصنع وبالعكس، وكان باص الإدارة يقلها بالرغم من أقامتها البعيدة، ولكن المدير أمر بذلك استجابة لطلب إبراهيم ، ظناً منه أن الفتاة على صلة بالأمن، وهكذا توفرت لها الحماية فلم يقترب أحد منها في سؤال أو مضايقة. وساد بين العمال الذين معظمهم من النساء، احترام تخوفاً من غضب الذي يرهاها.

عائشة كانت في زيارة لأهلها في حلب، جمعها مع إبراهيم لقاء. الأخوان الصديقان تبادلوا الأخبار، فاذا بإبراهيم يكشف لها سره الذي لم يعلنه لأحد:

‘وقع أخوك إبراهيم في الحب.’

‘هذا من حقدك يا إبراهيم.’

وأضافت عائشة بقولها:

‘أتحفظ السر. زميل لي في كلية الطب أظنني بت أميل إليه.’

واستيقظ رجل الأمن في داخل إبراهيم. لبث فترة يتأملها ثم هتف

بالقول:

‘ما مدى ميلك لزميلك هذا؟ أهو يليق بك؟.’

كان إبراهيم يحمل احتراماً كبيراً لأخته. توقف عن سلوك المحقق  
ليسألها برقة:

‘أعلم يا عائشة أنك في خطوتك الأخيرة لتكوني طبيبة، ولا أشك  
في اختيارك.’

ووجدت عائشة فسحة لها في قول أخيها، فجعلت تقول:

‘أحسست بميله لي. هو شاب خجول ولكنه من أفضل الطلاب.  
متف ورفيق، وهو من عائلة طبية من حلب.’

ومالت عائشة على اذن ابراهيم تهمس فيها:

‘وسألتك كرجل في الأمن تسمح لك بالاستفسار عنه وعن عائلته.’  
اثار إعجابه بالأخت التي يراها تقدم على اختيار زوج بعقل  
راجح، بينما هو وقع في الحب دون مكابح لمشاعره. وكان أن سألت  
عائشة فجأة:

‘ما حكيه حبك. لا بد أنها فتاة تليق بك!’.

حملت اجابته تردداً، لكنه ما لبث ان قال:

ستعرفين يا أختي في الوقت المناسب.’

واستطاع إبراهيم أن يجمع في تحريه عن (طالب)، الذي تحدثت  
عائشة عنه، قدراً كافياً من المعلومات هو الابن الوحيد لطبيب جراح  
عرف في المدينة بمهارته وميوله اليسارية، إلا أن الابن لم ينسب  
إلى الحزب الشيوعي كأبيه الذي لم يقترب أحد منه للمهابة التي

حظي بها. كان الشاب منذ أيام المدرسة وحتى فترة الجامعة نموذجاً  
للاخلاق والثقافة، ونال تقدير رفاقه منذ صباه. وفي حديثه الهاتفي مع  
عائشة أتت إبراهيم على زميلها، فكان أن قالت بأن طالب يودّ زيارة  
أهلها فاستمته لمعرفة ما جرى في الاستقصاء عنه. قال إبراهيم ان  
الشاب زميلها سيكون مرحباً به، ولكن علينا موافقة الوالد.

وعن إبراهيم وليلى. قرر هو أن يتقدم منها بخطوة فعالة. ليلى  
التي كانت قد لمحتة من غرفة سنترال الهاتف وهو يقوم بزيارة  
لمدير المؤسسة لأكثر من مرة، وتساءلت في سرها عن ذلك الزائر  
الذي أضمرت له إعجاباً بداخلها دفعها إلى التفكير، إلا أنها لم تجرؤ  
مرة على الاستفسار من أحد عنه.

وفي ذلك اليوم ومع خطوة إبراهيم الفعالة منها، وكانت ليلى  
تستعد لركوب باص الشركة للعودة إلى المخيم، فإذا بسائق سيارة  
إبراهيم يطلب منها مقابلة رئيسه النقيب. فوجئت ليلى بان الرجل  
الذي كان يزور المدير هو الذي دعاها إلى اصطحابها إلى منزلها في  
المخيم، فتعلبت على تردها لتمضي معه. قدم إبراهيم نفسه على أنه  
ضابط مسؤول عن أمن مخيم النيرب، واذا اطمأنت ليلى إليه قالت  
لنفسها إن كانت هناك مشكلة ما لها علاقة بها. وفي الطريق خرج  
إبراهيم عن صمته ليقول:

’اطمئني يا سيدة ليلى فألسائق سيعيدك إلى منزلك بدلاً من باص  
الشركة.’

استمرت ليلى بجانب ابراهيم في سكوتها بينما تراقب الطريق.  
كانت نبرة صوت محنتها قد ساهمت في تهدئتها. واذا ما اقتربت  
السيارة من مدخل المخيم، قالت:

‘أنت تعرف اسمي، إلا أنني لا اعرف شيئاً عنك.’

‘اسمي ابراهيم الحلبي، ولست هنا بصفتي ضابط أمن.’

أجاب ابراهيم بينما أطالت ليلى النظر إليه، وتتساءل ولم أنا؟. قال  
لها:

‘أنا في طريقي إلى المخيم، وأنت ذاهبة إليه.’

عاد الصمت إلى نصب شباكه في صندوق السيارة. الرجل  
والمرأة يراقبان الطريق وهو يطوى بطرفيه العاريين إلا من أشجار  
قليلة وبيوت متفرقة. من جديد كان همس ابراهيم يصل سمع ليلى:

‘رأيتك لأول مرة يوم الدفن.’

استفرت أحاسيس ليلى. وعاد إبراهيم إلى القول:

‘كنت ذاهلة بلا نموع. زوجك الراحل يوارى التراب وكنت بعيدة  
عن المشيعين.’

خرجت اللحظات القديمة على ليلى تأثير غضباً، لكنها تماكنت  
نفسها لتقول:

‘كانت نهاية مرحلة مغتصبة من حياتي، وها هي تنتهي.’

وتحكمت في مشاعرها لتقول وكأنها تتحدث عن امرأة غيرها:  
زواج من عجوز وهي الصغيرة من طرف، وفقر عائته الصبية  
من طرف آخر. وهكذا سقطت المرأة في فخ زواج ظالم، لتشكر الله  
أنه لم يدم إلا لشهور قليلة.

هفتت بعد قليل مطرقة برأسها:

لم أكد أبلغ الثامنة عشر من عمري، حتى وقعت بين برائن ذلك  
الرجل.

وتجاوز السائق حماراً شارداً يقطع الطريق، في الوقت الذي قالت  
ساحرة:

أراد الزوج نهس حياتي، فنجوت.

كانت السيارة قد وصلت إلى مدخل الشارع المؤدي إلى بيت  
ليلي، فطلبت هي من السائق أن يتوقف لينزلها وهي تقول:  
شكراً لك يا سيدي.

اسمي إبراهيم يا ليلي، وأنا أشكر لك شرف مرافقتي.  
وقالت ليلي مودعة:

تمنيت لودعونك إلى بيتنا، ولكني أخشى أقاويل أهل المخيم، فأنت  
ضابط أمن.

تمتم إبراهيم بانبي أقدر موقفك. وما لبث أن أشار إلى السائق ان  
يمضي في طريقه. وفيما السيارة تمر على الأرض الخلاء، كانت  
الكلمات تدور في أجواء روحه:

امرأة رائعة. ثم أقبل مثلها في حياتي. هل وقعت في شباكها؟  
يوم آخر نستيقظ المدينة على أصوات الراديو في كل مكان،  
وهي تطلع بأنباء الانفصال. سورية في خندق ومصر في آخر،  
وهكذا كان الانفصال الذي دوى انفجاره في معظم أرجاء البلاد.  
صرخ عبد القادر الحطبي في حوش الدار، ودار كائنه في إرجائه:  
'ضاع الحلم العربي، أويل لنا.'

خرج إبراهيم من غرفته مذعوراً، وكان الصراخ هو الذي  
استدعاه. شاهد والده للمرة الأولى باكياً وهو يندب:

'ضربوا الوحدة. هدموا البناء الذي كنا نحلم به.'

وكان جهاز الراديو الموجود في الليوان يعيد من جديد بيان  
الانفصال، فالتصقت به اذن إبراهيم بعد قليل اقترب عبد القادر من  
ابنه يتخذ له مقعداً. ولم تمض لحظات حتى قدمت جليئة لتستمع إلى  
الأخبار، ومن بعدها جاءت الدادا بصينية القهوة لتضعها أمامهم وهي  
تتساءل عن الحكاية التي لم تفهم منها شيئاً.

خيم الذهول على أهل الدار. وما عادت الموسيقى العسكرية بين  
فواصل الأخبار تسمع. جلس إبراهيم يواجه عبد القادر بنظرات  
يأس، وكانت الكلمات تعجز عن خروجها من فم الاثنين، بينما جليئة  
بدت حائرة ولم تخدش الصمت الذي غرقا فيه. كان الصباح كثيباً.

كان حصول إبراهيم على رتبة نقيب قد حدث منذ شهر، قبل ذلك اللقاء الأول مع ليلى، ولكن أسبوعاً واحداً مرّ على اعلان الانفصال، ليوقف عن العمل. استدعته المخابرات العسكرية فخرج من مكتبه ليصبح نزيل القبو عندها، محفوفاً برجال سة. عرف أنه بئ قيد الاعتقال.

لم تكن الزنزانة لتستوعب هذا العدد الكبير من الموقوفين. رجال استبدوا بظهورهم إلى الحائط وآخرون وقفوا على أرجلهم فانضم إليهم إبراهيم. وتباهى عدد من الحضور بالإعلان عن أنهم ضد الانفصال، بينما الآخرون صمتوا، واستمر إبراهيم في الوقوف إلى أن مرت الليلة عليه دون أن تصدر عنه إشارة بالذم، بينما تعالت الأصوات تعلن عن الجوع. ومع الصباح استدعي إبراهيم بشكل منفرد، ليواجه محققاً ارتست على وجهه خطوط قوة. لم يتكلم الرجل، بل قدّم له ورقة حملت كلماتها صرفاً لإبراهيم من الخدمة في الشرطة والأمن. ولم يملك إبراهيم سوى ابتسامة أثار اهتمام المحقق. سأل إبراهيم ان كانت هذه الورقة تعنى الإبقاء عليه موقوفاً في القبو، لكن الجواب أتاه بالنفي. وسأل ان كان بإمكانه العودة إلى البيت، فقيل له إن إنّه معه. وتساءل إبراهيم وهو يغادر المبنى:

‘الم تكن الحكاية كلها مهزلة، وتثير من بداياتها إلى ما انتهيت إليه، عجيبي.’

ماشياً يقطع شوارع المدينة، وقد قادتته أقدامه ليصل إلى الخان.  
دخل غرفة والده الذي هب واقفاً يتسائل عن سبب غيابه الذي ألقى  
الجميع، فما كان من إبراهيم إلا أن ارتدى على مقعد وهو يقول:  
شهادة كلية الحقوق ستفجع. قلت دوماً إنها مفيدة لأكون محامياً.  
وأدرك عبد القادر نوره أن النظام السياسي الجديد قد استغنى عن  
خدمات ابنه وقام بتسريحه، فلم يعلق بكلمة. وجعل إبراهيم يقول  
لنفسه، فيسمع:

لم أكن لائقاً كرجل أمن، لم أكن أبداً.

كان عبد القادر يفكر في طريقة لطيفة لصفحة الماضي، فوجد نفسه  
مندفعاً إلى القول:

'يليق بك يا ولدي ما هو أفضل. أنت مؤهل لأي عمل يكون بك  
هو الأفضل.'

أعاد إبراهيم استعراض الشريط القديم، وهو يدعو ليلي بواسطة  
سائقه. رآها تخرج من زحمة التشبيح وهي منتصبية القامة تجول  
بنظراتها التائمة في أرجاء المقبرة. وكانت تتقدم منه لتجلس في  
السيارة إلى جانبه. ليلي التي ابتداء حبه لها منذ اللحظات الأولى، بدت  
وكأنها تسمع سره:

ليس لي غيرك يا ليلي، وليس لك أحد سواي.

وفي الدار تلقى عبد القادر من بقاء إبراهيم لا يغادر غرفته. يدخل  
عليه فلا يقرأ أياً من علامات الاستسلام في وجه ابنه. في اليوم

الثالث استأذن إبراهيم أن يستخدم سيارته، فقال عبد القادر وهل أنت بحاجة إلى طلب إذن مني؟.

مصنع التبغ حيث ليلى. وقاد إبراهيم السيارة يسابقها بمشاعره. دخل مكتب المدير ولكنه فوجئ بأخر يحتل مكانه، وإذا ما سأل عن ليلى عاملة الهاتف قيل له إنها طردت لأنها كانت عميلة للمخابرات الناصرية. فما أن خرج من المبنى حتى سمع يحدث نفسه: دفعتم ليلى الثمن الذي لم يكن لها ذنب فيه:

وانطلق بالسيارة إلى المخيم. كان في الطريق إليه تننابه مشاعر الذنب فلا يتغلب عليها إلا بالمحبة التي يحملها لها. ليلى البعيدة عنه فإذا هي تجلس قربه تغمره بكلمات تغمغمها، فيتطلع إليها ليجدها على أجنحة خيال يشعل خياله وجسده وتحملها مبتعدة عنه. كانت أميقه ان تكون ملتصقة به فلا يسمح أن تفارقه. أن يمسك بكفها ويقول لها: أرينك كما لم يحدث لرجل أحب امرأة مثلك:

استند إبراهيم على بيئتها من فتى يحمل سطل ماء، فتوجه إلى اطراف المخيم الذي كان في فضائه مستودع صفيح قديم من البقايا التي خلفتها جيوش الحتفاء في الحرب العالمية الثانية. كان الوحيد الباقي من بين المستودعات التي سكنها أوائل المهاجرين الفلسطينيين، وهو الذي تقيم فيه ليلى مع أمها. تقدم من الباب ونقر عليه بأصابعه. انتظر وعاود المحاولة، بعد قليل أطلت ليلى كما هي تتضح بدهشة سقت الرغبة في أرض ابراهيم. جمد الاثنان وهما يحملقان في وجه

بعضهما البعض وقد بات إبراهيم يخشى إلا تتطرق بكلمة ترحيب،  
ولكنه أخطأ، فقد قالت ليلي:

أهلاً، وإن كنت لا أعرف رتبك فأنا ذك بها.

تساءل إن كنت سأبقى عند الباب، فقالت له تفضل بالدخول،  
ففعل.

لم يتصور من قبل أو الآن أن هذا هو بيت ليلي. كان المكان  
أشبه بصندوق شاحنة متسع يعلوه الصفيح. فسحة اسدلت على  
أجزاء منها ستائر قماشية عن طرفيها، وبقي فيها ما يشبه الأصالة  
انتشرت فيها صناديق من خشب اعنتت للجلوس مع كرسيين  
قديمين. كان إبراهيم يمسح المشهد بعينيه لحظة دعت ليلي إلى  
كرسي للجلوس عليه، وهي تقول:

لن تعثر هنا على أي شيء مما تبحث عنه كضابط أمن المخيم  
هب واقفاً ليجول في الفسحة الضيقة، وكان يحاول أن يقول شيئاً،  
وفي آخر خطواته توقف ليقول:

أرجو أخذ العلم بأنني ما عدت أزور المخيم كضابط أمنه، فقد  
خرجت من الخدمة، صرفت منها.

ومع دهشة ليلي، جعل إبراهيم يقول:

جئت كي أستفسر عن سبب فصلك من العمل.

وعاد إلى كرسيه، بينما قامت بتكاسل لتقف على قدميها، وهي  
تقول ساخرة:

دارت شائعة بين موظفي وعمال المؤسسة بأني أعمل مع  
مخابرات النظام السابق.

ثم يعثق على قولها بكلمة، بل ظنت عيناه تجوسان في المكان.  
وبصوت هامس سمعه إبراهيم قالت:

احتل والدي على المستودع، فجعله مكنأً وأوينا، ثم رحل.  
وقالت ان طفولتها شهدت كيف أن القطار رمانا في محطة اسمها  
بغداد، وابتسمت بسخرية مرة لتنهف:

وصلنا إلى حلب ليلاً. الأب يقود زوجه وطفلين كنت أنا واحدة  
منهما. الهدف كان قرية النيرب. كنت أسمع الرجال يقولون اننا  
سنعود بعد فترة من الاستراحة بعد مسيرة خرجنا فيها من فلسطين.

وبضعف يظلل وجهها الحزن، كانت تكمل:

فقدنا المعيل. وبعد سنوات هرب أخي إلى لبنان وضاعت  
أخباره. كانت أمي تعمل في خدمة البيوت الحلبية. دخلت مدرسة  
الأونروا، ولم أكمل تعليمي لإكراهي على الزواج من العجوز الذي  
كان في عمر جدي.

ولم تجد ليلى مكاناً سوى منشئ الغسيل الذي امتد حبله بين  
عمودين. وقتت عنده لتقول:

هبطت عليّ من السماء فرصة أكسب منها قوت يومي. ولكن  
الشائعة التي هبت عليّ كغبار الصحراء، أطارت الفرصة، وعدت  
إلى الصفر.

انتشرت كلمات ليلي في فضاء المستودع كمثل يطن في أذنيه.  
كان إبراهيم يصغي إلى ليلي، وإذا توقفت صارت لغتها تجول في  
روحه. لخصت حياتها بإيجاز وكأنها تروى نكتة قاتلة عن تاريخ فتاة  
غيرها. وسألته ليلي إن كان يشرب الشاي فمزّ رأسه بالإيجاب.  
توجهت نحو ركن لتزيح القماش عنه فإذا هو المطبخ. وعاد إبراهيم  
إلى تلحص المكان ويحدث نفسه:

تستحق ليلي مكاناً يليق بنكاتها ووضوحها.

كانت رقة ليلي تفجر جمالتها، وكان جمالها يتأكد في قوة  
شخصيتها التي لم يشاهدها في امرأة أخرى.

قالت ليلي وهما يشربان من كأس الشاي، والابتسامة الساخرة  
على وجهها:

أظن أن الرياح ستكذب بي إلى مصنع التبغ فأعود إلى العمل.  
ووجد إبراهيم نفسه يقف على قدميه فيتقدم خطوات من ليلي  
ليقول مصماً:

لا أريد لك أن تعودي. مكانك ليس في المصنع أو سنترال  
الهاتف.

وقالت إنك لا تريد، وإن هذا الأمر كما أعلم لن يتاح لي. فما كان  
من إبراهيم إلا أن تقدم خطوة أخرى وهو يقول إنه لا يليق بك أن  
تعودي، وأضاف:

أطلب منك، بل أتمنى أن توافقي على الزواج مني.  
وأخفت ليلى ابتلاع ريقها، محافظة على هدونها بصعوبة. وما  
كان من إبراهيم إلا أن هتف بقوله:  
أحبيبك منذ اللحظة الأولى، وسأحبك أبداً.  
فارتعشت، ولم تستطع إلا أن تسرقت من بين شفيتها كلمة وأنا  
أيضاً. النقطها المحب، فكان كل شيء قد تجلى في الموافقة.

- ١٩ -

اصطحب عبد القادر ابنه إسماعيل الذي بلغ العاشرة من عمره  
ليؤدي صلاة الجمعة، وكانت المرة الأولى للابن، فهو سيدخل الجامع  
الأموي الكبير، وسيحكي لرفاق المدرسة عنه. وقد وعد الطفل  
بزيارة القلعة، فاستغل التبكير في هذا اليوم ليطلب من والده أن يقوم  
بهذه الزيارة. وكان عبد القادر قد أخفى عن ابنه أنه لم يزر القلعة من  
قبل. وهكذا وجدها فرصة له في إثبات ما خجل منه سابقاً فالقلعة  
كانت تحتزن تاريخ حلب، ومن لم يزرها حُرِم من متعة الماضي.  
وتجمع الزوار حول الدليل السياحي ليقودهم إلى قاعة العرش  
فيقف أمامها عبد القادر وابنه بدهشة المفتون وكذلك فعل  
الآخرون وكان معظمهم من الأجانب. قال الدليل إن الزلزال  
الذي ضرب حلب في القرن الثامن عشر أدى إلى هدم سقف

- ١٦٣ -

القاعة بقبابها. وكان (سيف الدولة) أمير دولة الحمدانيين قد اجتمع في مجلسه العشرات من الشعراء والعلماء كأبي فراس والمتنبي والفارابي وغيرهم. هتف اسماعيل:

‘الأ يمكن للأمير ومجلسه أن تعود بهم الأيام لتشاهدكم في قاعة العرش؟’.

فما كان من الدليل إلا أن دفجر ضاحكاً فيشاركه آخرون، بينما عبد القادر يتساءل في سره:

‘ما الذي يحدث بانقضاء جيل فلا يتكرر مثله، وهل الزمن لا يعيد نفسه؟’.

وكانت هناك جولة في أنحاء القلعة، فلم يتوقف إسماعيل عن سؤال والده عن خرائب، ليحيله إلى الدليل، آنذاك هتف الطفل معاتباً:

‘ألا تتذكر شيئاً من أيامك القديمة في القلعة يا والدي؟’.

فوقف عبد القادر صامتاً عن عجزه عن الجواب، وإذا ما نظر إلى ساعته التي أخرجها من شائه يقول:

‘لا نريد ان نفوتنا صلاة الجمعة يا إسماعيل’.

ودخل الاثنان صحن الجامع الأموي متوجمين إلى (القبليّة). قرأ الفاتحة أمام مقام سيدنا زكريا، وتوجها إلى صفوف المصلين. خطيب الجمعة اعتلى المنبر، وقد لوحظت حماسته بالرغم من أنه شيخ عجوز، وقد جاء في الخطبة مديح بحكومة الانفصال أشاد بها، وكان

في السنة الماضية قد استمع إلى الإمام نفسه يدعو لعبد الناصر فهو خير رئيس للبلاد وهو من نصره الله ووحد العرب. وإذا ما دعي إلى الصلاة انتظم المصلون في صفوف خاشعين.

السلام عليكم ورحمة الله يمينا ويساراً، همس بها الجميع فترددت أصداؤها في فراغ (القبليّة)، وإذا برجل خرج من الصفوف متوجهاً إلى جموع المصلين بإعلان عن حديث بما يتعلق بأحوال البلد التي وصلت إلى العار من حكم جائر وتمزيق لوحدة سورية مع مصر. ودام خطاب الرجل لدقائق اختفى بعدها، ليتبادل الجميع نظرات تساؤل وتأييد أو استغراب. ولحظة خروج الناس شوهد الجنود الذين اقتحموا صحن الجامع يلاحقون المصلين، وكان من وقع في أيديهم يقاد إلى الخارج حيث الشاحنات العسكرية تكون بانتظارهم تيزجوا فيها. وأمسك عبد القادر بيد إسماعيل ليهرعا إلى الاختباء في واحد من المغاسل المنتشرة، فاختبأ في مرحاض طالباً الأب من ابنه الصمت خوف اكتشاف أمرهما. ولبثا في مكانهما طويلاً، وما أن تحركت الشاحنات واختفت أصوات الجنود ووقع أقدامهم، خرجا مسرعين إلى السيارة التي أوقفت بعيداً، فكان حضنها أماناً لهما.

كانت الأسواق مقللة بسبب الجمعة، إلا أن حركة الجنود أثارت الذعر في نفوس المشاة، وما أن انصرفت الشاحنات، حتى عادت خطوات المارة إلى الانتظام. وتساءل إسماعيل في طريق العودة إلى الدار:

لم أفهم شيئاً من أقوال الإمام الخطيب، كما لم أعلم ما الذي يريد  
ذلك الرجل. ولماذا كان الجنود غاضبين؟

وتجاوز عبد القادر أسئلة ابنه، قال:

كان الأفضل لنا يا ولدي في مثل هذه الظروف أن نؤدي صلاة  
الجمعة في مسجد الحي؟

يقتربان من الحي، وتساءل إسماعيل عن حكاية الاختباء في  
المغاسل، فكان عبد القادر يصحح:

اختفينَا عن أعين الجنود في مرحاض، وان كنا نفضله على  
الوقوف بين أيديهم؟

واستفسر إسماعيل عن أهمية الوقوع بين أيدي الجنود، فقال  
الأب:

أولاً نحن نريد العودة إلى الدار وليس في الشاحنة، وثانياً فإن  
سيارتنا أكثر أماناً.

في اليوم التالي أصبحت حكاية الاختباء عن عيون الجنود مثار  
ضحك زوار مجلس عبد القادر الحلبي، إلا أن روايته عن إمام  
الجامع في انقلابه على عهد الوحدة ليصبح مع حكومة الانفصال،  
أثارت استنكار الجميع، وتجراً أحدهم على الحديث عن الضعف  
الأخلاقي لعدد من رجال الدين. وعلق آخر بسخرية أن من يتزوج  
أمي أقول له يا عمي.

عصراً حضر إبراهيم، وكان والده وحيداً يغرق في الحسابات التي تشر دفاتها على طاولة المكتب يدقق فيها، فلبث القادم ينتظر إنجاز عمله. وما أن انتهى عبد القادر من المراجعة حتى رحب من جديد بإبراهيم، والذي كان تردده يخفي ما يضمره فيحار في الإفصاح عنه، مما دفع الوالد إلى التساؤل عن سره ويسأل مستفسراً إن كان يخفي أمراً، وقال عبد القادر:

‘اعتقد أن شيئاً ما تريد أن تقوله لي.’

فهمت إبراهيم بعد مكابدة، ولم تكن قبلاً فيه:

‘قررت أن أتزوج.’

جمد عبد القادر في مقعده، إلا أنه تحرر من موقفه ليقول:

‘وأنا ببارك زواجك يا ولدي.’

وقام من مقعده وكأنه يستدرك ما قاله، فسأل:

‘وهل اخترت؟ أنت تحسن الاختيار دون ريب.’

فكان إبراهيم يقف على قدميه ويقول بنقّة:

‘ليست من الحي، كما أنها ليست من الأحياء القريبة أو البعيدة.’

الدقائق التي مرت عليهما بنت أشبه بزمن متحجر يحاول الوالد والابن تجاوزه، كانا يبدلان جهداً لجعله أكثر مرونة كي تتقضي تلك الدقائق. نجح إبراهيم في مساعاه وهو يقول:

الزوجة هي صبية ذكية. انا اخترت امرأة فلسطينية. أحببتها وهي تستحقني واستحقها.

كان عبد القادر يعرف حقيقة تفكير وشخصية ابنه إبراهيم ، إلا أنه لم يره بمنزلة تلك الصلابة، فكنتم الإعجاب في نفسه فلم يفصح عنه، وانطلق بقوله على بركة الله يا ولدي. وسأل إبراهيم ان كان سيقيم في الدار الكبيرة، أم أنه سيختار واحداً من البيوت التي ورثها مع أخته من والدته ام الخير. آنذاك قال إبراهيم بعد تفكير:

سأقيم معكم إلى أن أنهى فترة التدريب في مكتب للمحاماة، ومن بعد ذلك سيكون لي رأي.

في تلك الليلة حمل عبد القادر إلى جليظة الخبر. إبراهيم قرر الزواج. تعليق جليظة اصطبغ بالفرح الذي دفعها إلى اطلاق زغرودة. وأما عبد القادر فجعل يقول إن إبراهيم لا يشبه أحداً من الرجال ولكنه أقرب الناس إلى من حمل اسمه. كان إبراهيم هنادو واليوم ابراهيم الحنبي. وقال عبد القادر ان ابنه الذي هو من صلبه يصلح ان يكون زعيماً ورجلاً بارزاً في مجتمعه.

وعادت عائشة من دمشق، وقد أنهت دراستها في كلية الطب والتدريب المطلوب في مشافها. استقبلتها العائلة وهنفت بصوت واحد:

أهلاً ومرحباً بعودة الدكتورة عائشة.

وكان ان افقدت عائشة الدادا حلوم وهي تتفحص وجوه  
المستقبلين فلم تكن بينهم. سألت عنها، فقيل إنها طريحة الفراش،  
فهرعت إلى غرفتها تدفعها اللهفة. واستقبلتها الدادا بابتسامة شاحبة  
وهي لا تستطيع رفع رأسها عن المخدة. غمرتها عائشة بالأقبليات،  
تسألت إن كان طبيب قد زارها، فكان عبد القادر يقول بأن أكثر من  
طبيب عانها. الدادا حلوم التي أنهكها العمر، اسلمت الروح بعد يوم  
من عودة الدكتور عائشة.

- ٢٠ -

أقيم مجلس عزاء في ساحة الخان، وقد ظل الرجال في مساء  
يومين متعاقبين يتواردون لتقديم الواجب، وظن عدد منهم أن عبد  
القادر قد فقد أمه لما ظهر عليه من حزن وما استدعاه من قراء  
تتأوب ثلاثة منهم على ترتيل آيات من القرآن الكريم. وفتحت أبواب  
الدار للنسوة، وقادت (الشيخة) فريقاً يقرؤون في (جاء عم) ويتلون  
من سيرة النبي، لينتهي الجمع بتوزيع مسبحة على كل امرأة لقراءة  
(الودودية) فكانت قرعة الكرات الخشبية للمسبحة تتداخل مع  
الكلمات المتلاحقات (يا ودود.. يا ودود..) واختتم العزاء فدعي  
المقربون إلى العشاء في اليوم الثالث، حيث نصبت المائدة الكبرى  
في حوش الدار، وقدم (عش الببل) مع (العيوان)، وكما هو الحال  
قدم للمعزين (الكنافة بنارين).

- ١٦٩ -

كانت الدادا قد دفنت في قبر مجاور لقبر أم الخير، فكانت خطة من عبد القادر لتبقى المريية مع الزوجة متجاورتين كما كانتا منذ عهد طويل. ولم يكن هناك حديث في الأيام التالية سوى وفاء عبد القادر الحلبي للدادا حلوم، فقام احترام للرجل وتقدير عند معظم الناس.

ولم يشأ إبراهيم أن يقيم حفلاً لزواجه من ليلى، احتراماً لذكرى الدادا التي لم تكمل أربعينيتها. اكتفى بعقد قرانه في المحكمة الشرعية بحضور شاهدين كان أحدهما والده، ليعود إلى الدار ظهراً. وكان أول انطباع عن الدار دهشة ليلى التي ألقت النظرة الأولى عليها، بينما شغلت بترحيب جليئة التي غمز لها زوجها بعينه إلا تطلق زغزودة ولهفة عائشة التي أسرّت في أذنها أنها ستكون اختاً لها، فيما كان الأطفال يرددون أهلاً بليلى. ومنذ تلك اللحظات المؤثرة أحست ليلى بأن أفراد عائلة إبراهيم سيصبحون أهلها. وعادت إلى التعلق بذراع زوجها فكانا كجسد واحد. الآن تشعر بأنه رجلها الحقيقي، وان الحياة قد ابتدأت اليوم.

هرعت جليئة إلى المطبخ استعداداً لإعداد مائدة الغداء، فاذا بليلى تسرع إلى مساعدتها، مفتحة بذلك الانخراط في العائلة. واكتملت المائدة فوقف عبد القادر على رأسها ليقول:

‘جاعني إبراهيم ليكون أول القادمين إلى اسرتي. سعادتني كانت كبيرة بقدمه، واليوم صارت سعادتني أكبر بليلى وقد

أصبحت شريكة له وواحدة من العائلة التي أرجو الله أن تملأ  
الدار بالأولاد والمحبة.

أهلاً بك يا بنتنا ليلي:

ولم تسمح العروس للدموع أن تكشف عن تأثرها، فمسحتها من  
عينها، وكانت تتساءل في سرها:

‘أيمكن لأحد أن يكون في الجحيم، وبغضضة عين ينقلب إلى جنة.  
لم أعرف سوى الهجرة والفقر وتجربة الزواج الفاشلة، فإذا بنعمة  
الزوج والأهل تهيئ عليّ من السماء، وهذا ما لم أعرفه من قبل:’  
وطلب إبراهيم منها أن تعلق على الوالد بكلمة. تحاملت على  
نفسها لتكف وتقول وحنجرتها تنصّ بالدموع:

كنت أبحث عن المحبة، مرت الأيام ولكني وجدتها أخيراً.  
بعد أيام، زار إبراهيم والده في الخان. فوجئ عبد القادر به يحدثه  
عن عائشة:

زميل لها طيب سيأتي إليك، وأتوقع أن يحضر بعد قليل. أتمنى  
أن تسمح لي باستقباله معك:’

وكانت عائشة قد طلبت من إبراهيم لقاء زميلها كي يكون القرار  
لرجال العائلة. وقال عبد القادر:

‘أهلاً بزميل الدكتورة عائشة. نحن نرحب به، وأتصور أن  
مشروعاً له علاقة بشراكة في إنشاء مستشفى، أو شيئاً له صلة  
بشيء طبي:’

تخابث إبراهيم بقوله إن للأطباء مشاريعهم، وسنعرف قريباً ما يريد الطبيب الزميل.

استأذن الدكتور طالب بالدخول. عرف بنفسه، فقي الترحيب من صاحب الخان، بينما اكتفى إبراهيم برد التحية. وقال عبد القادر بعد تقديم القهوة للضيف:

‘أعرف القليل عن المشروع الذي تريد إقامته مع الدكتورة عائشة’ وسارع الدكتور طالب إلى القول بأن والده الدكتور أحمد يشرفه ان ينلقي بكم، فما كان من عبد القادر إلا أن هتف قائلاً وكأنما يريد أن يضع نهاية لهذا الحديث:

‘وأنا على استعداد لدعم التمويل شرط اطلاعي على جميع تفاصيل المشروع.’

وإذا بالدكتور طالب أراد ان يوضح الأمر الذي جاء من أجله، فما كان من عبد القادر إلا أن أعلن ترحيبه بوالده، وقال إن أي مشروع يخص ابنته الدكتورة عائشة سينال موافقته.

فلم يملك الدكتور طالب سوى القول:

يا عمي لقد جئت طالباً يد الدكتورة عائشة، ومهدت لحضور والدي كي يصبح الطالب رسمياً. وهذا ماجئت من أجله.

عبد القادر متمسك من مقعده، زحف الجمود على وجهه فلا ترف له عين. بعد حين تبادل النظرات مع إبراهيم ليقرأ في عينيه ما يمكن

ان ينطق لسانه به. تخيل عبد القادر أن سوء تفاهم قد حدث والذنب يقع على إبراهيم. فانطلق عبد القادر قائلاً:

'يسرني يا دكتور طالب أن أستقبل والدك. دارنا ستشرفها الزيارة هب الخاطب من مقعده ليشكر عبد القادر ويطلب الإذن بالمغادرة تدفع به السعادة إلى ساحة الخان. وفجأة سأل الأب ابنه عن الدكتور طالب وأهله، فكان رد ابراهيم:

'إنه يليق بعائشة. الشاب من أسرة كريمة. هي عائشة اختي وابنتك الغالية، ولن تفرط بها إلا لزوج مشرف، وهذا رجل يليق بنا وبعائشة.'

وقال مغادراً الغرفة، وكأنه يتخذ قراراً حاسماً:

'الدكتور طالب زوج مناسب، وأتمنى عليك أن توافق.'

مساءً في أدار الفكي الرجلان. الدكتور أحمد المرزوقي مع ابنه، وعبد القادر الحلبي دون حضور إبراهيم الذي كان رأيه القاطع حاضراً. كانت فترة التعارف قصيرة، أعقبها طلب الزواج. أحسن عبد القادر أن ابنته عائشة ستخرج من دائرة أسرته، لكنه لم يملك سوى الموافقة. قرئت الفاتحة، فكانت كلماتها تخرج من بين شفثيه بطيئة وشاقة. عائشة الصغيرة أصبحت امرأة.

تسأل عبد القادر عن مستقبل ابنته الطبي في ظل علاقتها بخطيبها، فابتسم الدكتور احمد وهو يقول:

وهل يعقل لزوجين طبييين ألا يكونا في عيادة مشتركة! .  
إلا أنه دخل في موضوع الزواج ليسأل عبد القادر عن عدم  
الخوض في قضية المهر، مما دفع الحلبي إلى قول تأثر الدكتور  
أحمد به:

هو موضوع ثانوي ولا خلاف عليه؟ ابنتي لا خوف عليها وابنتك  
لا خوف منه.

وسيدهش الدكتور أحمد لسماع ذلك القول من رجل يملك تجارة،  
وقال لنفسه:

أيعقل لرجل مثله أن يكون في مجتمع تنتمي إليه جموع حلب، ثم  
أيعقل لجماعة من أهل اليسار السياسي أن لا يفكروا مثله؟.

وشهد يوم من فصل الربيع احتفالاً في الدار الكبيرة. أقيم العرس  
فخرجت عائشة مع عريسها من بيت العائلة على إيقاع نموع عبد  
القادر الخفية وقد حفلت بها عيناها، والتي حبسها إلى وقت خلوها مع  
نفسه بعيداً عن الآخرين.

وفي يوم ربيعي آخر في زمن آخر، تناقلت أخبار الراديو الانتهاء  
من عهد الانفصال. كانت شمس آذار قوية كصيف مبكر، فخرجت  
تظاهرات إلى الشوارع مهللة ومستبشرة، ودارت في الساحات  
حلقات الدبكة، ونيلاً حملت أفراد الكشفية المشاعل ودارت بها في أهم  
شوارع المدينة. وكانت غرفة صاحب الخان التي تصدرها عبد

القادر قد شهدت تدفق الوفود عليها، من أصدقاء وأهل الحي يسعون إلى الاستماع إلى آراء الرجل الذي لم يتوقف عن النشأ على الرجال الذين يهفون إلى إعادة الوحدة كما كانت في سابق عهدها.

- ٢١ -

ها هي المعدات قد وصلت إلى مرفأ اللاذقية. وكان عبد القادر قد اتخذ قرار بتطوير معمل العلف، فقام باستيراد أحدث الأجهزة من إيطاليا، إلا أن عماله ابتؤوا يستشعرون الخوف من أن تحل الآلات مكانهم ليستغنى عنهم أو عن معظمهم، فكان عبد القادر أن طمأنهم فلا خوف عليهم ولا يمكن لرجل مثله أن يتخلى عن الذين عملوا معه مهما كانت الأحوال والظروف. ويوم تركيب المعمل الجديد وقد قام بها فيدون رافقوا تلك الأجهزة، دخل الخان مرحلة مختلفة عن الزمن الذي مضى.

هتف عبد القادر وحيداً في غرفة الخان:

إبراهيم أصبح في نهاية المطاف محامياً. علثشة اجتهدت لتكون طبيبة. أما أنت يا عبد القادر الحنبي فأدخلت إلى الحي القديم صناعة جديدة، بل حولت علف الحيوانات إلى ما يشبه طعام الانسان المعذب.

وكان عبد القادر ما يزال يحافظ على لباسه الشعبي التقليدي بالرغم من دخوله عصر الصناعة، وهو متمسك بتجارة المحاصيل

- ١٧٥ -

والمنتجات الزراعية التي بقيت كما كانت عليه منذ مئات السنين. ويوم دعي إلى زيارة قصر المحافظة مع عدد كبير من رجالات الأحياء البارزين من أصحاب المهن المهمين، وذلك للترحيب بأول محافظ في عهد الثامن من آذار، فقد لبى الدعوة داخلاً مع الوفود بلباسه الشعبي، فكان علامة بارزة وهو يظهر بأعلى درجات الاناقة لهذا اللباس، مما دفع الحضور إلى الحديث عنه بإعجاب كبير. كان مظهره يدل على نفاة الأثرياء القادمين من عصور سابقة، وكان عبد القادر الحلبي انسلّ هارباً من زمن قديم. ولقت انتباه المحافظ الجديد ما هو عليه مشهد هذا الرجل، فكان أن خصّه باهتمام يليق بزعيم.

وتابع إبراهيم فترة التدريب في مكتب محام معروف. ولم تكد تمر عليه شهور حتى كلفه الأستاذ بعدد من القضايا في المحاكم، فكان جهده واجتهاده يعينانه على التقدم في النجاح، ويؤهلانه ليكون محامياً مستقلاً.

وأما عائشة فقد افتتحت مع زوجها عيادة في وسط المدينة، بينما كان سكنها في طرف من المدينة الذي أحدث فيه حي هادئ توزعت فيه الحدائق الصغيرة. إلا أن لقاء يوم الجمعة في دار الحلبي والذي بات عادة يجتمع فيه أفراد العائلة، لمضوا مساعدهم في الطعام وتبادل الحوار في شؤونهم، ويعتقون على أحداث المدينة من سياسة واقتصاد، ويتبادلون النواذر. وكان إبراهيم ينقل إليهم طرائف القضاء، أما عائشة وطائب فكانا يتناوبان الحكايات عن الوعي

الصحي الذي يفقده معظم الناس. جليئة تتحدث عن أولادها الذين يتسارع نموهم دون مرور يوم على شغبيهم المحبب. وتجلس ليلى صامتة يتخلل سكوتها الحديث أحياناً عن المأساة الفلسطينية فتشير إلى أسفها بأن العديد من الحكومات العربية لم تتفاعل مع هذه المأساة مهتمة لها وتاركة الزمن لاستفحالها. وكان عبد القادر يستمع إلى الجميع بسعادة فلا يتدخل إلا في حل مشكلة قد تلوح في الجو.

الأيام تدلّ على الزمن، وهكذا تتعاقب الأيام فيستقل إبراهيم بمكتب، فكان المدرب اللامع ليصبح المحامي الذي ترسخ اسمه بين الناس وفي أروقة القضاء. وإذا ما أراد مع زوجته السكن في بيت يخصهم، خضع عبد القادر مكرهاً لقرار ابنه، فكان المنزل في واحد من ممتلكات أمه، ليحوّله مع زوجه ليلى إلى ما يشبه عش المحبين.

كانت عائشة قد رزقت بصبي، ولما كان زواج إبراهيم قد سبقها، فانه شكاً لها عدم ظهور أي حمل على ليلى. هو يرفض اللجوء إلى المشايخ ساخراً من تعاويذهم وأحجبتهم، ولكن كبرياءه منعه من اللجوء إلى طبيب. وهكذا توالى زيارات الأطباء ترافق فيها الدكتوراة عائشة زوجة أخيها، ولم تكن هناك من نتائج مشجعه. وفي زيارة لأستاذ في كلية الطب بدمشق، قيل بعد فحص ليلى أن علي زوجها أن يحضر ليتم اختبار حالته. حضر إبراهيم في اليوم نفسه، وخضع لما أمر به الأستاذ الجامعي من كشوف وتحاليل، فكان أمام حقيقة واحدة. قيل له:

‘لا تستطيع أن تنجب فحيواناتك المنوية لا تملك الحيوية’.

وسافر إبراهيم وحيداً إلى مشفى الجامعة الأميركية في بيروت، فكانت النتائج التي حصل عليها مطابقة لما قيل له في دمشق. فهل حكم عليه بالمؤبد عمماً، وحرمت ليلى من الأمومة؟

وفي اجتماع العائلة الأسبوعي، حملت تلك الجمعة سرّاً أخفاه إبراهيم وعائشة. ففي المساء كان صبي يطرق باب الدار ليفتح له، وقام بتسليم صندوق الكرتون إلى إسماعيل الذي حمّله ليضعه على المائدة في (غرفة المسافرين)، وإذا ما كشفت جليئة غطاء الصندوق، تبين للعائلة أنها كعكة كبيرة رصت عليها شموع صغيرة. تقدّم من الوالد كل من إبراهيم وعائشة وبصوت واحد هتفاً:

‘كلّ عام وأنت على رأس العائلة بكل الخير، يا عبد القادر الحلبي’.

وأشعلت الشموع التي اصطفت في دوائر على وجه الكعكة، أطفالها عبد القادر. وكان عيد ميلاد لم تشهد له الأسرة أو الحي، فكانه بداية لعادة اجتماعية مستوردة. سأل عبد القادر:

‘خمس وستون شمعة، فهل تعني أنني بلغت الخامسة الستين من العمر’.

وسأل ابنه إن كان توقّعت مولده قد عرف حقاً، فرد إبراهيم بالقول:

انتهى منذ سنين كثيرة منتصف القرن العشرين، ولقد تأخرنا كثيراً عن الاحتفال بعيد ميلادك.

قال عبد القادر وهو يخفي تأثره:

قد أكون بلغت هذا العمر كما تريدون، ولكن إدارة النفوس لم تكن تتفق سابقاً كما نفع الآن.

هفت عائشة وهي تساعد والدها بتقطيع الكعكة:

شيخ الشباب أنت مهما بلغت من عمر.

وامتلأت صحون الصغار والكبار بقطع الكاتو التي أدهشهم طعمها. وكان يدور كلام في نفس الأب:

لقد نعمة المحبة على هذه العائلة.

ومنذ أيام زيارة الأطباء مع عائشة، مرت أسابيع تطويها الأيام نون أن تسأل ليلى عن طبيب، فلقد تركت الزوجة أمر حملها للأقدار، بينما إبراهيم الذي علم بعقمه فإنه لن يبوح بسرّه، فهو يحس بالذنب ويشعر بالأسى لعجزه عن منح ليلى سرّ الحياة، إلا أنه لم ينقطع لحظة عن حبها، ويغمرها به. وساءلت ليلى إن كان إبراهيم ما عاد ليهتم بالإجاب وأنه استسلم للقدر.

طلبت جليئة من زوجها أن تزور والدها الذي بلغها مرضه. ثم يرافقها عبد القادر لانشغاله، وأعدّ لها سيارة أجرة يرافقها فيها عامل من الخان، ليكون بانتظارها في عفرين ويعود بها مساء. تمتت جليئة

أن يرافقها الأولاد لزيارة جدهم، لكنها لم تجرؤ على حرمانهم من المدرسة. كان زوجها يحرص على ألا يغيب أحد من أولاده عن المدرسة، وهو الذي طالما قال إن حرمانه من استكمال تعليمه كان له أثر بالغ في حياته، لذا لن يسمح لأولاده بالتوقيع في التجربة. ومضت السيارة بجيلة مع مرافقها الذي صرخ فجأة منبهاً لخروج شاحنة من المنعطف وهي تحمل الحجارة، فما كان من السائقين إلا القيام بكبح سرعتيهما، ولكن الاصطدام كان لا بد منه. وسُجّلت الواقعة في قيود مخفر الشرطة التي أشارت إلى حادثة على طريق عفرين في وقت الظهر.

وتلقى عبد القادر اتصالاً من قسم الإسعاف عند الغروب يعلمه العامل الذي رافق زوجته بوقوع حادث على طريق السفر. فطار بسيارته وهو يدعو الله أن تكون جيلة بخير، وكان يردد لنفسه بما أنه لم يخبرني بشيء عن جيلة فهي سالمة. دخل عبد القادر جناح الإسعاف في مشفى الرازي بحلب، وكان المرافق قد رقد في السرير يلفّ الشاش رأسه وذراعه. ومنذ اللحظة الأولى سأل عبد القادر عن زوجته جيلة أم اسماعيل، فكان جواب المرافق نموع في عينيه. فلم يستطع عبد القادر أن يفهم، وعاود السؤال، فكان الجواب:

‘حسبنا الله ونعم الوكيل. رحم الله الست جيلة’.

اختنقت الآهة في حجرة عبد القادر، عجز عن الصراخ ومادت الأرض تحت قدميه فتهاوى كجذع شجرة هوى عليها

فأس، فما كان من طبيب بجانبه إلا أن تلقاه بذراعيه فأجلسه على كرسي قريب. مرت دقائق وهو في ذهول، إلا أنه وقف فجأة يتمم بصوت مسموع:

أريد أن أراها. لا أصدق حتى أراها بأب العين.

في غرفة أخرى رآها مسجاة على لوح خشبي. نائمة هي، فكان المفجوع يقترب منها بخطوات حذرة، بينما الطبيب كان يقول ان العنق المكسور بفعل الصدمة كان سببا للوفاة وأن السيدة قد فقدت الحياة لتلو. انكبَّ عبد القادر على زوجه جليئة التي لن ينعم برؤياها بعد اليوم. رحلت ولن تعود.

- ٢٢ -

وعاد الحزن غيمة خيمت ثقيلة على أهل الدار. أمطرت فأغرقت الجميع. وبعد أيام من عويل أبناء جليئة الأربعة، ونحيب أهلها الذين حضروا من عفرين، انتهت فترة تقديم العزاء من سكان الحي والقادمين من خارجه، وغادر الدار ابراهيم مع زوجته وعائشة مع أسرتها، بعد أن اطمأنوا الى استخدام امرأة اسمها (فاتة) أرسلها والد جليئة لخدمة الأولاد الذين لم يعد لهم أحد يقوم على رعايتهم.

وكانت السنوات السابقة التي مرت على عبد القادر في نيته أن يحج الى بيت الله الحرام مع جليئة، فلم تتحقق الأمنية. أكان السبب

- ١٨١ -

في أن الزوجة خافت على أولادها من فترة الغياب في الحج، أم أن  
انشغال عبد القادر في إدارة أعماله التي ما زالت تنمو وتتطور  
بالرغم من فترات تعثر الاقتصاد في البلد. ومنذ رحيل جنيئة  
المفاجيء، غرق الحلبي في بحيرة الحزن والكآبة، فلم يكن له من  
عزاء إلا في الأبناء وفي متابعة العمل والتقاء في الخان.

هل قدر عليك يا عبد القادر الحلبي أن تفقد زوجة إثر أخرى .

وكان هو الكلام الذي يدور في نفسه دون أن يجد جواباً له، ولكن  
الاستسلام لتقدر كان الغائب. واستحضر خياله زوجته جنيئة إلى  
جانب أم الخير. المرأتان كانتا تدوران في حقل نمت فيه أزهار اللبن،  
يقطفان من نباتهما ويتحادثان بهمس لم يصله. صور تتتابع فيحس  
بالحنين الى ذلك الزمن.

أصبح توقيت عيد القادر الجديد ليومه، فمنذ بداية السابعة  
صباحاً يسعى ماشياً ليكون في الخان مع توارد عماله عليه، بل  
كان يسبقهم أحياناً، وقد أثار توقيتته استغراب الجميع، فكان يقال  
إنه ما عاد يطيق البقاء في الدار، فالرجل ما عاد أيضاً يغادر  
الخان إلا في وقت متأخر. عبد القادر لم يكن كعادته، بل إن  
تجهمه ظل سادداً كما لم يكن في أي يوم.

في ذلك اليوم الحزيراني هجم الحر على المدينة مبكراً. كان عبد  
القادر في غرفته يستمع الى الراديو ، فإذا بخبر يدوي في سمعه،  
وتمنى لو أنه لم يدخل أعماقه عبر أنيئه، إلا أن الاستماع إليه في

أكثر من محطة أقعده فلا قدرة له على تحريك عضو في جسده. الطائرات الإسرائيلية تحوم في سماء دمشق، وهذا يكفي للذهول القاتل، هبّ واقفاً ليدور في الغرفة، وكان سمعه يلاحق التقارير القادمة من الجبهة الجنوبية المشتعلة، فاذا بلغه دحر قوات العدو البرية مع تساقط طائراته المغيرة على دمشق كالناباب، قفز في الهواء ككتاب وهو يهتف بحياة سورية.

قيل الغروب جاء إبراهيم غاضباً. دخل غرفة عبد القادر الذي استقبله بابتسامة لم يعرفها وجهه منذ أسابيع وهو يهتف بسعادة:

‘عدوان إسرائيل علينا سيكون وبالاً عليها.’

فما كان من إبراهيم إلا أن صاح من ألم:

‘قوات جيشنا تصد العدوان، و هناك من يريد لاسرائيل أن تكسب الحرب.’

كان إبراهيم قد خرج من بيته متأخراً في هذا الصباح، يريد أن يقصد مكتبه فسلك الطريق المختصر ليمرّ في الأسواق، وهناك كانت أجهزة الراديو ترتفع وتيرة أصواتها، وقف مصغياً إلى الأخبار بسمعه الذاهل. عدوان طائرات إسرائيل على دمشق حبست أنفاسه. كانت الساعة تقترب من منتصف النهار عندما مرّ بسوق (باب جنين) فكانت المفاجأة. كل الدكاكين على طرفي السوق المغطى سقفه بالخيش، كانت خالية من البضائع، لا وجود للرز والسكر والبرغل والعدس، وقد الفروج وأرجله ورؤوسه، وكما يقال صفرّ الهواء في

محلات الجزارين قم يعثر على أثر للغنم والجمال والبقر. سأل عدداً من أصحاب الدكاكين فقيل له إن أهل حلب يخافون الحرب أن لا توفر لهم الطعام، فكان الغزو الذي قضى على ما احتواه السوق. وهرع إبراهيم ليستطلع الحال في سوق (المدينة) الأكبر في المدينة، فاذا هو كسابقه. ودخل إلى واحد من تفرعات السوق الكبير ليعرج على رجل من معارف والده، وكان يمتلك مستودعاً هائلاً للأقمشة من كل الأنواع. رحّب الرجل بإبراهيم وأمر له بالثاي، قال مسائلاً: 'أيعجبك حال هذه الحرب يا أستاذ؟'

فما كان من إبراهيم إلا أن هتف بغضب:

'الجيش يدافع عن الوطن، والشعب يفرغ الأسواق من كل أنواع الطعام.'

مال الرجل على إبراهيم يحاول الهمس ليقول بأننا نستحق ذلك، فحكومة الحزب لم تترك لنا شيئاً، ويضيف حانقاً: 'ليت إسرائيل تخلصنا من هذا الحكم.'

هب إبراهيم من مقعده وانهاً، ورمى بكأس الثاي إلى الأرض فتطايرت قطع الزجاج. خرج من المستودع غاضباً. وما كان أمامه سوى التوجّه إلى الخان.

وهكذا روى إبراهيم لوالده أحداث يومه بكثير من تفاصيلها. وجد والده ينتفض ثائراً على رجل المستودع، فيصيح:

‘الوعد، فهذا الرجل استقبلته في الغرفة أكثر من مرة. أيمن تخيل أحد جاء إلى هنا ويتمنى ان تقتصر اسرائيل علينا؟’.

وظل يردد كلمة (الوعد) أكثر من مرة، مما دفع إبراهيم إلى محاولة التخفيف من غضبه. لقد ازداد الشعور بأهمية عبد القادر الحلبي الذي لم يكن أباً له فحسب، بل انه الرجل الذي عرف ذات يوم بموقفه من الاحتلال الفرنسي. وتساءل إبراهيم عن خوف الناس على بطونهم ، فجاءه الجواب:

‘لم نبلغ بعد يا ولدي درجة من الوعي، فنتعذر للناس جهلهم بقيمة الوطن’.

توقفت الحرب بعد أيام سنة. عادت الطمأنينة إلى النفوس، فاستأنفت المدينة حياتها الطبيعية. بقيت الشوارع والأزقة تملأ أرصفتها رباطات الخبز التي تخبئ عن أصحابها، ليُشاهد الفقراء يتخاطفونها وآخرون يجمعونها لصالح مربّي الأغنام. وكان قد فتش في المدينة خبر الانسحاب العشوائي الذي مرّ به أفراد من الجيش هرباً من الأسلحة الإسرائيلية. آنذاك قال عبد القادر:

‘إسرائيل كيان نخيل على الجسد العربي، وهو الذي اعتدى على أهل فلسطين وطردهم من أرضهم، وما زالت تهدف إلى التوسع ليمتدّ كيانها من النيل إلى الفرات. هل نسمح بذلك؟’.

وتساءل واحد من مزارعي الجزيرة حضر إلى اجتماع الغرفة: ‘أيمن لهذا الكيان الذي سمي بإسرائيل ان يستولي على مدينتي الرقة؟’.

فأشار عبد القادر إلى خارطة سورية، وكان في قوله تحذير:  
'الرقّة ودير الزور، ومن قبلها منبج والباب، وستكون حلب معهم'  
صاح المزارع ترافقه صيحات آخرين:  
يا ويلنا. يا للمصيبة! .

ولكن عبد القادر الذي بدا في هدوء زعيم يطلق حكمه، قال:  
'ما دام التضامن العربي يمكّن الإرادة والقوة فالخطّة لن تتجح'.  
وهنف رجل من أهل الحي بالقول:  
'وهل استطعنا في الخامس من حزيران، الذي مازالت آثاره باقية،  
أن نحقق انتصاراً؟'.

أجاب عبد القادر بيقين العارفين:  
'المعارك كرتُ وفرتُ. تخسر مرة وتكسب أخرى، ولن يكون للعرب  
سوى إلغاء دولة العدوان'.

ودوى صوته في أرجاء الغرفة:  
'ألم يعلمنا درس الاحتلال الفرنسي لبلاننا. قاومناه وانتصرنا'.

- ٢٣ -

كان إبراهيم يقوم يومياً بالطواف على عدد من المكتبات، فيشتري  
الجرائد والمجلات، وإذا ما عثر على كتاب جديد جعل يقبض صفحاته  
ليتأكد من رغبته في شرائه. كتب في السياسة والتاريخ والاقتصاد  
وأحياناً في العلوم. وعُرف إبراهيم عند أصحاب تلك المكتبات

- ١٨٦ -

بالمحامي النهم في القراءة، فكانت له حظوة عندهم، وإذا ما هُرب كتاب منعه الرقابة من التداول يُعرض سراً على إبراهيم. كانت مكتبته الشخصية تضم الكثير من تلك الكتب التي غلب عليها ما صدر عن الديانات أو القضايا السياسية. ووجدت الزوجة ليلى الفرصة للقراءة في أوقات فراغها الطويلة والتي حرمت فيها من طفل ترعاه ويشغل حياته.

وكانت الشهور التي أعقبت حرب الخامس حزيران قد شهدت بحثاً من بعض الناس عن كتب التاريخ السوري والعربي، فكان القراء باتوا يبحثون وينقبون عن أسباب الهزيمة.

وابتداءً تسأل المشاعر اليائسة، فكانت كتب التراث الديني التي خرجت على الناس هي التي يلجؤون إليها. كان الكثير من الناس يهربون إلى الماضي ويتعلنون بالابتنال والدعاء.

ظل إبراهيم يتابع تلك الظاهرة التي مرّ بها المجتمع، ولم تتوقف عن الانتشار بزحف بطيء. محامون وأطباء، تجار ومهندسون، طلاب جامعة وتأنويات، أساتذة ومعلمون، وغيرهم وقد طغت عليهم نزعة دينية قادهما مشايخ جوامع ورجال تنظيم سياسي. وما لبث عدد من النسوة اللواتي كن سافرات أن استخدمن الحجاب لتغطية شعر الرأس، وأحياناً الوجه من دون العينين.

واستمر لقاء الجمعة في دار الوالد. اجتمع الجميع باستثناء صفيّة. سألت ليلى بعد قليل عن الفتاة التي افتقدتها، وكانت الأقرب إلى قلبها،

فعلت عائشة الغياب بأنها قد تكون محتارة في اختيار ثوبها، وقال إبراهيم عن أخته أنها لا بد لها من إنهاء دروسها الخاصة. ودخلت (فاتة) بكؤوس النمر هندي، فإذا ما سمعت بغياب صفية عن الاجتماع الأسبوعي هتفت بلغتها العربية المنكسرة:

‘البنّت صفية كثير زعلانة’.

وتسأل عبد القادر عن السبب، آذاك هب إسماعيل واقفاً من جلوسه بعيداً عن تجمع العائلة وهو يقول بأنه من منع صفية. ودهش كل من كان في القاعة، ولكنهم حسبوه مازحاً، فما كان من إسماعيل إلا أن تقدم منهم وهو يقول:

‘صفية ما عانت صغيرة. طالبتها أن تضع الحجاب، لكنها لم تستجب’.

ثم استطع إبراهيم أن يفهم موقف أخيه إسماعيل إن كان جاداً في قوله أو أنه يمازح أهله، إلا أنه لم ينطق بكلمة بحضور والده الذي قال:

‘من سمح لك بالتدخل في شؤون غيرك، ولو كانت أختك’.

ولبت إسماعيل ساكناً لا يتحرك، وهو يستمع إلى والده الذي أمسك نفسه فقال بهدوء:

‘أختك عائشة. ليلي زوجة إبراهيم، أليستا من المحصنات المؤمنات بالرغم عن غياب الحجاب؟’.

وقال عبد القادر بعد لحظات من تأمل إسماعيل:

‘الحجاب يا ولدي يمنع عقولنا عن رؤية الصواب والخطأ’.  
وقد دفع هذا القول بإبراهيم ليهتف إعجاباً وليصرّح بأن كلام  
الوالد هو الذي يليق بنا لنؤمن به، وأشعلت الحماسة الدكتور طائب  
فخاطب عبد القادر قائلاً:

‘هي الحقيقة يا عمي. هذا ما نحتاجه إلى حملتنا من التخلف’.  
وأضاف بأن شجاعة عمه تذكره بأقوال أبيه الدكتور أحمد،  
وتدفعه إلى الفخر بالاثنتين معاً.

إسماعيل يحسّ بالحصار الذي طوقته به عائلته، فتنفض غاضباً  
ليهم بالمغادرة:

‘لم يكفنا الحرام في دخول جهاز التلفزيون إلى البيت حتى تخرج  
صفية إلى الشارع سافرة’.

بعد قليل لحق إبراهيم بأخيه، بينما نهبت عائشة مع ليلى لإحضار  
صفية من غرفتها. وكان عبد القادر ينفّ من حوله طفلاه جمال  
وزينب وهو يحتويهما بنراعيه، وما لبث لابن عائشة أن انضمّ إلى  
حلقه الحنان.

قتل إبراهيم في العثور على إسماعيل. فُتس كل الغرف  
والمربعات العلوية، بحث في الأقبية والأسطح، إلا أنه لم يعثر له  
على أثر. ويبدو أن إسماعيل قد انسلّ خارجاً من باب الدار. ونجحت

عائشة بمساندة ليلي في اخراج صفيّة من عزلتها لتعيدها إلى اجتماع العائلة. وقد هلك الجميع بعودة الصبية التي تزداد جمالاً وأثوثة، فما كان من صفيّة إلا أن سألت عن اسماعيل التي بدا انها ستعفر له نعتفه، إلا أن الحضور لزموا الصمت، فعلمت أنه غير موجود.

ويكتشف إبراهيم الذي لم تتوقف جهوده لأيام في تكصي الأسباب التي دفعت بأخيه إسماعيل إلى موقفه المتشدد. أستاذ الديانة في الثانوية قاده إلى معرفة الأمر. كان الأستاذ قد جمع من حوله عدداً من الطلاب ليغرس في عقولهم رؤيته للدين، وفي لقاء اسبوعي في قبة جامع لم تنته أعمال البناء له، وكان حارس البناء قد جمعه مع الأستاذ لتنظيم واحد هو ما سهل لانعقاد الاجتماع الدوري.

الحيرة شنت أفكار إبراهيم. أيخبر والده بما تسبب في سلوك إسماعيل، أم أنه يتصرف منفرداً. وأخيراً تغلبت روح رجل الأمن القديم لتضع حداً لحيرة إبراهيم. اندفع إلى مدير التربية ليضعه في صورة ما يحدث في مدارسه من تنظيم أساتذة غلب عليهم التعصب فحرفوا معهم طلاباً أبرياء. ولم يكف بنقل الصورة إلى المدير، بل نقلها إلى الوزارة. وسيفاجأ أستاذ الديانة بسحبه من المدرسة إلى أخرى في قرية بعيدة، فكانت لإسماعيل صدمة جعلته ينكفي على نفسه حزناً على مرشده الذي غاب عنه.

أخفى إبراهيم عن والده ما تعلق بالأحداث التي أوصلت إسماعيل إلى ما هو عليه، وما كان عليه الحال مع أستاذ الديانة، إلا أن عبد القادر لم يستطع إلا أن يعطي سرّه إبراهيم فقال:

اعلم يا إبراهيم الابن والصديق، فأنا لم تكن لي رغبة في الزواج بعد المرحومة جليئة. لقد دُفعت إلى الزواج منها من أجلك أنت وعائشة. كنتما بحاجة إلى رعاية امرأة بعد رحيل أمكما الذي فجعني، فقد كانت أم الخير هي بداية النجاح لي.

وأدرك إبراهيم أن عبد القادر لديه نية الزواج من جديد، إلا أنه لم يفصح عنها كما يجب. قرّر أن يساعده وهو يقول:

أنت عبد القادر الحلبي الذي امتلك الرجولة، ويحسدك الشباب على قوتك. أعطاك الله الثروة والنجاح، فما الذي يمنعك من أنيس؟ استفسر عبد القادر عن الذي يعنيه بكلمة (أنيس)، فلم يملك الابن سوى قوله:

الأنيس هو ما يجده الرجل في المرأة. أن يجد الرجل من يأنس إليه ويهتم لأمره.

ودار التصت في أرجاء الغرفة. نسجت خيوطه بين الأب والابن فما عادا يتحدثان. الهاتف يرن طويلاً، فاذ أمسك عبد القادر بالسماعة يعتذر بعد قليل بحجة حضوره اجتماعاً مع آخرين. إبراهيم يتلاعب باقلام كانت على المكتب، وفجأة قال عبد القادر وكأنه يروي حكاية:

تلقيت دعوة رجل صناعي لزيارة بيته. الرجل كما علمت فهو بحاجة إلى مساندة مالية لدعم مصنع الغزل و النسيج الذي يملكه. المشكلة لم تكن في المساندة فحسب بل في حديث هذا الرجل الذي

تسأل عن بقائي وحيداً من غير زوجه. قلت له مازحاً اكتفيت  
بزوجتين، فقال ولكنهما في نمة الله وليستا في ذمتك.  
وتوقف عبد القادر وهو يحاول أن يقرأ في عيني إبراهيم آثار  
حديثه، فكانت نظرات إبراهيم تدعوه إلى المتابعة، فعاد عبد القادر  
إلى استكمال حكايته:

'ابنته (درة) متعلمة وقد أحسن تربيتها لتكون زوجة صالحة. هي  
في الثلاثين من عمرها، وأجدها مناسبة لي.'  
وقال عبد القادر إن إشارة من الرجل الصناعي أدخلت (درة)  
بالتفهوة التي قدمتها لي. لم أجد سوى الإعجاب بتهذيبها. وإذا ما قاطع  
إبراهيم وأده مضيفاً إلى ما قاله (وبجمالها). نظر عبد القادر إلى  
إبراهيم مستظناً رأيه، فما كان من الابن إلا أن هتف بقوله:  
'أنت صاحب الرأي، وأنت من يقرر، وعلياً أن نوافق.'

- ٢٤ -

شهد (نادي حطب) مساءً ذلك اليوم توافد صناعيين وتجار ورجال  
أعمال، وذلك لحضور تسجيل عقد عبد القادر الحلبي على ابنة  
سليمان الأزميزلي. كان عبد القادر يرتدي ملابس مندية للمرة الأولى  
في حياته انسجاماً مع واقع النادي الذي لم يدخله من قبل، وهو الذي  
لهش لاتساع المكان بأعمدته المرمرية ورسوم الحائط الزيتية. أحسن  
برهبة سرعان ما تجاوزها.

- ١٩٢ -

انتشرت الموائد فتحلق من حولها كبار رجال المال في المدينة. وابتدأ الاحتفال بتلاوة القرآن الكريم، ومن بعدها قام شيخ بتسجيل القرآن فكتب في العقد صدق كبير قل مثله، والذي قرئ على الحاضرين بإصرار الأزميزلي تفاخراً بمكانته. تناقل المدعوون فيما بينهم خبر المهر الذي حسبه الكثير منهم أن الحلبي قد هبط من السماء لإنقاذ الأزميزلي من محنته.

واتفق على يوم الزفاف، وكان مساء خميس من نهاية الصيف. أقيم في دار الأزميزلي وقد حضره عدد قليل من النسوة، ومن طرف الزوج حضرت عائشة ونيلي، واقتصر الحفل على الرجال من الأقارب للأزميزلي. وكان قد اتفق على أن يصطحب الحلبي زوجته إلى الدار دون زغاريد أو صحبة، فيدخل الحي دون ضجة احتراماً لذكرى زوجته اللتين تعاقبتا على الدار، فخضع الأزميزلي لرغبة الحلبي.

في قاعة الاستقبال لم يكن هناك سوى عبد القادر ووالد العروس وحيدين بين النساء. وجرى توزيع شراب اللوز على الحاضرين، بينما ذهبت الأم لإحضار العروس درة. الغرفة كانت خالية ورسالة تركت على الكومودينو بالقرب من المرأة. فضت الأم الرسالة لتقرأ سطورها:

‘احببت شاباً سيسعدني. زواجي كان صفقة باعني فيها أبي لرجل عجوز لن أحبه. لقد اخترت حريتي.’

وصرخت الأم مولولة، وفيما هي تخرج من غرفة ابنتها تستجد بزوجها، كان الأزميزلي يهرع مسرعاً لسمع زوجته تهتف بصوت مبدوح:

‘هربت درة.. يا ويلي من القضيحة‘.

انتقل الفرع إلى الأزميزلي، فكان وهو يقرأ الرسالة يشتعل بالغضب لتفلت منه صرخة مدوية، التقطها من كان في القاعة. ذاهلاً كان عبد القادر مع ابنته وكنته، فلم يكونوا بقادرين على الفهم لما كان يجري في الغرف الداخلية. تطوعت عائشة لتستفهم الأمر، فركضت في الممر. خرج الأزميزلي مسرعاً بخطواته وهو يحمل الرسالة، فوضعها بين يدي عبد القادر وهو يقول انها مسؤوليتك الآن لتعيد زوجتك الهاربة.

كان زوجاً مع وقف التنفيذ، وإذا ما قرأ الرسالة توقّف عدد كلمة (الرجل العجوز). وكان يفكر إن كان أحد قد وصفه بذلك، أم أنها هي الحقيقة. وأعاد الرسالة إلى الأزميزلي دون أن يعلق بكلمة، واستمر في حواره مع نفسه:

‘أتراني ذلك الرجل العجوز، أم أنها خدعة نبّرها الأزميزلي؟‘.

ولم يترك للجمع أية كلمة وداع فخرج مسرعاً لتلحق به عائشة ويلي.

في تلك الليلة لم يعرف إغماضة عين. ومع ظهور الفجر خرج عبد القادر من داره، فدار في الشوارع والأزقة لتقوده قدماه إلى الخان. حكاية هرب الزوجة لن يفهمها أو هو لن يشكك في رجولته أو قدرته على إرضاء امرأة، ولن يسمح للمؤامرة التي يحتمل أنها دُبرت له. ولم يجد سوى إبراهيم يفضي له بهمه فاستدعاه على عجل.

حضر إبراهيم، قال إن ليلي أخبرته بما جرى ليل أمس، وسأل والده إن كان الحدث قد كان مكرراً من الازميرلي، أم أن الرجل فاشل في ادارة أسرته كما هو في عمله. وهتف إبراهيم بقول واثق ألسنت المحامي الذي يضمن لك حقوقك. ويقول عبد القادر كجريح في كرامته:

'ومن الذي سيدفع عني الطعن في كبريائي؟'

ويعلن المحامي إن كان الموضوع موضوع كبرياء فقد ردّ على صدر الازميرلي، بريئاً أو مخادعاً. قال:

'أعدك يا والدي باسترداد أي مبلغ من المال كنت قد دفعته لمساندة ذلك الصناعي. وأما ابنته فهي زوجة ناشزة لا يحق لها ما ترتب على العقد من حقوق.'

وكان عبد القادر الحليبي حزيناً وهو يقول:

'هل تحولت إلى رجل ترفضه النساء؟'

وانقلب الحزن إلى غضب حملته قوله إن ابنة الأزميرلي لن تكون  
له في أي زمن ومكان، وقام إبراهيم من مقعده ليقترب من والده.  
احتضنه وهو يهس في أنه:

ألم يشهد لك الجميع بالنجاح. ماضيك الوطني مشرف، ورعايتك  
الإنسانية لعمالك. محبتك لأولادك وزوجاتك. انت يا والدي رجل  
حقيقي في هذا العصر.

مع مرور أيام قليلة غابت عن تفكير عبد القادر أحداث تلك الليلة،  
ليلة هربت نرة التي كانت واقعة زواجها مسجلة على الورق،  
فظواها. وزاد اهتمامه بالابناء الأربعة الذين يشاركونه الدار. وظل  
إسماعيل منكفأ على ذاته قليل الكلام، وقد تجنب الاحتكاك بأي من  
أفراد أسرته، إلا أنه استمر بالتزامه بمواعيد المدرسة والطعام. وإذا  
ما كان لقاء الجمعة الاسبوعي تحصن في غرفته متعللاً بالتحضير  
المبكر لامتحانات البكالوريا.

من قبل، كان خبر استقالة عبد الناصر بعد نكسة حزيران، إلا أن  
مظاهرات الشعب المصري أعانته إلى الرئاسة بعد قليل. ولكن ما  
حدث بعد سنوات قليلة كاد ان يفتع قلب الحلبي من صدره. الراديو  
يعلن وفاة عبد الناصر. ففي النقائق الأولى من اعلان الخبر أضحى  
عبد القادر ذاهلاً وكأنما احتاج لوقت يصدق فيها سمعه، ثم بعد ذلك  
بلحظات متسارعة انفجر في بكاء يعجز عن إيقافه:

‘لا يمكن للرئيس أن يموت’.

وإذا ما تكررت كلماته كهلوسة رجل تمزقت روحه، فإنهم لم يتوقف إلا لحظة دخول رئيس عمال مصنع العلف الذي كان يمر في طريقه بالغرفة، فإذا هو يسمع الحنبي ليقتحمها مستفسراً عن الأصوات غير المألوفة. صاح عبد القادر لرؤيته:

‘عبد الناصر مات. الرئيس مات’.

كان رئيس العمال عند الباب لا يظهر عليه أنه يفهم شيئاً، إلا أنه مع تكرار الخبر سقط على قدميه فساعدته يداه على الاحتماء بالحناط، فانخرط في بكاء مرير.

ساد الحزن في الخان. رجال اكفهرت وجوههم، وحجارة كابية، وما عاد يسمع للقطط إلا المواء الذي يثير الشفقة، وسرت شائعة وصلت الخان من شوارع المدينة، وقد دفعت تلك الشائعة رجالاً اندفعوا في تظاهرة إلى مطار حنب، وكان هؤلاء يهتفون بعودة عبد الناصر الذي ستهبط طائرته في المطار. قال عبد القادر معلقاً:

‘أي جنون دفع المحبين لهذا الزعيم الراحل ليفقدوا توازنهم!’.

ويوم طافت الجماهير في القاهرة تحمل نعش عبد الناصر تدور به في جوٍ من الحزن الفاجع، توافد على الخان رجال بالمئات يقدمون العزاء إلى عبد القادر الحنبي. دارت المسجنة لتبث القرآن الكريم على مدار يومين بينما تصدر الحنبي ساحة الخان، فيأتي الرجال

ويجلسون على الكراسي المنتشرة ولا ينبشون أن يغادروا ليحلّ غيرهم في أمكنتهم. كان الحلبي واحداً ممن في المدينة فتحوا أبوابهم لتقبل العزاء بعد الناصر، بالرغم من أن الرجل لم يكن يوماً في التنظيم الناصري الذي أعلن عن تأسيسه عقب الانفصال.

- ٢٥ -

حوصر الأزميرلي بدعاوٍ رفعها المحامي إبراهيم الحلبي. طالب في واحدة منها الصناعي بتسديد دين موكله، وبأخرى على الابنة الهاربة من زوجها. الأزميرلي أحسّ بخطر اهتزاز هيئته في أوساط المال، فكان أن هرع إلى مكتب إبراهيم زائغ العينين مضطرب النفس يكاد أن لا يتمالك نفسه. خاطب المحامي راجياً منه التريث، واعداً أن يعيد ابنته فيرتها إلى زوجها، فما كان من إبراهيم إلا أن علّق بقوله:

‘وهل تعتقد أن يقبل موكلي بعودة ابنتك إليه؟’.

وابتداً إبراهيم يحسّ ببراءة الأزميرلي من تهمة تأمره على والده، إلا أنه ظلّ مثابراً على إجراءات مواجهة الرجل في المحكمة الذي ردّ خائباً.

وحدثت المفاجأة. أسابيع قليلة عادت نرة بعدها إلى بيت أهلها نائلة. كانت باكية بين أحضان أمها، فانشاب الذي أحبته وضحت

- ١٩٨ -

بمستقبلها من أجله، خذلها فكشف عن طمعه في مصنع أبيها واذا ما  
تبين له وقوع الأزميرلي في الديون، صاح الحبيب في وجه درة:  
'عودي إلى زوجك يا هاربة.'

وتسألت درة إن كان الحلبي سيغفر لها، فتفجر الأم باكياً تخنق  
الدموع كلماتها:

'ضاعت الفرصة يا درة، وضعنا نحن.'

وكان الأب يراقب لقاء الابنة بأُمها وهو يتمالك مشاعره قدم يظهر  
أي تفاعل. ومع توقف بكاء المرأتين هتف الأب:  
'والآن يا درة هل وجدت حلاً لهذه الكارثة؟'

وانفجر الصناعي فجأة. طالت مكابذته للغضب، ولكنه ما عاد  
بقادر على حبس مشاعره فقال:

'فلتفضل ابنتنا بخبرتها وشجاعتها بإعلامنا عن طريقة معالجتها  
لمأساة أسرة الأزميرلي.'

رافقت درة أبيها بعد يوم من عودتها. الهدف كان مكتب إبراهيم  
المحامي. شهد اللقاء اتفاقاً على الطلاق بعد تنازل الزوجة عن جميع  
حقوقها. وفي اليوم التالي حضر الأزميرلي إلى غرفة عبد القادر  
وبحضور إبراهيم، فاتفق على التنازل عن حصة من المصنع لقاء  
الدين. وهكذا خرج الأزميرلي مهزوماً، وبقي الحلبي في غرفته  
فخوراً بابنه.

وما هي إلا أيام قليلة ليعود إبراهيم إلى بيته يحمل معه خبر الانتصار لوالده بعد أن أنهى رسمياً كل ماله علاقة بالزواج والمال. وكانت ليلى تستقبل زوجها بفرح الانتصار تلقت خبر نجاح إبراهيم القانوني بالتهنئة، لكنها ما لبثت أن أظهرت وجوماً لم يعدها أحد به. سألت الزوج إن كانت تشكو من مرض، فكان أن دعتَه إلى الجلوس لتكون على مقعد بمواجهته. قالت ليلى:

لم أكن يوماً أحلم برجل مثلك. أنت الزوج والصديق، وانت الحبيب قبل كل شيء.

ومرت لحظات صمتها تتنازعها المخاوف من ان يكون لاعتراقها أثر على إبراهيم، لكنها قالت من جديد:

عمي أبو إبراهيم أتجب الابناء الذين يفخر بهم، وأما أنا فعجزت كزوجة عن اعطائك الابن.

وتأملها بابتسامة، وهي تكمل قولها:

من حقت يا إبراهيم أن تكون لك امرأة تمنحك الابناء.

واغرورت عيناها بدموع براءة. كذبت تقول بصوت مرتعش:

لقد خذلتك. غدرت بك يا حبيبي.

وهب إبراهيم واقفاً. تقدم خطوات من ليلى، وأمسك برأسها بين

كفيه وأقس. رفع وجهها فأغمضت عينيها. كان يهمس برقة عودتها

للاستماع إلى عذوبتها:

‘لا مفر لي من القدر المكتوب. ولكن حبي لك غلب كل الأقدار.’  
وضمها إلى صدره فاحتضنته بذراعيها، ليبقيا ساكنين وكأنهما في  
صلاة تلاوتها آيات من الصمت. وقد همس في سمعها أن أخوته هم  
أبناء له ولها، فإسماعيل وصفية وجمال وزينب، ولا أستثني الدكتورة  
عائشة، بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم لتخطي مصاعب الحياة. وقال  
إبراهيم بخرم المحب:

‘أنا وأنت سنكون سندا دائما لهم.’

وقد غالب نفسه محتفظا بالسر الذي لم يفض به لأحد، مكتفيا  
بعذاب الضمير لأنه أخفى عن ليلي حقيقة عدم قدرته على الإنجاب  
وراضيا عن نفسه أنه مخلص في حبه لزوجته ليلي.

مساء ذلك اليوم، أثار اهتمام عبد القادر حديث رئيس عمال  
مصنع العلف. كان قد دخل عليه في الوقت الذي انتهى عمله. رحب  
عبد القادر به وطالب ان يأخذ له مقعدا، وجعل يسأل عن الأحوال.  
كان المفضل عنده، وكثيرا ما قال عنه إن اسمه يطابق سلوك حياته.  
هو (صادق) الميكانيكي والكهربائي والاداري، وهو كذلك يتسم  
بالصدق والامانة. وقال صادق إن العمل في المصنع يسير كأفضل  
ما يكون، واطاف:

‘عرفتك منذ سنين، وكنت خير رب عمل. الرجال في المصنع  
وفي الخان لا يلتقون منك سوى الرعية والتعاطف والاحترام، وأنا  
بالرغم من تجاوزي للستين من العمر لا أحس بك إلا أباً ورمزاً.’

وتوقف صادق عن الاستمرار في الكلام، وكأنه يحتجز غيره فلا يستطيع النطق به. كان عبد القادر يحترم انفعاله الصادق، ولكن الرجل عاد إلى التدفق بالقول:

'خديجة ابنتي رفضت منذ زمن ان تترك امها المريضة. خديجة فتاة صالحة وجميّلة وقد امتنعت عن الزواج لتبقى لترعى أمها. زوجتي ماتت منذ أسابيع.'

انفض عبد القادر ليصبح بانه لم يعلم، وكان عليه واجب العزاء، إلا أن الرجل أكمل قوله هائلاً:

'ليرحمها الله فقد كان ميؤوساً من حالتها. وقد فكرت طويلاً بمكافأة خديجة على صبرها وعنايتها بأمها، فلم أجد سواك يا سيد عبد القادر.'

وهنا ملأت الدهشة وجه الطيبي، فهو لم يكن قادراً على فهم قول رئيس العمال. أكمل صادق:

'خديجة مؤهلة لتكون زوجة لك يا سيدي. أتمنى من قلبي المحب لك ان تفكر. أما أنا فسأعيش مع أختي الأرملة الوحيدة.'

كما حدث له مع الحاج الذي قدّم له ابنة أخته أم الخير على طبق السعادة، يتكرر الموقف وتستكمل الدهشة ألوانها. وجد عبد القادر المسحور يقول:

'هل أستطيع أن أسمع بأنني موافقة ابنتك.'

هذا من حثك يازين الرجال.

هكذا قال صادق وهو يستأنن بالمغادرة.

- ٢٦ -

يوم الكشف عن حقيقة الأمر، مساء اصطحب عبد القادر ابنه إبراهيم حافظ أسرارهِ والمحامي الذي استردَّ له حقوقه، فتوجَّها إلى مكان اللقاء. وكان بيت صادق الذي تمَّ التعرف عليه بصعوبة، قد تحول إلى ساحة من حرارة الترحيب التي قابل صاحب البيت ضيفه بها. كانت الصالة الصغيرة قد توزعت فيها أصص النباتات المنزلية، وتوسطها شجرة (أذن الفيل) التي ضمَّها برميل نُون بالأخضر، كما عُثقت سجانان على الحائط لتشكلتا بالزخارف خلفية لهذه الشجيرة. وتوزعت الإضاءة على السقف والجدران، فكان المنزل بالرغم من وقوعه في حي شعبي وبساطة مفروشاتهِ يشير إلى غير ما هو مأدوف في البيوت البسيطة. أشاد الحنبي بالحرص المرهف لرئيس العمال، فما كان من صادق إلا أن اعترف بلمسة ابنته لما يمكن رؤيته.

لا بدَّ أنها (خديجة) تلك التي دخلت عليهم تحمل صينية القهوة، فوقف الرجال الثلاثة لها، ليقدماها إلى عبد القادر وابنه. كانت بثوب الحزن الأسود، ولكن وجهها المشرق وشعرها المعقود خلف رأسها

- ٢٠٣ -

وابتسامتها المرحبة، ساهمت في إظهار بريق عينيها. وبدا لعبد القادر ان ثوبها الذي امتلأ بجسدها هو جزء من الأثافة البسيطة التي اتسم بها المكان.

أفصح الأب لابنته فسحة للجلوس بقربه، بينما احتلَّ عبد القادر المقعد المجاور لهما وقد غرق في صمته. رحبت خديجة بالضييفين، فرد عليها عبد القادر بهمس وإيماءة من رأسه، إلا أنها قالت بصورة مباغتة:

'اقرب عمري من الأربعين، ولكني في الحقيقة مازلت في منتصف الثلاثينيات. وتمنيت ذلك يوم أن أنسب إلى الجامعة لكنني لم أستطع ترك أمي وحيدة في مرضها الذي امتد لسنوات طويلة. كان لا بد لي من ردِّ الدين لهما.'

تبادل إبراهيم النظرة الخاطفة مع والده، وكأنهما لم يستمعا إلى امرأة مثلها من قبل. وكان عبد القادر يصغى بدهشة إلى خديجة التي عانت إلى الحديث بجملة واحدة:

رحم الله أمي، ويرحم زوجتيك.

احتار عبد القادر وهو يساعل نفسه ان كان يحتمل جرأة هذه المرأة، أم أنه بحاجة إلى واحدة مثلها. بعد قليل اخترق صمت البقية صوت خديجة يقول:

'تحدّث والدي طويلاً عنك. كانت كلماته تحمل الإعجاب والمحبة لك، قد رسم لك صورة الرجل القوي، وكانت لك أكثر من زعيم.'

طالباً أحس عبد القادر بقوته، إلا أنه أدرك بأن خديجة تتفوق عليه، وقال لنفسه:

'جئت تدفعني رغبة لمعرفة كل شيء عن خديجة، فإذا هي لا تخفي أي شيء. أيمن للزمن الحلبي ان يشهد حالة كهذه؟'

إبراهيم لم ينطق بكلمة، وهو من مكانه يراقب ويستمع، وكان يحمل إعجاباً لخديجة لا حدود له. بينما كان صائق يبتسم في سره لشجاعة ابنته في صراحتها المعهودة، وأما عبد القادر فكان يحاول أن يتخذ موقفاً يستمد من جراءة خديجة، فقال:

'عندي ستة أولاد، وإبراهيم هذا أولهم. أقرب من السبعين واحتمالاً أن أكون قد تجاوزت منتصف الستينيات. لا أشكو من علة أو ما يشبه المرض، وأمضي أيامي في إدارة أعمال الخان وغيرها. أستمع إلى الأخبار وأقرأ كتباً أعوض بها عن التعليم الذي حرمت منه.'

واستدرك بالقول إن هذا كل ما عندي، لكنه سمعها تقول:

'أنت رجل صالح كما أجمع كل الناس.'

عينا صادق الأب كانتا تقولان بلغة فهمها عبد القادر:

'ها أنت قد سمعت موافقتي.'

التصق عبد القادر بمقعده فلم يأت بحركة، فوقفت خديجة تراقبها العيون وهي تخرج من الصالة. يقول صادق إن خديجة ستعود، وقد

فعلت فعادت حاملة كؤوس الليمون. لم تتطق بكلمة وكذلك فعل  
البقية. قال عبد القادر مثبياً على الشراب:  
'لم يكن هذا وقت الليمون يا أنسة خديجة'.  
'احتفظت به في الثلجة أيام موسمه'.

هكذا قالت خديجة. وإذا ما توقف الحديث لفترة كانت العيون  
تسرق النظرات من بعضهم البعض، هب عبد القادر ليستأنن  
بالمغادرة، وما لبث إبراهيم أن لحق به. لحظة الوداع كانت مشحونة  
بحرارة التساؤل لدى الجميع.

إبراهيم هو الذي قاد السيارة، بينما جلس عبد القادر قربه يخيم  
عليه الصمت. في الطريق سأل عبد القادر:  
'ما رأيك في كل ما شاهدته وسمعته؟'.  
'لم يسبق لي أن رأيت امرأة مثل خديجة'  
وأضاف إبراهيم بالقول إن ما يحير فيها شجاعة لا تعرفها عند  
النساء. واستدرك بالقول:

'قرأنا عن أيام العرب منذ قرون أن النساء كن يخترن الأزواج'.  
وكان عبد القادر يحادث نفسه بصوت مسموع:  
'أعلم أن صادق رئيس عمال المصنع يتسم بالصدق وحسن  
الإدارة، ويبدو أن ابنته قد اكتسبت صفاته، بل كانت نسخة محسنة  
عنه. فتراها كسرت القواعد المألوفة!'.

وانتفت عبد القادر إلى ابنه يسأله بغتة:

'أليست لإبراهيم رغبة في أن يكون له ولد؟'

وإذا ما فوجئ الابن بالسؤال الذي خرج عن سياق الحديث، ابتسم قائلاً:

'ألا يكفي مارزقت أنت من أبناء؟'

وعاد عبد القادر إلى موضوعه الذي شغله فقال:

'هي امرأة قوية. ابنة صادق فتاة تعرف ما تريد.'

ورجع الصمت إلى بدايته، فكان الواحد منهما يعود إلى نفسه يحدّثها.

شغل عبد القادر والعائلة بالمشكلة التي أثارها إسماعيل. هو قد نجح في امتحانات الشهادة الثانوية، إلا أنه قرّر عدم الالتحاق بالجامعة، متخذاً قراره الالتحاق بالخدمة العسكرية الإلزامية. لم يفلح الوالد في إقناعه، كما قتل إبراهيم وعائشة في تزيين الدراسة في الجامعة. وهما يقومان له مغريات العلم من تقدم في المجتمع واتساع المعرفة. وخير إسماعيل بين جامعة حنّب أو أية واحدة أخرى في الخارج، إلا أنه ظلّ متمسكاً بموقفه في الخدمة العسكرية. وقال عبد القادر غاضباً لندع الودد العنيد يختار ما يريد. وكانت صفيه تستعدّ لامتحانات البكالوريا بعد سنة، فراهن والدها عليها تعويضاً عن كسر حلقة الأبناء في الإكمال التعليم الجامعي، وهو المحروم من كلّ تعليم.

ومرت فترة من التأرجح في اتخاذ قرار بين تردد وقبول، حسبه الحلبي بإقدامه على فكرة الزواج من خديجة. اتفق مع صادق على موعد محدد، إلا أن الإجراءات سارت في اتجاه عقد القران في المحكمة الشرعية مراعاة للزوجة المتوفاة. وكانت في حقيقة الأمر تلبية لرغبة خديجة، وأكبر الحلبي في المرأة التي حفظت ذكرى أمها وراعت كذلك مشاعر أبناء زوجه الراحلة جليئة.

أصرت خديجة على المثل أمام القاضي، رافضة أن يكون والدها وكيلاً لها في عقد القران. وارتسمت الدهشة على وجه عبد القادر وابنه وصهره، بينما وقر في ذهن صادق أن ابنته قد ذهبت بعيداً بقوة شخصيتها. الزوجان يستمعان الى قراءة كاتب المحكمة، فاذا وصل إلى ذكر المهر قالت خديجة بثقة أن موضوع المقدم والمؤخر لا يعنينا في شيء، ليصاب والدها بالصدمة، كما أن الزوج والشهود لم يستطيعوا فهم تلك المرأة. وتوقف الكاتب عن التسجيل بانتظار ان يقول عبد القادر شيئاً. خرج الزوج من دهشته ليطلب أن يسجل أعلى رقم مرّ على سجلات الزواج الحلبي. اتعجب يسود وعلامات الاستفهام ترسم آثارها على وجه القاضي، بينما إبراهيم فقد أدرك ان والده بات مقتعاً بل مسحوراً بهذه المرأة، وكانت خديجة لا تبدي أي انفعال. كانت المحكمة قد شهدت أغرب قران يحدث في مقرها.

موكب العرس في الزقاق. سارع عبد القادر إلى باب الدار ليستقبل عروسه مع الموكب الصغير الذي ضم والدها وإبراهيم والدكتور طالب. دخل الموكب ليواجه باستقبال ترحيبي. كانت تعاليم عبد القادر قد منعت الزغاريد، فاكثفى أفراد العائلة بالوقوف صفاً واحداً في صحن الدار يسلمون على العروس. أقدمت خديجة على تكبير كل فرد، وأما إسماعيل فمدّ ذراعه مصافحاً على استحياء، وما لبث أن ابتعد مختفياً.

صيف الدار كان منعشاً، وبالرغم من شمس الظهيرة فقد كانت أشجار الفارنج مع مظلة الكرمة والياسمين والفل والتمرحنة، هي التي منحت الطمأنينة لأجساد الجميع. وامتدت مائدة الطعام في الليوان ليقوم رجلان استقداً من مطعم معروف بالخدمة، بينما (قاته) تزودهما بصحون الطعام المختلفة. الزوجان على رأس المائدة، والجميع على الطرفين. وقف إبراهيم في محاولة لتفت الانتظار إليه ليقول:

أريد أن أرحب أولاً بالعروس خديجة، وأقول لك أهلاً بك في العائلة.

الجميع يصدق، وعبد القادر ينظر بإعجاب إلى نباقة ابنه، ويقول إبراهيم:

خديجة أصبحت زوجة أبي، وأقول إنها ستكون أختاً لنا. وأودّ أن أفشي سرّ هذه الاسرة التي تعيش في بيت قديم وفي حي أقدم، لكن أهلها من جماعة العصر التي قد تسبق في مفاهيمها معظم أهل المدينة. وها هي خديجة الزوجة والأخت قد جاءت لتزيد على أسرة عبد القادر الحلبي قيمة وتمنحها المحبة والشجاعة على طريقتها.

توقف إبراهيم عن خطبه، بقي صامتاً لحظات ليجلس. كانت الأنظار ترمقه بإعجاب، فما أن سكت عن الكلام حتى اشتعلت الأكف بالتصفيق.

مالت خديجة على زوجها توشوشه، فكان الجميع يتمنى أن يصل إليه، وهتف صادق مازحاً أن تبادل الأسرار بين اثنين غير مسموح به على مائدة الطعام، وعلق عبد القادر على قوله بأن رقابة والد العروس ليست مستحبة. وسانت روح المحبة فكان يوماً مسح فترة من الحزن والقلق.

ولم يكن مأثوفاً بداية الزواج نهائياً، لكن الزوجين دخلا الغرفة فأقبل الباب. وكان أول الحديث في طلب عبد القادر ان تعيد عليه وشوشتها لأنه لم يستمع اليها جيداً، ابتسمت وهي تقول بطريقة إملائية:

ما سمعته من ابراهيم كان مؤثراً، أنت أب أحسن رعاية لبنائته.  
فما كان من عبد القادر إلا أن قال:

وأرجو ان أكون زوجاً بما يليق بك.

فعدت الى الوشوشة التي كنت واضحة في سمع الزوج:

انا التي اسعى حقيقة كي اكون زوجة تليق بك.

واكتمل اللقاء بين الزوجين، وهما اللذان كنا يحلمان به شوقاً منذ بداية الاحتفال ظهراً.

عن الخان غاب عبد القادر الحلبي ليومين بتمامهما كما لم يحدث منذ سنوات. العاملون نساءوا فاذا حضر دهشوا. لم يكن الرجل ذلك المهيب بعباءته الصوفية شتاءً والحريرية صيفاً، كان السيد الانيق المنفتح على المرح وممازحة عماله، شبابه يعود به إلى قامة مشدودة، وبدنقه الصيفية البيضاء المائلة الى الرمادي وكأنه نجم سينمائي. وتقاطر العمال بعد قليل لتحية العريس الذي اخفى زواجه عنهم، كما ان رئيس المصنع لم يعلن عن كونه والد العروس. وامتلأت الغرفة بالمباركين، فأعلن عبد القادر رداً على تحية العاملين بتوزيع أجر أسبوع عليهم احتفالاً بالزواج. وقيل بعد ذلك إن الرجل قد تغير، إلا أن طيبته ما زالت تشع.

وسرعان ما التفت صفية وزينب حول خديجة، فكانها بحديثها الذكي وتعاملها الرقيق اجتنبت الفتاتين إليها، ودفعت جمال إلى لوحة الشطرنج كي يتعلم تحريك احجارها فلذقت اللعبة. تحولت صفية الصبية الجميلة إلى صديقة فكانتا تتبادلان الأسرار الصغيرة، واعتنت

بزئبب تصفر لها شعرها وتشاركها الحكايات، واما اسماعيل الذي قابلته مصادفة فلم تملك له سوى السلامة وهو يستعد لالتحاق بخدمة الجيش. وفي الليالي كانت تغمر زوجها بحب لا يذكر أن له شبيهاً من قبل. قالت خديجة ذات مساء ان صديقة لها، منذ أيام المدرسة وقد بلت أستاذة جامعة في كلية التجارة، قد أخبرتها بقدم فرقة مسرحية مصرية ستعرض غداً على خشبة اعتت في مجمع رياضي، دعتهما مع زوجها. ولم يكن عبد القادر قد حضر عرضاً مسرحياً إلا أنه لم يتردد لحظة بقبول الدعوة.

شهدت الفرقة ازحاماً في قاعة العرض، وما أن أطفئت الأنوار وانفرج الستار عن الخشبة، حتى أمسك عبد القادر بكف زوجته التي تمايلت مع موسيقا المقدمة التي رافقتها فرقة راقصة، لتتلاقى عيون الزوجين وقد حملت امتنان عبد القادر لخديجة. أحداث المسرحية تمشي قدماً، فيعبر همساً أن مثل هذا لم يشهده من قبل إلا في مرات عبر شاشة التلفزيون، وأحسن عبد القادر أن خطوة جديدة يتقدم بها في حياته، والفضل لخديجة التي دخلت فجأة مسيرة عمره. ويقول لها في طريق العودة:

‘لا أعتقد يا خديجة أن الحياة من دونك، تساوي شيئاً.’

وكان عبد القادر يعني ما يقول، وأما خديجة بصستها فتحس بالسعادة.

شهدت ملامح الخريف برودة الصباح في الدار، فتنتثرت خديجة بشال صوفي، وكانت تشرب القهوة مع زوجها في اللوان، وبينما كان عبد القادر يستعد للخروج، همست في أذنه وهو يقبلها أنها حامل. توقف الوداع الصباحي، ومال إلى الورااء يتأملها فتملاً عينيه الدهشة التي غرقت في التعجب. وما لبث أن أسرع وهو يقودها الى الجلوس من جديد. ركع على ركبته ليقول إنه لا يسمح لها بالتعب، فلا تفعل شيئاً سوى الراحة. ابتسمت خديجة وهي تقول إن من يسمعك يظن أنك لم تعرف الأبناء من قبل، فإذا به يهتف:

’ولكني لم أعرف مثلك من قبل يا حبيبتي‘.

وكانت تسمعه لأول مرة منذ زواجها به يخاطبها بالحببية، آنذاك خطفت من كفه قبلة، ليبادلها بأخرى وهو يطبعها بعمق غارقاً بوجهه في بطن كفها. جعل يتمتم كشاب عاشق:

’شكراً لله أنني عرفت امرأة اسمها خديجة‘.

ومع مرور الأيام كان عبد القادر قبل خروجه من الدار يسأل عن وضع الجنين الذي تحمله، فتجيب خديجة بأن الأملة التي وضعتها في أحشائي مازالت في الحفظ والصون. كان حديثهما كأغنية يشارك فيها اثنان، فيتلذذان بأدائها.

واكفهرّ خريف تشرين بأخبار هجوم الجيش السوري على إسرائيل، متماشية مع أبناء الجيش المصري وقد تخطى قناة السويس

بجسر اخترعته عبقرية هندسية. كانت أخبار الراديو التي يستمع إليها عبد القادر قد اعانت اليه الأمل في صنع ما يعيد الكرامة إلى الامة العربية. خرج الرجل من غرفته ليهدف في ساحة الخان:

'اسمعوا يا رجال، جيشنا يهاجم العدو إسرائيل، النصر قادم.'

- ٢٨ -

نيران الحرب تتوقف، وتبدأ المفاوضات بين أطراف القتال. وكان اسم المجند إسماعيل الحلبي على قائمة المفقودين فنزل النغم على الحلبي وعائلته. وظهر رئيس البلاد على شاشة التلفزيون وهو يرفع العلم السوري على أرض القنيطرة، بينما احتفظت إسرائيل بمرتفعات الجولان. بقي إسماعيل مفقوداً تتطلع الأنظار إلى عودته، وكانت عين عبد القادر على بطن خديجة يربط بين ولادتها وعودة الابن الضائع الذي ظلت غرفته تغرق في صمتها، فلا تتكلم سوى صدورته التي أطرها الأب، يقف الاب أمامها مساء كل يوم لنفائق، يحادثها فيسمعها وكأنها تقول سأكون في الدار غداً. ولكن الانتظار يطول مع تعاقب الأيام ببطء قاتل.

في غرفة الخان اجتمع الأب وابنه بعدد من المعارف والاصنقاء. كان ابراهيم ينتظر من والده أن يبدأ الحديث، لكن الاستسلام للحزن

- ٢١٤ -

منع الاثنيين من أي كلام. بعد قليل هتف ابراهيم وكأنه وجد المدخل  
الى فكرة ظنّ أنه يكتشفها:

ما دامت تقارير الجيش لم تشر الى وفاة، فهذا يعني أن أخي  
اسماعيل حي يرزق.

فأيده عبد القادر بهز رأسه ليؤكد على قوله، وعاد ابراهيم ليقول  
من جديد:

'هناك احتمال أن يكون إسماعيل قد فقد الذاكرة لسبب ما، فهام  
على وجهه في أرض المعركة'.  
أذناك علق الاب بصوت واهن:

'هل تتصور يا ولدي أن الجيش عاجز عن العثور على جندي؟'.  
وكان ابراهيم يخشى أن يصرح بشيء عن وقوع إسماعيل في  
الأسر، إلا أنه لم يمنع نفسه من الإفصاح عن الفكرة ليقول إن كان  
إسماعيل قد وقع في الاسر ولا تعلم إدارة الجيش عن ذلك، فاشتعل  
ذعر عبد القادر ليقول:

'وهل العدو لا يتورع عن قتل أسرائنا؟'.  
بالرغم من اقتراب موعد الولادة، فإن خديجة كانت تحرص  
على مراعاة القلق الدائم لزوجها، لذا اتفقت مع الدكتورة عائشة  
وليلي زوجة ابراهيم كي ترافقاها لحظة اقتراب المخاض إلى  
مشفى التوليد، لتفادي إزعاج عبد القادر. وفي عصر ذلك اليوم

الموعد هرعت المرافقتان، وكانت صفيّة معهما، لئلا ينقل إلى  
مرافقة الحامل على عجل. وُسِّتْ خديجة على الفراش بانتظار  
الطبيب الذي صانف انشغاله بولادة امرأة أخرى. واجتمعت  
النسوة الثلاث مع الممرضه حول السرير، فازداد القلق مع تزايد  
لحظات الطلق. وما كان من ليلى إلا أن سارعت مستجدة  
بالطبيب الذي فرغ بعد قليل من مهمته، و ما إن دخل غرفة  
خديجة حتى فوجئ بقدوم الطفل الذي أطل على الدنيا.

خرجت خديجة من المشفى مع زوجها وهي تحمل وليدها.  
حملتهم السيارة باتجاه الدار. وفي الطريق عاتبها عبد القادر بمحبة  
ممازحة وهو يقول ألا أستحق أن أحضر قدوم ابني، فرددت بقولها  
إنها تركته لأعماله وهمومه وان عائشة وليلى كانتا تمثلاه. وكان  
حافلاً استقبال الجميع للطفل وهم يجتمعون حوله وحول أمه  
ويتفحصون القادم الجميل. هتف عبد القادر بهم:

رحبوا يا أهل الدار بضيفنا القاسم.

وتساءل الأخوة عن هذا الاسم الذي أطلق على الرضيع، فقوتت  
(فاته) على الأب فرصة الجواب بزغرودة، ولكن عبد القادر أشار  
عليها بالصمت وهو يقول:

لا يحتمل ابننا القاسم أية ضجة.

في المساء، اجتمعت العائلة حول فراش خديجة وهي تحتضن  
ابنها. توالى الكبار والصغار على غمر نفاقة القاسم بالهدايا الذهبية

التي يشكونها بالنبابيس. وكانت عادة مأثوفة لدى عائلات كثيرة وقد  
تفنن بصناعتها صياغ حلب. (ما شاء الله) و (حمداً لله) و (قل هو الله  
أحد) و (عين الحسود فيها عود)، كانت الهدايا قد اشتراها عبد القادر  
ليقدمها الأبناء، بينما هدية عائشة مع زوجها طائب فكانت عقداً  
طوقت عنق خديجة، ولكن إبراهيم التي قدمت زوجه ليلي سواراً  
مطعماً بحجرة ياقوت، فقد قال:

تعود الناس على مناداة الوالد (أبو إبراهيم)، أما أنا فسأنازل  
مؤقتاً لمناداته بأبي القاسم، وأعود بعد سنين لأستعيد الاسم القديم  
فلم يتمالك الاب نفسه فذرف دمعة سرعان ما مسحها بكفه،  
وكانت خديجة تقول:

إبراهيم أخي، ليلي وعائشة وصفية وكل العائلة لا يرعانا سوى  
رجل واحد اسمه عبد القادر.

و ذات يوم، تلقى إبراهيم مكالمة من مساعد في الشرطة الجنائية،  
ليشير فيها إلى وجود شاب يدعى جمال وهو يقول إن المحامي  
إبراهيم الحنبي قريبه. وهرع مسرعاً إلى مبنى الشرطة غير مصدق  
بأن أخاه الذي لم يتجاوز السادسة عشر من عمره قد يرتكب خطأ ما  
ليُحجز في مكان كهذا. قبل إبراهيم المساعد طالباً منه معرفة  
المحتجز وما إذا كانت له علاقة به، فقال:

الشاب اسمه جمال الحنبي، والده عبد القادر.

استدعي جمال من القبو، وإذا بإبراهيم يدهشه لقاء أخيه منكمس الرأس، وكانت عيناه لا تستطيعان النظر إلى إبراهيم. وتمالك المحامي نفسه فسأل المساعد عن الجرم المنسوب للشاب، فقال الشرطي متلذذا بوصف الواقعة:

تعاطي المخدرات، فقد دهمت الدورية مجموعة شباب في بيت أدهم. وهكذا سيقوا إلى الجنائية بتهمة الجرم الموصوف.

واقرب المساعد هامساً في أذن إبراهيم:

الشاب حنث، وقد يفهم حضرة العقيد رئيس الجنائية هذا الأمر. وأدرك إبراهيم بحسبه كمحام أن الحل لهذه المشكلة بيد هذا المساعد. سأله إن كانت الجنائية قد نظمت تهمة بحق جمال. فكان الجواب:

الأمر يتعلق بك يا أستاذ إبراهيم.

ابقسم المحامي وهو ينس في درج مكتب المساعد مبلغاً من المال، فما كان من صاحب الدرغ إلا أن ابقسم.

خرج الأخوان من المبني. إبراهيم يقود السيارة بهدوء، وأما جمال فكان يعالج صمته بالقلق. وتوقف السير عذد الضوء الاحمر وعذده سأل إبراهيم:

ألا يُسمح لي بمعرفة الحكاية.. كل الحكاية؟

تخلص جمال بعد قليل من صمته، فكان يتنفق بالحديث:

لم يكن هناك حكاية ولا رواية. كان رفيق لي جمعي مع جماعة من أصدقائه. فوجئت بهم يدخنون السجائر و أنا لم أعرف التدخين من قبل. عرض علي أحدهم سيجارة فرفضت، وطرق الباب بعد قليل ليدخل غريباً كشفوا عن أنفسهم بأنهم شرطة الجنائية وأعدوا عن إلقاء القبض علينا بتهمة تعاطي المخدرات. عرف أحدهم وهو ذلك المساعد بأني ابن عبد القادر الحنبي وأخي المحامي إبراهيم، وهكذا سبق بنا إلى قبو النظارة.

وسكت جمال، بينما تساءل إبراهيم إن كان يعلم شيئاً عما تحويه السجائر، فقال جمال ببراءة:

‘وهل السجائر تعني المخدرات؟’.

واكتشف إبراهيم ما رسم لعائلة جمال ليكون فحاً، إلا أنه تجاوز المكيدة بالمال.

- ٢٩ -

صفية التي حصلت سابقاً على الشهادة الثانوية، كانت تمني لو أنها تدرس في كلية الطب كأختها عائشة، إلا أن الطموح كان علقه العلامات غير المؤهلة، لذا عقد اجتماع عائلي خيرها عبد القادر فيه لتنتقي دراسة ما تريد. اقترح إبراهيم دراسة الألب الإنكليزي لميلها إلى اللغات فسأدت عائشة هذا الرأي، بينما انبرت خديجة بقولها إن

- ٢١٩ -

أحدًا من أسرة عبد القادر لم يتقدم لمساعدة والده في أعماله،  
واقترحت على صفية الانتساب إلى كلية التجارة لتكون ذات يوم  
المعين له في أعمال الخان والشراكة في معمل الأزميرلي. ويومها  
نظرت صفية بإعجاب إلى زوجة أبيها:

موافقة على الانتساب لكلية التجارة، شريطة أن أساعد بابا منذ  
الآن.

وأما ليلى فلم تنقطع عن الحضور إلى الدار لأكثر من مرة في  
الأسبوع، لتضمّ القاسم إلى صدرها، تلاعبه وتناغيه. يتسم لها إذا  
حضرت ويبكي إذا غادرت. تسألها خديجة ذات مرة:

‘إذا أنت تحبين الأطفال، لم تأخرت هكذا؟’.

فتجيب بأن عمي ينجب الأطفال، وأنا وإبراهيم نحبيهم.

ونفتحت أنوثة زينب باكراً، فثارت مخاوف الجميع. وهكذا تحول  
جمال أحياناً إلى مرافقتها في الذهب والإياب، وتارة عبد القادر  
يصطحبها أو واحد من عمال الخان. كانت زينب تبدو في العشرين  
من عمرها بالرغم من صغر سنها. هي الجميلة المشوقة القوام  
تلاحقها العيون مسحورة بجسدها وشعرها المتناثر على الجبين. وأما  
في مدرستها فقد ثارت غيرة مدرسات فيها وكثيرات من الزميلات.  
وحدث ذات يوم أن رجلاً زار عبد القادر في غرفة الخان، ليفاجأ  
الأب بطنب الزائر. كان الرجل الذي قدّم نفسه بأنه تاجر أقمشة في  
سوق النمل، يطلب القرب منه في ابنته. قال الحلي:

صفيّة مازالت طالبة في الجامعة، وهي تريد أن تكمل تعليمها.  
فصح الرجل اسم الفتاة ليقول المحروسة اسمها زينب وليس  
صفيّة. ذهل الحلبي وهو يقول:

زينب! زينب فتاة لم تبلغ بعد الخامسة عشر من عمرها.  
وقال من جديد أيعقل أن ابنتي الصغيرة مؤهلة لتكون زوجة  
لواحد من أولادك. فقال الرجل متباهياً:  
أطلبها نفسي، وأنا أهل لها شباباً ومالاً.  
وكان الاستغراب الغاضب يدور في روح عبد القادر الذي أمسك  
نفسه ليقول:

تطلبها نفسك يا رجل؟ انت تصلح أباً لها.  
فقال الرجل بعد صبر تمسك به:  
ألم تكن آخر زوجاتك في عمر ابنة لك؟  
خطف عبد القادر صبر الرجل ليرميه وراءه، وهب واقفاً وهو  
يضرب بالهدوء عرض الحائط:

استقبلتك. استمعت إليك. والآن حان وقت المقابلة لتنتهي.  
قال الرجل وهو يضع ابتسامة صفراء على شفثيه قبل ان يغادر  
الغرفة:

خاب ظني بك. أنت تضيع فرصة على ابنتك.

كظم عبد القادر غيظاً كاد أن ينفجر، وحوّله إلى أسنانه التي أطبق عليها بعنف. واذ بقي وحيداً رددت الجدران صياحه وهو يردد (أي جنون)، ليكررها بجنون.

حمل الحلبي همه مساءً ومضى. نخل الأدار ليتوجه متسللاً إلى غرفة زينب، فوجدتها منكبّة على مكتبها تقرأ. وقف يتأملها، وبعد فترة تنبهت إلى وجوده فهتفت ترحب به، آنذاك هداه الموقف إلى السؤال عن دراستها واستعدادها لامتحان (الكفاءة)، فقالت: 'بناتك لا خوف عليهن، ولن أكون إلا كعائشة وصفيّة.'

فمال عليها يقبلها من رأسها، ويغادر دون كلمة. استقبلته خديجة بابتسامتها المرحة أبداً. كان القاسم نائماً، وأما الأب فلم يكن على عاتقه وهو يشنكي بقوله ان زينب بجمالها باتت مشكلة، فتساعت الزوجة مستكرة: 'وهل جمال الصبية بات مشكلة؟'

كانت كلماتها مشحونة بغضب مكبوت، فلزم الصمت، إلا أن خديجة أحست بخطأ لم ترتكبه من قبل، وحاولت أن تعود إلى الطبيعة السمة فقالت مازحة لثبتت الغيوم التي خيمت: 'بعد ان نطق القاسم بكلمة ماما، نجح في نطقه لكلمة مزدوجه هي بلبا قادر. اقراه يعتبر نفسه صديقاً لك؟'

اقتربت خديجة من زوجها لتقول بجديّة وهي تجلس قربه على الكنية:

‘جميع ابنائك يحبونك أباً وصديقاً، واتمنى كما كنت معي أن أبقى  
لك صندوق أسرار لأني أحبك.’

وتسألت عن الذي يخفيه عنها، فما كان من عبد القادر إلا أن  
حكى لها ما حدث مع الرجل بائع الأقمشة، وتوقف عن تنفقه في  
ذكر تلك التفاصيل، ليقول بحذر:

‘هل شكلك فارق السن بيني وبينك أية عتبة في اتخاذ قرارك؟’

كانت أميتها في أن تحضن زوجها، ولكنها لم تفعل وقالت:

‘ما كنت أتصور زوجاً لي غيرك، ويبدو أن انتظاري الذي طال  
قد كوفئت عليه. سنك حكمة، ورجولتك شباب تحسد عليه. وأما  
حبيبتي زينب فلها حق في التعليم ولا يعني أن في جمالها فرصة  
لمنتهزي الفرص. لك الحق أن تحميها وأنت من يحمينها.’

وكانت كلماتها قد مدت عبد القادر بدم الشباب، فأحس بأنه يعود  
إلى أيام البنديفة في جبل الزاوية، ويتذكر زوجته الراحلتين وهو  
يتطلع بإعجاب إلى خديجة وكأنها بداية حياة مختلفة بالرغم من  
بلوغه السبعين. وقالت خديجة:

‘الأعشاب والازهار نباتات موسمية، أما أنت فنشبه شجرة

السنديان بقوتها، بل أنت السنديان نفسه.’

بعد سنوات بطيئة من عذاب الحنبي الخفي، شوهد إسماعيل المفقود وفقاً للوائح الجيش. قيل إنه في قرية لبنانية قرب الحدود. وقد أقسم رجل، كان يتردد على الخان منذ زمن، لعبد القادر بأن ما رآه يؤكد على وجود إسماعيل ملتجئاً. تيقظ الحنين عند الأب، إلا أنه سأل عن اليقين في صدق الخبر، فما كان من الرجل الذي يعمل في تهريب الأدوية إلا أنه قال:

كل ما أعرفه من أهل القرية بأن شاباً من مدينة حنب قد لجأ إليهم لوقوعه في حب فتاة يحتمل أنه تزوجها. وأقسم أنني يوم لمحتة عرفت أنني رأيتها ذات يوم، وأنه إسماعيل ابنك.

وظل الحنبي في استماعه لأقوال الرجل حبيس دائرة الشك، وإن كان الأب داخل عبد القادر مال إلى بقاء ابنه على قيد الحياة. قال عبد القادر:

أتراك لمحتة، أم أنك حانتته وجها لوجه؟.

أقول إنني لمحتة فعرفته. وما دام الشاب من حنب فهو إسماعيل. رجل مثلي لا يمكن أن يخطئ في تقديره. هو ابنك وأقسم على ذلك.

هكذا جاء التأكيد من الرجل، لكن الحنبي قال لنفسه:

إذا كان هو إسماعيل، فلم لم يتصل بي أو بأحد من أهله؟.

شكر للرجل اهتمامه، إلا أنه احتفظ بشكوك الاحتمالات لنفسه.  
وما هي إلا أيام قليلة تمرّ على اللقاء مع الرجل، والذي أخفاه عن  
الأسرة بمن فيهم إبراهيم، حتى انتشر في المدينة خبر اغتيال حقوقي  
وأستاذ جامعي في دمشق. قيل أن منظر في جماعة اسلامية هم من  
أطلقوا النار فأردوه قتيلاً أثناء خروجه صباحاً من منزله. وذهب  
آخرون الى رأي مفاده أن الشهيد بصفته محامياً خسر دعوى موكله  
فكان نصيبه الإعدام للموكل والقتل للمحامي.

بعد أقل من أسبوع، حوصرت ضاحية دمشقية فطوقتها قوت من  
الجيش والأمن وكان ثلاثة من مجهولي الهوية قد اشتبّه في اغتيالهم  
للأستاذ، اختبئوا في بيت ريفي فأسرعت القوات إلى الإحاطة  
بالمكان فلم تترك للهرب منفذاً . وتبادل الطرفان إطلاق الرصاص،  
ولكن القنابل اليدوية ومدافع البازوكا هي التي هدمت أحجار المنزل  
على رؤوس الثلاثة وأجسادهم، وهي التي حسمت المعركة. ونقلت  
جثث الثلاثة، الذين كانوا من الشباب، لتستقر في المشرحة.

وتلقى عبد القادر الحلبي إشعاراً من جهة أمنية بضرورة القدوم  
الى العاصمة، وذلك من مسؤول في وزارة الداخلية، وإذا ما علم  
إبراهيم أصراً على اصطحابه وكان الاثنان في طريقهما الى الموعد  
يتناولان في سرهما عن سبب تلك المقابلة. إبراهيم يقود السيارة  
والأب صامت، في منتصف الطريق قال إبراهيم:

يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّكَ لَمْ تَسْتَدْعِ إِلَّا بِسَبَبِ الاسْتِعْدَادَاتِ لِتَكْرِيمِ رِجَالِ  
الثَّوْرَةِ أَيَّامِ الْاِحْتِلَالِ الْفَرَنْسِيِّ.

وَفَرَّجَ عَبْدُ الْقَادِرِ عَنِ صَمْتِهِ الْحَائِرَ لِيَقُولَ:

أَعْتَقِدُ أَنَّ وَزَارَةَ الدِّفَاعِ هِيَ الَّتِي تَسْتَعِدُّ لِلتَّكْرِيمِ.

وَمَا لَبِثْتُ أَنْ اسْتَعَادَ السِّبَاحَةَ فِي بَحْرِ الْمَاضِي فَصَارَعَ أَمْوَاجَهُ.  
فَقَدَّ زَوْجَهُ أُمَّ الْخَيْرِ، وَمِنْ بَعْدِهَا جَنِيَّةً، وَاخْتَفَى ابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ الَّذِي  
ادَّعَى رَجُلًا أَنَّهُ سَالِمٌ يَعِيشُ فِي قَرْيَةٍ لُبْنَانِيَّةٍ. تَوَقَّفَ عِنْدَ إِسْمَاعِيلَ  
لِيَسْأَلَ إِنْ كَانَ اسْتَدْعَاؤُهُ إِلَى دِمَشْقَ لِيَقَالَ إِنَّهُ تَمَّ الْقَبْضُ عَلَيْهِ  
كَمَا رَبَّ مِنَ الْخِدْمَةِ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ عِنْدَ أَبْوَابِ الْوِزَارَةِ:

مَا زِلْتُ أَتَصَوَّرُ أَنَّ هَدَفَ الزِّيَارَةِ هُوَ لِتَكْرِيمِ الْمَجَاهِدِينَ.

وَدَارَتْ فِي خِيَالِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْحَلْبِيِّ صُورَةُ الْأَيَّامِ فِي جَبَلِ  
الزَّوَايَةِ، فَحَنَّتْ نَفْسَهُ:

لَوْ أَنَّ تِلْكَ الْمَرْحَلَةَ اسْتَمَرَّتْ لَكُنْتَ اسْتَحَقَّ أَنْ أُكْرِمَ مَعَ  
الْمَجَاهِدِينَ!

اسْتَقْبَلَ مَسْئُولٌ كَبِيرٌ الْقَادِمِينَ مِنْ حَنْبٍ بِتَرْحِيبٍ مَتَحَفِظٍ. وَمِنْ ثَمَّ  
تَوَجَّهَ بِالْحَدِيثِ لِعَبْدِ الْقَادِرِ يَسْأَلُهُ عَنِ الْعِلَاقَةِ الَّتِي تَرْتَبُطُ بِعَبْدِ الْقَادِرِ  
الْحَلْبِيِّ بِالْمَدْعُوِّ (أَبُو عَيْبِدَةَ) الَّذِي تَبَيَّنَ لَنَا اسْمُهُ وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ الْحَلْبِيُّ،  
فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ هَتَفَ الْأَبُ بِفَرَحٍ:

هَلْ عَثَرْتُمْ عَلَيَّ وَوَلَدِي، هَلْ اسْتَطِيعَ رُؤْيِيهِ؟

وسأل إبراهيم الذي توجس شراً:

‘لا بد أن أخي موجود في مكان عنديكم’.

المسؤول يتأمل الرجلين، وامتنت يده الى الهاتف ليأمر أحدهم بالحضور فوراً. قال للقادم أن يصطحب السادة من أهل حلب للتعرف على أبو عبيدة.

وفي الطريق كان السؤال الملحّ على عبد القادر يتعلق بما سمي أبو عبيدة، وإما إبراهيم فقد لعب القمار في عبّته، فلم يستطع أن يتخلص من تشاؤمه. الاثنان صامتان، لكنهما لم يستطيعا الفرار من الحيرة القاسية. بعد قليل توّفا أمام مبنى قديم قام على حراسته عدد من رجال الشرطة. وقادهم المرافق في ممر تحت الأرض فوصلوا غرفة فُتحت لهم. كانت هناك خزائن حديدية، فُتحت إحداها وسُحب مجرورها التي تتبين أنها ثلاجة، فظهرت جثة شاب. الوجه تملأ نصفه لحية، وأما المشهد الذي انكشف للأب وابنه فكان معروفاً لديهم. هو إسماعيل ومن غير إسماعيل الذي لم يغيّر الموت فيه شيئاً. هتف الأب بضعف:

‘ماذا فعلت بنفسك يا إسماعيل؟’.

وملأت الدموع عينيه، وتهاوى فأمسك إبراهيم به.

وفي العودة إلى المسؤول، مكثا في غرفة السكرتير لفترة حسابها دهرًا، وإذا ما سُمح لهما بالدخول قال المسؤول إن ابنتك من نقيب بابي

عبيدة، فأطرق الحلبي برأسه متسائلاً إن كنت سأستلم جثة ابني  
إسماعيل لأدفنه، فما كان من المسؤول إلا أن قال:

'غير مسموح لك، فالتحقيق ما زال مستمراً للتأكد من أعوان  
الارهابيين الثلاثة، يؤسفني القول بأن ابنك قاتل، لذا سيدفن في مقبرة  
نن تدل عليه.'

وقال المسؤول واقفاً، كمن ينهي اللقاء:

'نتوقع أن نكشف عن محاولات إرهابية أخرى، ونرجو أن لا  
يكون أحد من الأقارب له علاقة.'

استمر الصمت في الطريق إلى حطب. الاثنان لا يريدان ان  
يفصحا عن مقتل إسماعيل. هو الحزن الفاجع الذي تحكم في أنفاس  
الحلبي وابنه، فلا يسمح لهما بالإحاطة بهول المصيبة، وهما يفكران  
بأمنية واحدة:

'لو أن إسماعيل ظلّ مفقوداً أو هارباً، ولم تكن له علاقة بأي  
إرهاب.'

واحترمت خديجة صمت زوجها الذي استمر إلى صباح اليوم  
التالي. لم يقصد الخان عبد القادر كعادته، بل توجه سيراً على الأقدام  
إلى قبر ابراهيم هنانو. ضريح الزعيم في حديقة قامت على حراسها  
أشجار السرو السامقة. وقبر هنأو محاط بقبري سعد الله الجابري  
والجندي المجهول، فوقف الحلبي أمامهم مطأطئ الرأس، وهو يقرأ  
الفتحة هامساً. خاطب الزعيم الذي لم يقابله:

سيدي، اغفر لابن عبد القادر الحلبي الذي شرفه قتال الفرنسيين تحت لوائك، وأما إسماعيل الذي جاء من صلبني، فقد وقع في فخ الخديعة، وقُتل دون قضية.

وقال عبد القادر جليلاً على ركبتيه عند الضريح:

'واغفر لي أي لم أزرِكَ من قَبْل، فقد شغلتني عنك الحياة بأطماعها وهمومها.'

وآنذاك لم يعلم الحلبي إن كان بكاؤه في تلك اللحظات على فقد إسماعيل، أم على انشغاله عن الزعيم، أم فه التفكير من عدم زيارة رجل أمضى حياته يناضل من أجل تحرير البلاد.

- ٣١ -

لقاء الجمعة العائلي عقد بعد أيام في الدار، وأعقبه آخر دون أن يكشف السر. عبد القادر مع ابنه إبراهيم استطاعا أن يخفيا مقتل إسماعيل، فكنا يحافظان على الحزن مكبوتاً، ولم يُنطق بكلمة أو إشارة. وكانت خديجة قد سألت ذات مرة عن سبب الزيارة السابقة لدمشق، فكان الجواب هو من أجل وداع صديق. وإذا ما تعاقبت الأيام تناقل الناس أخبار اغتيالات وقعت في أكثر من مدينة. جماعات دينية متطرفة نشطت في إقلاق راحة الحكومة، وعمت على تصيد عدد من رجال أحزاب وعلم وفكر.

- ٢٢٩ -

وكان إبراهيم قد استمرّ في مكتبه إلى وقت متأخر من الليل. انصرف كاتبه بينما بقي هو يراجع أوراق الدعوى التي كان الغد موعداً لها. سمع جرس الباب فتوجه منه ليفتحه، وكان ملثمان يسدان فتحه الباب يشهران خنجرين هائلين، فانقضا بهما على إبراهيم. كانت خبرته السابقة في الأمن قد جعلته يتفادى الطغاة. وقد بدا ان المثلثين لم يلجأ إلى المسدسات حرصاً على عدم إثارة ضجة في العمارة السكنية. وإذا كشف إبراهيم عن ثأم أحدهما، تبين له أنه لم يتجاوز العشرين من عمره، فتذكر إسماعيل. رجع إبراهيم مسرعاً إلى خزانة يخرج منها مسدساً احتفظ به طويلاً دون استعمال. شهراً المسدس في عونته ليهتد به المثلثين، لكنهما هربا.

كان إبراهيم قد أصبح في مجلس نقابة المحامين، وهو المسئول الوحيد كمرشح يفوز في الانتخابات لذا لم يكن هناك من مبرر للاغتيال. هكذا قال عبد القادر الحلبي لابنه بعد أيام، ولكنه اهتدى فجأة إلى فكرة نبئت عنده، خاف ان يفصح عنها لفترة قصيرة، إلا انه ما لبث ان حكاها يقول:

أنت لم تكن في حزب ما، كما لم يكن لنجاحك في انتخابات النقابة سبب في محاولة الاغتيال. ولا أظن أن لعملك القديم في الشرطة أو الأمن دوراً في ذلك. بطني يا إبراهيم أن الأمر يتعلق بشيء له علاقة بمواقفك التي لم تتردد في نكرها أو إعلانها.

سأل إبراهيم عن قصده بذكر المواقف، فكان الجواب:

تكرر في عديد من المناسبات انتسابك إلى العقلانية، وبالأحرى العلمانية. ويبدو ان مشكلة المتدينين تكمن في عدائهم لكل ما يمت بصلة الى العلمانية.

ولكن العلمانية لا تعني العداء للدين. هي القرام باعطاء ما لله لله وما تقصر تقصر، اعني ان الحياة المدنية التي تشكل العلمانية عانها لا تمس عقائد الناس.

وبينما توقف إبراهيم عن كلامه، جعل عبد القادر يقول:

‘وهل يمكن للجماعات المتعصبة أن تفهم أقوالاً كهذه؟’.

كان الوالد يفكر والهموم تحاصره. قال:

‘لا أريد أن أفقد الولدين. أحدهما أبحر في تيار التعصب، والآخر يسبح ضد التيار’.

وقال الحلبي مقترباً أكثر من ابنه:

‘ما عانت أحوال البلد بقادرة على احتمال مثل افكارك. احتفظ بها لنفسك يا ولدي’.

وكان إبراهيم يهمس بصوت مسموع:

‘بات الزمن يتراجع الى الماضي. أرتيك يا مستقبل!’.

احتلت صفيّة ركنا في غرفة والداها الواسعة. طالبة كلية التجارة تراجع وتدقق في حسابات الخان ومعمل العلف، وكانت تحتفظ بحسابات مصنع الأزميزلي الذي كان عبد القادر شريكاً فيه. وقبل

فترة من تخرجها، انتقلت إلى غرفة خاصة، فكانت تشارك في كافة الأعمال المحاسبية والإدارية. كانت المرأة الوحيدة بين كافة العاملين قد منحت حق تمثيل عبد القادر الحلبي في حضوره وغيابه. وتعامل الجميع معها باحترام لا تكونها ابنة الحلبي، بل إن مؤهلاتها دفعتهم أيضاً إلى ذلك. كان العمال والزبائن يخاطبونها بالست صافية، فوجد والدها نفسه يفعل الأمر ذاته. كانت الست صافية في الخان كما تعود مخاطبتها في الدار.

وخلت شوارع حلب من المارة إلا قليلاً، وقد حدث ذلك منذ ساعات الصباح، فمذ دخول الجيش بجنوده ونبلاوته إلى المدينة لجأ الناس إلى بيوتهم، وأُقفلت معظم الدكاكين، وامتنع الكثير من الالتحاق بأعمالهم. كانت قوات الجيش قد أعلنت الحرب على جماعات التطرف منذ انتشار أعمال التخريب والاعتقال بشكل واسع. ولهذا دُهمت المنازل تفتيشاً عن السلاح، وكانت دار الحلبي واحدة من تلك التي نالت نصيبها من التفتيش.

وفي صباح باكر سُمع ضرب بأعقاب البنادق على باب الدار. هرعت (فاته) لتفتحه، فإذا بالجنود ينفقون بأسلحتهم على الحوش. خرج عبد القادر من غرفة المربع مدعوراً ليشاهد المسلحين في كل زاوية من فسحة الدار. نودي على الجميع، وهكذا اجتمعت العائلة في صحن الدار يصطفون أمام قائد الجنود. هو يسأل عبد القادر ليندل على كل فرد من أهله، فقال يقدم عائلته:

زوجتي خديجة وطفلها القاسم، ابنتي صفية خريجة التجارة  
وجمال طالب في الجامعة، زينب، فاته تعمل عندنا، وأنا أدعى عبد  
القادر الحلبي صاحب خان للمنتجات الزراعية. وأمامكم غرف الدار  
وأقيبتها تفشونها كما تشاءون.

انتشر الجنود منتشرين في كل الأرجاء، من غرف ومطبخ  
وأقيه. وانتقلوا من المربعات الثلاثة إلى السطح. بحث التفشيش  
في الأثاث والاسرة والكتيبات، فاستمر ذلك البحث لأكثر من  
ساعة. وإذ وضع جندي أمام القائد مجموعة صغيرة من الكتب  
تفحصها. العناوين دلت على ماله علاقة بالتاريخ والسياسة  
ومستقبل الإسلام، منها ما هو مؤلف أو مترجم، فأمر القائد أن  
تصطحب معهم للتفتيش فيها. وأعلن جندي آخر عن خذو الدار  
من الأسلحة، فكان الأمر بالانسحاب.

عائلة الحلبي تتبادل النظرات المسائلة، وكان عبد القادر هو  
مركز العيون التي تبدأ به وتنتهي بكل واحد من أهل الدار. كان  
التعليق الأول لصدفية في قولها:

ألا يراعي الجنود سمعة رجل اسمه عبد القادر الحلبي؟

فبعته آراء وملاحظات من البعض وقد تناولت خيبة التفشيش، كما  
حملت السخرية بعثور الجنود على كتب حملت في صفحاتها  
المتفجرات. وقف عبد القادر يقلب فكره، فتساءل في سره إن كانت  
لابنه إسماعيل الراحل علاقة في تفشيش الدار، وإن كانت الدار قد

وضعت عليها شارة الاتهام. إلا أنه عاد بنفسه إلى الزوجة والأبناء  
منادياً على (فاتة):

ليكن إقطارنا اليوم على مبدأ خمس نجوم:

وتساعت المرأة عن معنى تلك النجوم والتي لم تدرك معنى  
عددتها.

- ٣٢ -

أصرت العاقلة على الاحتفال بميلاد عبد القادر الحلبي الذي قيل  
إنه بلغ الثمانين منذ أشهر. واجتمع الكل من حوله يساهم في فرحهم  
هذا الهدوء الذي عم المدينة. أطفئت الشموع، وبينما انجرف الكل في  
الغناء له، جعل يتفحص الوجوه. ابراهيم وليلى زوجان بلا أبناء،  
ولكن احتضانها للأخوة بات تعويضاً. عائشة وطائب وابنهما سعد  
الذاهب الى شباب جميل. الست صافية التي أصبحت أهم شريك له  
وترفض العرسان الذين يلاحقونها دون طائل، فالست لم تجد بعد  
رجلاً يليق بها. جمال الوديع وزينب الجميلة، وخديجة مع ابنها  
الفتى. وقال الحلبي فجأة:

كنت فقيراً، ولكني جمعت ثروة لها قيمة بين الناس. لكن  
المال لا يعنيني في شيء فأنتم ثروتي. بالعلم الذي سعيتم إليه،  
وبروح العصر التي تلبستكم. أحبوا بلادكم، وأحبوا بعضكم

- ٢٣٤ -

بعضاً. وأنا أعترف أمامكم بأن خديجة لم تكن لكم زوجة أب،  
فهي أم وأخت ورفيقة درب.

وسكت عبد القادر عن الكلام الذي أخرج ما بداخله، وتحول مع  
الأهل غارقين في صمت عكس نهولاً في وجوههم. وكان إبراهيم  
يفكر إن كانت خطبة وداع تلك، وأما عائشة مع زوجها طالب فكانا  
يفكران في كشف كامل عن صحة عبد القادر.



## سلام المحارب

### يراجع نفسه

توقف المحارب عن متابعة الكتابة في السيرة الحلبية. كان يفكر في المصير الذي سيذهب إليه عبد القادر الحلي، كما أنه يحاول أن يتابع مستقبل أفراد أسرته. وفجأة تساعى إن كانت تلك السيرة قد استوفت حقها، وأن عليه أن يجد كتابتها تلغزياً بالمشاهد والحوار بعد أن توافق على الحكاية أجهزة المحطة القضائية. قرّر أن تتوقف السيرة عند ما وصلت إليه، وأن يرسلها كما هي بانتظار ما سبديه المحطة من ملاحظات.

وبانتظار الصبية التي ستعمل على طباعتها بالكومبيوتر، عاد المحارب إلى حياة طبيعية خالفاً عنه رداء الكاتب. يجول في أرجاء المنزل والحديقة. يستسلم للنوم، بعد طعامه ويشرب القهوة. يعتني بنباتات الحديقة فتخرج له سعاد من بين الأزهار وأوراق الشجر. وفجأة تطلّ عليه زوجات عبد القادر الحلي، فيحس بأن ذلك الرجل

ما عاد غريباً عنه، وحدث أن المرأة قد عكست صورته، وما عاد يميز نفسه من بطل السيرة، فتساءل إن كان يقارب الحلبي الذي لبدأ حياته منخرطاً في ثورة تقاوم الاحتلال، وكانت خطوات مستقبلة تبشر بثروة مالية وأخرى عائلية، وصحا المحارب على حياته التي فقد فيها ارتباط الأسرة، فكان وحيداً يمشي في ليل صحرائه التي بلغت سماؤها بلا نجوم. كان سلام المحارب يعيش حياة أخرى أثناء كتابة السيرة الحلبيّة، وما أن توقف عنها حتى عاد وحيداً كما كان.

الوحشة من جديد. وإذا ما توقف عن كتابة السيرة اكتشف أنه يسقط هاوياً في حفرة لا قرار فيها، وذات يوم مدّ له عبد القادر الحلبي حبل النجاة، ليصبح أمامه وجهها لوجه. أنفاس الحلبي تلاقي وجهه وهو يقول:

«افترض أنني أكبر منك سنّاً، فلم ضعفت هذا؟».

«لم أكن ضعيفاً، ولن أكون».

«ألا يفترض بمن كتب السيرة في أشهر قليلة ليغطي بها تاريخاً طويلاً، أن يكمل المشوار؟».

«أي مشوار؟ أم أنك تريد أن تبلغ من العمر قرناً، وأن تزوج الأولاد والأحفاد، وأن تراقب الأحداث كشاهد على بلد وما سيؤول

الحال إليه في المنطقة والعالم. لنكن واضحين يا عبد القادر الحنبي  
فكتابتي لسيرتك لم تكن تاريخاً، بل إنها مجرد كتابة للتلفزيون  
واعترف بأنها حكاية ترينني العودة إلى الكتابة وملء الفراغ.

غضب الحنبي وتجلت كلماته بقسوة:

'هل كنت نموذجاً لواحدة من حكاياتك، وهل كانت السيرة  
مخترعة؟'

وأطلّ شاب برأسه على اللقاء الذي جمع المحارب بالحنبي،  
ويسأل متحارباً إن كان المحارب يستطيع أن يستدل عليه، فما كان من  
سلام إلا أن صاح قائلاً:

'لا بد أنك إبراهيم ابن عبد القادر. نعم فأنت إبراهيم.'

'أنت دقيق الملاحظة يا سيدي، وأسألك كيف أنقذتني من عدوان  
الإرهاب.'

'بخبرتك أنت في القتال، وقد اكتسبته من عملك في الشرطة  
والأمن.'

'أعتقد أن مشاهداتك للأفلام السينمائية قد دفعتك إلى تصور ذلك.'

وخيم سكون عجز فيه المحارب عن الإجابة أو التعليق.

وخرجت خديجة عليه من صورة سعاد. أدرك سلام المحارب  
أبعاد اللعبة التي يخطط لها أبطال السيرة الحلبية فحاول أن يستعدَّ  
لها. بادر خديجة بالسؤال وهو جالس على المقعد بمواجهه الصورة:  
'ألم أكن صادقاً معك. لقد كنت سيدة حقيقية ساعدت زوجها، بل  
هي التي ساهمت في جعله عسرياً، وفتقلت به من زمن إلى آخر.'  
'لا أنكر تقديمك لي كابنه وفيه لأمها. وكامرأة حاولت الكشف عن  
رغبة زوجها في التقدم، إلا أنك قلّصت دوري كزوجة يمكن أن  
تصبح نمونجاً. أقول انك لم تحجيني تماماً، بل إنك لم تبرز دوري  
في مساندة زوجي وعائلته. ألم يكن هدفك من السيرة الحلبية إعطاء  
صورة عن العائلة المعاصرة؟'

لم يكن هرباً من أطراف الشخصيات التي أطلت عليه من صفحات  
السيرة، بل ان سلام المحارب الذي جال في أرجاء المدينة بحثاً عن  
الأماكن التي جاء ذكرها في السيرة الحلبية. ثم يكن المحارب قد زار  
أو رأى خاناً منذ أكثر من نصف قرن، فابتدأ بزيارة واحد يقع في  
(باب الحديد) . دخله متجولاً فلم يشاهد فيه أيّاً مما تخيله في السيرة،  
فهل خرجت كل تلك الشخصيات من مخيلته أيضاً، أو أن خياله هو  
الذي صنعها؟

في الجولة التي دار في أحياء من حلب القديمة، كانت ابتسامة  
تظهر على وجهه من حين لآخر، فالحلبي وعائلته قد يكون وهماً  
اخترعه، كما أن الآخرين في السيرة مع الواقع والأحداث، ألحقت  
بهذا الخيال. أثار استغراب المحارب وجود مكتبة في تلك المناطق.  
وقف يتأمل واجهتها الزجاجية التي تعرض عدداً من الكتب، دينية  
وتاريخية، وقليلاً من الروايات. وتساءل:

'ما مقدار الخيال في تلك الكتب، أم أنها تعبر عن حقيقة تفكير  
كاتبها؟'

مشاعر تتقلب عليه في طريق العودة، وهي تبحث عن مقدار  
مصادقية السيرة الحثية. إلا أنه ما إن فتح الباب، ودخل المنزل متعباً  
رأى ليلي في الصلاة تكف منتصبه لقول:

'لم تعطني حقي كفتاة فلسطينية. الطفلة التي دفعتمها الهجرة إلى  
الفقر في مخيم لا يصلح أن يكون أسطبلًا. المرأة التي وجدت  
خلاصها في الزواج من إبراهيم.'

وسمعها تقول في العتمة:

'حملت وطني في صدري، وبالرغم من حبي لزوجي وحبه لي،  
فجرح فلسطين مازال ينز.'

وكانت ليلى في كل مكان يكاد سمع المحارب يلاحق صوتها  
ليحدد موقعها. قالت:

'هل كتب علينا إلا ننجب أولاداً حتى لا يعرفوا الهجرة. وهل  
قررت ألا تكون لنا خلفه تعمل على استعادة ما ضاع لي من أرض.'  
وسمعها المحارب تردد في فضاء المكان:  
'تبا لك يا سلام المحارب.'

وتوالت الأيام القاسية عليه، ولكنها هائلة.. وكان الفراغ الذي لم  
تكن فيه فرصة لفعل شيء من قراءة أو خروج من المنزل. وحينما  
أحضرت الصبية نسخة جاهزة من السيرة، وضع أوراقها على مكتبه  
لا يعيرها اهتماماً.

في اليوم الآخر، دخلت أشعة الشمس من شقوق الستارة لتنبه إلى  
حاله. كانت ليلى قد قضاه في غرفة المكتب وهو يحرق في الظلام،  
فلم يعرف النوم وكان القلق يرافق يقظته، وكان الفراغ حياً. نظر  
إلى الأوراق القادمة، فلم يقلبها من أجل تصحيح أخطائها. هو لم  
يقرب منها وكأنها لا تعنيه. رفع الستارة عن النافذة فدبقت  
الشمس على وجوده، وهكذا ابتداءً يصحو من ذلك الفراغ الذي  
احلّ روحه. اليقظة تسلت في جسده، وامتدت يده إلى قلمه  
تكتب على الصفحة البيضاء:

السيد مدير المحطة الفضائية.

من بعد التحية، فقد تمّ اختياري من بين الكتاب لإعداد المسلسل الذي سنتجونه، وأنا إذ كنت أشكر لكم هذه الثقة، أعلن عجزني عن وضع مخطط لهذا المسلسل. المشكلة هي في الفكرة التي لم تتوفر لي، وأظنها لن تتوفر. كنت أظن أنني سأعود إلى الكتابة من جديد، ولكنني فشلت. نهاية الإنسان موت الجسد، وأما نهاية الكاتب فموت الأفكار الكاملة. هل أعلن عن نهايتي، أم أن الأمر لا يعنك. سيدي. لا أخفي عنك سراً، فقد أمضيت شهوراً في كتابة السيرة الحلبية، وأعتقد أنني فشلت، فمزقتها، فهل أصبت. وداعاً لأيام الكتابة.

مع الاعتذار: سلام المحارب

وخرج إلى الحديقة. مشى في المرر تحفّ به نباتات وشجيرات. وإذ وقف أمام شجرة الجوز التي زرعتها منذ سنوات طويلة وابتدأت تثمر، اكتشف أن أوراقها بدأت بالتساقط. توقف متأملاً بؤس الشجرة. همس سلام بذعر راجياً أن تبقى له هذه الشجرة التي كان المارة يقطفون ثمارها، وفجأة داهمته نوبة الربو.

حلب ٢٠٠٩/٧/٤



## وقائع وتواريخ ما كتب في حكاية السيرة الرحلية

عبد القادر الحنبي: ١٩٠٥-

زوجته أم الخير: الوفاة ١٩٤٩. أولادها:

إبراهيم ١٩٣٦- عائشة ١٩٣٨-

زوجته جليئة : الوفاة ١٩٦٧ . أولادها:

إسماعيل ١٩٥٢- أوائل الثمانينيات

صفية ١٩٥٤-

جمال ١٩٥٦-

زينب ١٩٥٨-

زوجته خديجة : ولدها:

القاسم ١٩٧٤-



الطبعة الأولى / ٢٠١٠

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



[www.syrbook.gov.sy](http://www.syrbook.gov.sy)

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٠

سعر النسخة ١٤٠ ل.س أو ما يعادلها